ABU ABDO ALBAGL

اسمي سلمى

مدونة ابو عبدو

فادية الفقير

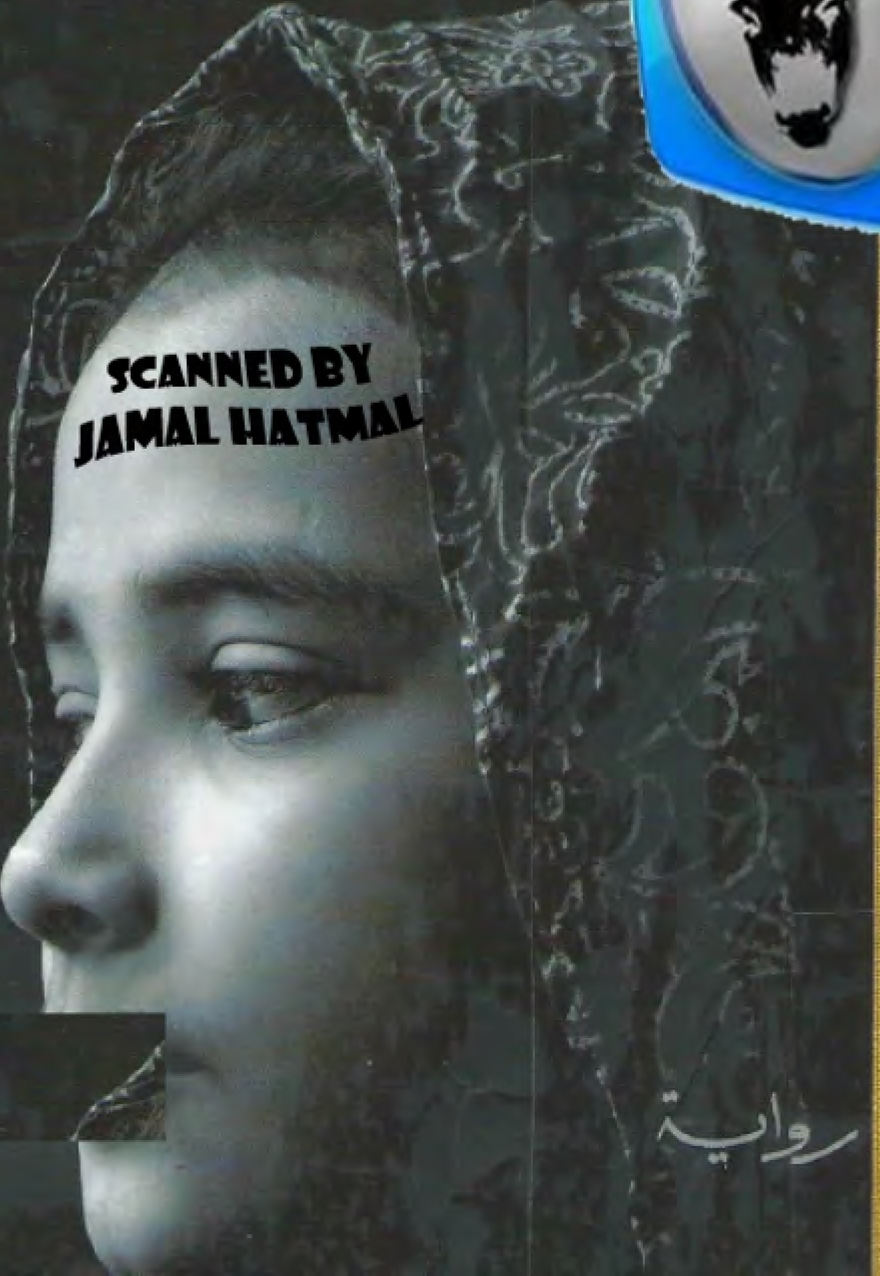

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

[redacted]

رواية

دار الساقي

اسمي سلمى

المترجم في سطور:

عابد إسماعيل شاعر ومترجم، حائز دكتوراه في الشعر الأميركي الحديث. يعمل حالياً مدرّساً للشعر الأميركي في جامعة دمشق، قسم اللغة الإنكليزية، ويكتب مراجعات عن الأدب الحديث في جريدة «الحياة» اللندنية منذ العام ٢٠٠٣. من ترجماته: «قلق التأثر»، هارولد بلوم، «ديوان الشعر الأمريكي الجديد»، مختارات، «سيرة الغجر»، إيزابيل فونسيكا، «الذين يحبّون الشوك»، جونيشيرو تانيزاكي، «باقة برّية»، هاري مارتنسون، «أغنية نفسي»، وولت ويتمان، «فنّ الكتابة»، توني بارنستون وتشو بينغ، «ساعة حياة»، ويليس بارنستون، «ادفنوني واقفاً»، إيزابيل فونسيكا، «خريطة للقراءة الضالّة»، هارولد بلوم، «نصف حياة»، ف.س. نايبول، «بورخس» (مذكّرات)، ويليس بارنستون، «سبع ليال»، خورخي بورخس.

تصميم الغلاف: ماريا شعيب

فادية الفقير

اسمي سلمى

رواية

ترجمة: عابد إسماعيل

دار الساقي

Fadia Faqir, *My Name Is Salma*
First published in Great Britain in 2007 by Doubleday
© Fadia Faqir, 2007

الطبعة العربية
© دار الساقي
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى ٢٠٠٩

ISBN 978-1-85516-291-4

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣

هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

حيث يلتقي النهر البحر

تنتشر قطعانُ خرافٍ على التلال الخضر مثل صوف منجد، فيما أضواء الطاحونة الوحيدة تطفو فوق السطح الهادئ لنهر إكس. إنه يومٌ جديد، بيد أن الاخضرار الندي للهضاب، وبياض القطيع، واللون الرّمادي للسماء، كانت قد حملتني إلى ماضٍ بعيد، إلى قرية طينية صغيرة، منثورة بين هضاب مهجورة، إلى الحمى، حيث بساتين الزيتون تتلألأ باخضرارها الفضّي في الضياء الصباحي. لم أكن سوى راعية تقودُ ماعزها تحت الوهج السّافر للشّمس، صوب سهوبٍ خضر فقيرة، على أنغام نايها القصبي. كانت الحمى في مثل هذا الوقت من السنة تعجّ بالجِمال والخيول والأبقار والكلاب والقطط والفراشات والنحل. الخيول تعدو وتتسابق، ومن حوافرها تتطاير غيومٌ من غبار تحجبُ السّهل. الرّبيعُ يبدأ، ومعه يبدأ موسم حفلات الخطبة. حفلاتُ الأعراس تُقام بعد موسم الحصاد. وكنتُ واحدة من فتيات القرية اللواتي نضجن وحان قطافهنّ. «يايما شِفت القُمَر بالليل في مطرحُه بالسما عَالي. أستغفر الله أني زليت كثر العشق غير أحوالي»، صلّيتُ من أجل عنزاتي، البنّية والسوداء.

ألصقت الفوطة الصحية بسروالي الداخلي وسحبته فوق ساقيّ الحليقتين، المطليتين بالزّيت، وأدركتُ أخيراً أنني حرّة. لقد ولّت تلك الأيام التي كنتُ أطاردُ فيها الدجاجات، ببنطلون عريض وفستان فضفاض مزهّر، مزركش بالألوان السّاطعة لقريتي: الأحمر لشدّ الانتباه، والأسود للغضب، والأخضر للربيع، والبرتقالي الفاتح للشّمس الحارّة. لو كانت هذه القارورة الزجاجية الصغيرة مملوءة بسمّ الأفعى لاحتسيتها برشفةٍ واحدة. نثرتُ بعضَ العطر خلف أذنيّ، وعلى معصميّ، وتنفّست عميقاً. سرّحتُ شعري الذي لم يعد مضفوراً تحت الحجاب وأسبلتُه فوق كتفَيّ. شددت معدتي، ورفعت قامتي، وخرجت من «قصر البجع»، وهو الاسم الذي اختارته ليز لمنزلها المتواضع. ملأتُ رئتَيّ بهواء الصباح النقي، ونفختُ أضلاعي، فاستقامت عضلات ظهري، وبرزت مشدودةً. أستطيع أن أرى نتفاً من سماء زرقاء تتسلّلُ عبر غيوم ناصعة مشعّة، تأخذ هيئات مختلفة مثل صهوة حصان، أو قدم صغيرة، أو يد ناعمة غضّة مثل وريقة كرمة تفتّحت توّاً.

في البعيد، بدت الكاتدرائية سوداء وصغيرة. كانت الشّمس الإنكليزية الواهنة تحاول جاهدةً أن تُذيب الغيوم. مررتُ بالقرب من سكن الطلبة، ومن بيوت بيض واسعة، ذات حدائق أنيقة وكلاب نابحة، ومن سجن جلالة الملكة. نظرت إلى الجدران العالية، والأسلاك الشائكة الملتفّة، وقضبانِ النوافذ، فأدركتُ أنّني، هذه المرّة، أمشي على الجانب الآخر للبوابة الحديدية السوداء، بالرغم من أفعالي القاتمة، وماضيّ المشين. حرّةً أمشي

على الرّصيف مثل شخص بريء. كان وجهي أسود، كأنه مكسوٌ بهباب الفحم، ويداي دكناوين، بعد أن لطخت جبهةَ أهلي بالقار. سائلٌ كثيفٌ، لزجٌ وقاتم، ينقّط من السياج ذي القضبان، الذي أقبض عليه، ويسيل طوال الممشى حتى الطريق. نفضتُ رأسي محاولةً أن أطردَ بعيداً تلك الرائحة المقيتة، ورحتُ أنظر إلى نهر الإكس. كانت بعض طيور النورس ترفرف عالياً، وترسم بأجنحتها دوائر حول فريستها، قبل أن تنقضّ عليها، وتصيب منها مقتلاً. جاء دوري منذ وقت طويل، لكنني، لسبب ما، بقيتُ على قيد الحياة أعيش ضمن الوقت الضائع.

أنفي يقتفي عبقَ براعم تتفتّحُ، غير أنّ عطر الياسمين الغني بالرحيق، المنبعث من أسفل الهضبة، اختفى فجأة بسبب رائحة الدهون التي كانت المؤشّر الأوّل على أنّ متجر «بيترس بليس»، لبيع رقائق السمك والبطاطا المقلية، على قارعة برج الساعة، لم يعد بعيداً جداً. تنشّقتُ الهواءَ عميقاً. ثلةٌ من الطلبة كانت تقف هناك وتصيح: « التربية والتعليم في خطر. الوقت ضيق».

«بدأ الوقتُ ينفد»، كرّرتُ.

قبل بضع سنوات، كنت قد تناولتُ رقائق السّمك، لكنّ معدتي العربية الجبلية لم تستطع أن تهضم الدّهون التي ظلت طافيةً في أمعائي بضعة أيام. كانت سلمى تقاوم، ولكن على سالي أن تتأقلم. بحثتُ عن معاني كلمة «تتأقلم» في قاموس أكسفورد العربي- الإنكليزي. تتأقلم: تتكيّف، تتواءم، تتبدّل. يبدو أنه في

إنكلترا، يوقفكَ رجالُ الشرطة في الشارع ليتفحّصوا أوراقك وشعورك بالانتماء. بإمكان أحد ضبّاط الهجرة أن يقرّر استخدام عدم قدرتي على هضم السّمك كاختبار لولائي إلى الملكة. مضغتُ تلك القطع التي كانت لا تزال متجمّدة، وقلتُ للشاب الذي أحضرها لي، والدموع في عينيّ: «يمّا! إنها لذيذة!»

«يَمّي!» قال موبّخاً.

في الحمى اعتادت أمي أن توبّخني طوال الوقت. سلمى، هل أطعمتِ البقرات؟ هل نظّفتِ مخزن التبن؟ لماذا لم تحلبي العنزات؟ يمّا، لقد فعلت. ومع إشراقة كل صباح كنتُ أدسّ ذيلَ فستاني الفلاّحي المزركش، داخل بنطلوني البرتقالي الفضفاض، وأسرع إلى الحقول. كنتُ أمسكُ سويقات القمح بيد والمنجل بيد وأحصدُ بكلّ قواي. هذا الإمساك بأعواد الذرة وسويقات القمح الجافّة أدمى يديّ، وملأ أظفاري بالأوساخ. كانت لي يدان خشنتان وسختان. ذلك كان قبل أن أهرب إلى الحرية. الآن أقف وأهزّ برأسي، وأحكّ الفصّ الأصفر الزائف لخاتمي، بيدَيّ الناعمتين اللتين طليتهما بزبدة الكاكو، وأتنهّدُ. لقد ولّت تلك الأيام التي كنتُ فيها فتاةً قرويةً وراعيةً وفلاّحة. أنا الآن خيّاطة، أعمل مساعدة خيّاط في محلّ في إكستر، التي انتُخِبت قبل بضع سنوات أجمل مدينة في بريطانيا. يجب أن تتحوّل سلمى الآن، السوسنة السوداء لقرية الحمى، يجب أن تتحول إلى سالي، وردة إنكليزية، بيضاء، واثقة بنفسها، ذات لكنة إنكليزية أنيقة. عليها أن تصبح فتاة إنكليزية تمتطي المهرة كل صباح.

ليز، إليزابيث، الملكة إليزابيث الأولى، جلالتها، صاحبةُ منزلي، لا تزال نائمة. رائحة النبيذ الرخيص تعلقُ بكلّ شيء: الأريكة والكراسي وطاولة المطبخ والستائر والسجّاد ذي الرائحة العفنة. حين التقيتُ ليز للمرّة الأولى بدت فارعةَ الطول، بسترتها الزرقاء القاتمة وقميصها الأزرق وبنطلونها البنيّ الفاتح وحذائها الجلدي الأسود عالي الساق الذي تستعمله لركوب الخيل. شعرُها المسبلُ الأشيب الطويل مضمومٌ بأناقة على شاكلة ذيل فرس، والانتفاخ حول عينيها غطّته مساحيق التجميل. بدت قامتها منتصبة ومشدودة، كأنها تستعرض حرّاسها. كنتُ أبحث عن غرفة للإيجار. وبعد أن قطعت الطريق مشياً إلى كاولي، عثرتُ على شارع كينغ إدوارد. بلطفٍ طرقتُ بوابةَ قصر البجع. حين فتحَتْ ليز الباب وجدَتْني أقفُ مبللةً، أرتجفُ في قميصي الرقيق وجزتي الصوفية. كانت تلك محاولتي الأولى للخروج من النزل الصغير إلى العالم الخارجي. حاولتُ أن أقولَ صباح الخير، لكنني لم أستطع أن أسيطر على ذقني المرتجف. وقفتُ هناك، نحيلةً، شاحبة، سمراء، أنقّل ثقل جسدي من قدم إلى قدم، محدقةً في رأس حذائي، حتّى استطعتُ أخيراً القول: «الشمسُ مشرقة»، برغم أن السّماء كانت تسكبُ وابلاً من المطر. طلبتْ مني الدخول.

*

حين عدتُ، كانت ليز تغطّ في النوم. تسلّلتُ إلى الحمّام، وأغلقتُ الباب خلفي، وأحكمتُ الرّتاج. صريرُ بوابةٍ تُغلَق، خطواتٌ تُسمَع، ومشيٌ فوق أحجارٍ باردةٍ أبحث وأبحثُ عنها.

كان حوض الحمّام طافحاً، فأضفتُ بضعَ قطرات من زيت الاستحمام إلى الماء السّاخن. ملأت رائحةُ المريمية الحمّامَ الصغير، معيدةً إلى ذاكرتي تلك الظهيرات الطويلة في الحمى، حين كنا نحتسي شاي المريمية، ونحن نغزلُ وننسجُ الصوفَ. وبدل تسلّق الجبال، بحثاً عن أعواد المريمية، والتقاط سويقاتها الخضر الناعمة، وغسلها وتجفيفها، ها هي هنا، مقصوصة، ومرصوصة، ومخزّنة داخل زجاجات زرق صغيرة وجاهزة لسيدتي. وبموسى زلق، حلقتُ بعناية ساقَيّ وتحت إبطَيّ. قبل ليلة زفافكِ، يمرّرون عجينةً من السكّر والليمون المغلي بين ساقيكِ وينتفون الشعر. كانت جدّتي شهلا تقول: «حين انتهوا منّي، غطّت جسدي الكدمات، لكني بدوت ناعمةً وملساء مثل فتاة في التاسعة من عمرها. كان جدّكِ يحبّه منتوفاً. وكان يقول، إنني أبدو طاهرةً وبريئة». إن عجينة السكّر الدبقة المؤلمة تنتمي إلى الماضي، ومعها الزّواج، وعباءتي البدوية السوداء، والقبعات ذات الدراهم الفضية. جميعها وُضِعت على الرّف هناك، في آخر الأفق، خلف البحار. رغوةٌ على السّاقين ومن ثمّ الحلاقة. نفخةٌ صغيرة ويزول الشَعر. عمليةٌ سهلةٌ وناعمةٌ، تُغسَل على الفور مثل الحبّ في هذه البلاد الجديدة، مثل الحبّ في البلاد القديمة.

خرجتُ من الحمّام، ونظّفتُ الحوضَ بمياهٍ ساخنة، وتأكّدتُ أن كلّ شعرة سوداء سقطت من رأسي قد غرقت في المصرف. لم تكن ليز تحبّ أن ترى أية شعرة سوداء في المنزل، غير أن شعري كان يتساقط في كلّ مكان: في البالوعة، والحمّام، وحوض المغسلة، وعلى السجّادة، وعلى أغطية السرير، وعلى مسند

الكرسي الذي اعتدتُ الجلوسَ عليه حين تكون ليز خارج المنزل. «لقد جلستِ على كرسيَّ. انظري! شعركِ الأسود في كلّ مكان». صورةٌ نحيلةٌ مهشّمةٌ، زيتونية البشرة، بعينين بنيّتين، وأنف أعوج، وشعر أجعد أسود وكثّ، تنظرُ إليّ عبر المرآة المهشّمة. لو لم أكن أعرفني، لقلتُ إنّني سلمى، سليمة، معافاة. «سمّيتُكِ سلمى لأنّكِ نقية ونظيفة وسليمة. اسمُكِ يعني المرأةَ ذات اليدين والقدمين الناعمتين، من أجل أن تعيشي في رغدٍ بقيةَ حياتكِ. سلمى، يا فتاتي الصغيرة، يا قلبي، ليُبقكِ اللهُ معافاةً سليمةً حيثما ذهبتِ، يا عزيزتي». لو لم أكن أعرفني لقلتُ إنّني سلمى، غير أن ظهري كان محنياً ورأسي مطأطئاً. أحطتُ جسدي المرتجف بالمنشفة الدافئة، وتنشّقتُ الهواء.

«ثدياكِ كالبطيخ، تستّري!» كان أبي، الحاج إبراهيم، يقول.

«خصلةُ صوفكِ حمراء»، كانت أمي تقول، «أنتِ متهوّرة».

كان شقيقي محمود يرمقني بنظراته، وأنا أمشّطُ غرّةَ الحصان، فبدأتُ أحني ظهري، لأخفي نهدَيّ اللذين كانا أوّل ما لاحظَهُ فيّ حمدانُ. حين قابلتُهُ للمرّة الأولى، كنتُ أمشي قرب الساقية، أبحث عن نبتة لسان الثور، التي كانت تغليها أمّي وتشربها، لتهدّئ وجعَ ظهرها. كنتُ أداعب الماء الصّافي بأصابعي عندما لمحتُ حمدان: صورةٌ لوجهٍ أسمر، وأسنان بيض، وشعر أجعد فاحم، تعلوه كوفية، مزيّنة بمربّعات بيضٍ وحمر. وقعتُ في الحبّ لحظة رأيتُ انعكاس كتفيه في الماء. حين بدأتُ أسقيَ مشاتل الخضار،

ثلاث مرّات في اليوم، وأداعبُ الحصانَ، صرخت أمّي قائلةً: «سلمى، أيّتها الغبية، هل وقعتِ في الحب؟» ثبّتُّ شالي الأبيض حول رأسي، ورفعتُ بنطلوني المرخي، وأومأتُ برأسي.

*

بطلةُ الفيلم، بتنّورتها الضيّقة القصيرة، وحذائها الجلدي الأسود الطويل، الذي استطال ليغطّي فخذيها، كانت لا تزال تحضن حبيبها الأمير الساحر تحت زجاج لوحة العرض في موقف محطّة الباص، بالقرب من حانة وايت هير، حيث موسيقى الروك تُعزَف طوال الوقت لحليقي الرؤوس. الحبّ في هذه البلاد يأتي مغلّفاً بعلب الشوكولاته وزجاجات الشامبانيا والشراب المجّاني. يأتي في البارات والباصات ومراقص الديسكو وحتى في قطارات سكّة الحديد البريطانية، بجناحَي نسرها الأحمر المحلّق أبداً. هذا الحبّ الوحشي الذي كان يربطني بحمدان أصبح الآن سجين الشّاشات الفضّية. من النادر أن يحدث في الحياة العادية. كنا نراه في أفلام الأسود والأبيض القديمة، التي تُعرَض في أمسيات نهار الأحد، ونسمعُهُ في الأصوات المرتعشة التي تقول: «أوه! لا تذهب. رجاءً، لا تتركني؟» الشاشة المرتعشة، التنهّدات، المنديل الأبيض، التأوّهات، «أحبكَ امتدادَ البحرِ والسماء، وارتفاعَ جبلِ الشّيخ، ووسعَ الصحراء الكبرى».

عباءتي البدوية السوداء، المطرّزة بخيوط ملوّنة فاقعة، والتي تجعل عينيكَ تدمعان، رُمِيت، مثل ماضيَّ، داخل حقيبة صغيرة، ووضِعتْ فوق خزانة الثياب. كان المتجر الهندي على قارعة

الشّارع يبيع ثياباً وأقمشةً ومجوهرات تقليدية. الفيل الأحمر فوق الباب الرئيسي، يحمل هودجاً فوق ظهره. عبر واجهة العرض، تطلّ إلهتان هنديتان، مصنوعتان من خشب محفور، مع أيدٍ في كلّ مكان، تنظران دوماً إلى المارّة. الحريرُ المطرّز ملونٌ جدّاً، برّاقٌ وفاخر، يحملكَ بعيداً إلى تاج محلّ. المتجر يعجّ بالنسوة الإنكليزيات، بثيابهنّ الوردية وصنادلهن الشبيهة بصنادل التبشيريين، يلمسن القماشَ الهندي المنساب. «حين كنّ في الهند، جالسات تحت المظلاّت ذات الأطراف المهدبة، يراقبن رجالهنّ في ملابسهم البيض يلعبون الكريكيت على المروج، كان الخدم، جيئة وذهاباً، يقدّمون الشرابَ البارد». صديقتي الباكستانية بارفين تنفخ غرّتها عن وجهها، ثمّ تضيفُ: «لم يتبقّ من الإمبراطورية سوى تلك الجزر المبعثرة من الحنين».

وبينما كنتُ في ذات ظهيرة في النزل الصغير، مستلقيةً فوق سرير تابع إلى الجيش سابقاً، سمعتُ البوّابَ يطرقُ البابَ بقوّة. نظرتُ حولي: الستائرُ مسدلةٌ، وحذائي وبنطلوني وقميصي وثيابي الداخلية مرمية عشوائياً على أرض الحجرة الوسخة. كنتُ مجرّد قنفذ مختبئ في نفق مظلم، أستنشقُ وأزفرُ الهواءَ الفاسد.

مستخدماً مفتاحَه الرئيس، فتحَ البوّابُ البابَ، وسمحَ لفتاةٍ شابّة، نحيلة وقصيرة، بالدخول. غطّيتُ جسدي، ونصفَ وجهي، بالأغطية الرّمادية.

حين نظرَتْ إليّ، لم تر سوى خطوط عينَيّ، وحِجَابي الأبيض، فالتفتَت إليه وقالت: «من أيّ بلد أنت؟»

«من مكان ما في الشرق الأوسط. عربية نذلة. امتطت الجمَل من الصّحراء العربية إلى مقلب النفايات هذا، في إكستر»، قال وضحك.

«لن أمكث مع عربية في غرفةٍ واحدة»، بصَقَت.

تظاهرتُ بأنني نائمة، ولم أسمع كلمة واحدة.

«هذا هو النزل الوحيد المحترم في إكستر. وهذا هو السّرير الوحيد الفارغ المتبقي لدينا، آنسة ب-ا-ر-ف-ي-ن»، قال بحذر.

«بارفين»، صرخت.

«أجل، يا آنسة»، قال.

«إنّ جسدها مكسو بالبثور أيضاً. هذا قد يكون مُعدياً».

«ليس أمراً خطراً. هذا هو السرير الوحيد المتبقي لدينا، يا آنسة».

«لا بأس! لا بأس!» وضعت أمتعتها جانباً وجلست فوقها، ثم نظرت حولها وقالت، «يا له من مكانٍ قذر!»

نظرتُ إلى شعرها المسبل، وغرتها الطّويلة، وتقلّبتُ في سريري. كانت رائحة المعاناة والوعود التي نكثت تملأ فضاءَ الغرفة المضاءة.

زمرّدةٌ خضراء، فيروزٌ أزرق معشّق بالفضّة؛ حريرٌ هنديٌ يتهادى كالشّلال، لؤلؤةٌ في سريرها، رمّانةٌ، حبّاتُ قهوةٍ طازجة مطحونة بمدقّة مهباش من خشب الصّندل المزخرف، عسلٌ وسمنٌ

ملفوفان بخبزٍ محمّص طازج، عطرٌ خالص محفوظ في جرار زرق، حبّات ماسٍ ثمينة وغير مصقولة، سهلٌ منديّ في وادٍ أخضر فسيح، شاسع، بحرُ أزرق مخضر على الحوافّ، لازوردي سماويٌ في المنتصف، نقودُ جدّتي الذهبية العثمانية، مصفوفة صفّاً متناسقاً داخل خيطٍ أسود، قبّعةُ زفافِ والدتي المزخرفة بالنقود الفضّية، قمرٌ مكتملٌ، مختبئٌ خلف غيومٍ شفّافة.

في ذلك المساء استحممت، ودهنتُ البثور الجافة بالمرهم، وغسلتُ ثيابي القذرة، ونظّفتُ الغرفة، فيما ظلت بارفين مستلقيةً في سريرها، تراقبني. حاولت أن أجعل الغرفة تبدو مبهجة، ولكن مع سريرين تابعين إلى الجيش سابقاً، وطاولة ذات أدراج، وخزانة قديمة للملابس، وسجادة عتيقة متسخة، كان ذلك مستحيلاً. حين فتحتُ النافذة على مصراعيها، أدارت بارفين ظهرها، ونامت. أنرتُ المصباحَ المحاذي للسّرير، وبدأتُ أتصفّح الجرائد المحلّية، بحثاً عن فرصة عمل. مطلوب بائعة. حسنةُ الملامح، وتجيدُ الإنكليزية. . . . بحثتُ عن معنى «presentable» و«command» في القاموس. لم أكن حسنة الملامح، ولا أتحدّثُ الإنكليزية جيداً. لا شيء يناسبُ فتاةً مثلي، ليست جميلة، وغير متعلّمة، ولا خبرة لديها، ولا رسائل توصية. وكنت مريضة، مريضة جدّاً. تناولتُ نايَ القصب وبدأت أعزفُ، حتى ملأ الصوت المبحوح الناعم سماء الغرفة، ومن ثمّ المدينة، وارتحل قاطعاً البحار، حتى وصل إلى مسمع والدتي. رفعت بارفين رأسَها لحظة، ثمّ عادت إلى النوم.

وجدتُ نفسي أقف قبالة المتجر الذي يبيع ثياباً للأطفال، وهذا عملٌ لا أسمح لنفسي القيام به إطلاقاً. الطبيب قال: «عليكِ أن تقطعي صلتكِ بالماضي، أنتِ هنا الآن، وعليكِ أن تحاولي التعايش مع وضعكِ». سحبتُ قدمَيّ إلى الوراء، ووضعت الأخرى خلفها، ومشيت بعيداً، ولكن ليس قبل أن ألقي نظرةً على ثوب من الساتان الأبيض والشيفون. خيطٌ من اللؤلؤ معقودٌ بعناية فوق كل هدب مطرّز. بدا الثوبُ مثل سحابة بيضاء متلألئة، مثل فجرٍ: حبّاتُ اللؤلؤ تشعّ مثل دموعِ الفرح. إنه وعدٌ بلمّ الشّمل، بالعودة. ذاك الثوب الأبيض كان وطناً.

بدت ليز مرتبكة حين انتقلتُ إلى منزلها. هل أنا مستأجرة، أم صديقة حميمة أم خادمة أم مربية؟ كانت حالتُها النفسيةُ تتبدّلُ مع تبدّل كمية الكحول التي تشربها. لقد حدّدت دخولي إلى المطبخ بنصف ساعة صباحاً، وساعة في المساء، وكانت تشعر بالاستياء إذا غسلت أدوات المطبخ والأواني الخشبية. «دهنتُها بزيت الزيتون وأريده أن يبقى لحماية الخشب، شكراً لكِ. انظري ما الذي فعلتِهِ؟» لم تكن تعلم أنني حالما دخلتُ بيتها القذر، أردت أن أغلي بعض الماء، وأضعه في سطل، وأضيف إليه سائلاً منظّفاً، وأدورَ في كلّ زاوية، وأنظّف كلّ كأسٍ، وكلّ إناء، وكلّ قطعةِ خزف. بل أردتُ أيضاً أن أنظف أرض الغرفة، والحيطان، والسقف، وقبل كلّ شيء، كرسي المرحاض، الذي كان يعلق به بعض الغائط اليابس. اللعنة، أنا مسلمة، وعليّ أن أكون نظيفةً وطاهرةً. ليس مسموحاً أن يلامس البولُ كَفَلي، الذي يمثل

النجاسة عينها، لذا كنتُ، إمّا أرفعُ كرسيَ التواليت وأتغوّط، دون أن ألمسه البتة، وكان ذاك فعل توازن عظيم، وإمّا أغسلُ قسمي الأسفل بالماء البارد، لأنّ الماء الساخن لم يكن متوافراً بين السابعة والثامنة صباحاً، طوال أيام الأسبوع. وكنتُ في معظم الأيام أذهب إلى العمل، وأعضائي الخاصّة متجمّدة، باحثةً عن الضباب الدافئ للنَفَس البشري.

صادق، مالكُ متجر (عمر الخيام) للكحول، والكائن على الطّريق، هو رجلٌ أسمر، طويل ونحيل، بأصابع ليّنة. قبل أن يبدأ الكلام، يميل ذقنه جانباً، كأنما للبحث عن كلمات مناسبة، ومن ثمّ يقول: «ممتاز أيضاً». يصلّي خمس مرّات في اليوم. كلّما مررتُ بالقرب من متجره، وجدت سجّادته مفروشة على الأرض، فيما هو يقف منتصباً، يداه مسبلتان فوق بطنه، وعيناه مغمضتان، يتمتمُ بآيات من القرآن. لم يكن والدي الحاج إبراهيم يصلّي بانتظام. كانت سجّادةُ الصّلاة تخرجُ من مكانها كلّما سُرِقَت لنا عنزة أو أصابتنا لعنة جفاف طويلة. ذات مساء كنتُ أجلس في حضنه، أداعبُ لحيتَه، حين أخبرني أن المطر في الشتاء الماضي لم يزرهم البتة، حتى ولا قطرة واحدة، فطلبوا من جميع رجال القرية أن يجتمعوا في الحقل لأداء صلاة الاستسقاء. الجميع ركعوا في تناغم أمام خالقهم وتوسّلوا إليه أن يبعث إليهم بالمطر. وقبل أن ينتهوا، انفرجت أسارير السماء وهطل المطر. في تلك الظهيرة، الباردة والرطبة، ساروا في القرية وهم يردّدون: «لا إله إلا الله، محمّد رسول الله». حين انتهى من الكلام، نظر إليّ

بعينيه السوداوين، ومرّر يدَه الخشنة فوق رأسي، وقبّل جبهتي. «أنتِ محظوظة لأنّكِ ولدتِ مسلمة»، قال، «لأنّ مأواكِ الأخير هو الجنّة. سوف تجلسين هناك في سحابة من عطر، وتحتسين الحليب والعسل».

كانت تفوح منه رائحة مسك الغزال، التي تعوّدَ أن يحتفظَ بها داخل كيس جلدي يكسوه الشعر. «حمداً لله»، قلتُ، غارقةً في حضنه، أمتصّ دفئه، وأتلمّس أضلاعه التي تعلو وتنخفضُ بقربي.

سحابةٌ من عطر. وعدَ الكيميائيون بأنّ صبغتَهم ستقضي نهائياً على الشَعر الأبيض، وأنّ مراهمهم ستحيلُ البشرةَ ناعمةً كالحرير، وكريمات الوجه ستزيل التجاعيد. ومستحضرات التجميل التي تعد النسوة الإنكليزيات بشباب أبدي. كنتُ دائماً أذهبُ إلى أكثر الواجهات غلاءً، وأجرّبُ أقلامَ الظلّ والكحل، وأضع المراهم والعطور على وجهي ويدَيَّ. «هل لديكِ عيّنة من هذا العطر؟» وأشيرُ بإصبعي إلى نوع من العطر الباهظ الثمن يُدعى (Beautiful). كانت البائعة الشابة ذات المكياج الثقيل والرموش المغطاة بالمسكارا تنظر إليّ بارتياب. لقد حزَمَتْ أمرَها. لستُ من ذاك النوع من النسوة اللواتي سيشترين مجموعتَها الجديدة للصيف. «كلاّ، لا نقدّم عيّنات من ذاك العطر»، تقول بنبرة إقصائية. كانت قوارير العطر تشعّ كالكريستال فوق الرفّ الزجاجي تحت الأضواء. نظرتُ إلى حذائي البالي وعضضتُ على لساني. هل تعلمون، لو كنتُ مكانَها لرميتني خارج المتجر، فامرأة مثلي،

ليست سوى زبالة. قبيلتي غزت بلدَها، باحثةً عن غنيمةٍ رخيصة. لو كنتُ مكانَها لسعيتُ إلى من يعتقلني.

كانت نورا تحمل قارورة سوداء صغيرة مملوءة بسائل أخضر يبدو كالسمّ في ضوء القمر البارد. نزَعَتْ سدادة الفلّين، وأمالت القارورة لتسمح بقطرة صغيرة بالسيلان فوق ظاهر يدي. السّائل اللّزج البارد امتدّ على يدي ثم تم امتصاصه. كانت رائحته قويّة، كأنني أجلس في مزرعة كبيرة حيث أشجار الليمون والبرتقال واللّوز والتفّاح والرمان تزهرُ جميعها دفعةً واحدة. شممتُ ظاهر يدي. كانت نورا تجدلُ شعرَها الطويلَ البرّاق وعيناها العسليتان الواسعتان مثبتتان على القضبان الفولاذية للنافذة الصغيرة العالية. «حصلنا على هذه مجاناً من الرّجل العجوز الذي يديرُ المبغى. اعتاد الزبائن الراضون وصفَ المكان ببيتِ العطر وغير الرّاضين ببيت السمّ». عضّتْ على شفتها السفلى، المكتنزة، البارزة إلى الأمام، ثم حكّت أنفها المدبّب، ومرّرت سبابتها على حاجبيها المقوّسين الجميلين، وقالت: «اعتدتُ كثافتَه وقدرتَه على خنقكِ، وحتى قتلَكِ في أيّة لحظة». أمسكَتْ بيدي وتنشّقت العطرَ ثم قالت: «كلّ ما أريدُهُ الآن هو أن أكونَ قادرةً على أن أسامح».

صديقتي العزيزة نورا،

سامحيني لأنني أكتبُ إليكِ كلّ هذه الرسائل. ربّما تبكين حين ترين رسالة أخرى مني. ولكن هل تتسلّمين رسائلي؟ هل

العنوان كامل؟ أقفُ وحيدةً في هذه البلاد، وأتعجّب من الوجهة النهائية للطيور المهاجرة. أتعجّب من حالنا، ولماذا نحن هنا، وما معنى هذا كلّه؟ ما معناه، يا نورا؟ قلبٌ صُنع أكبر قليلاً من القفص الصدري، وأصغر من التعامل مع الحياة؟ أمْ سمحت لكِ بالسّباحة في النبع؟ خصلةُ صوف مصبوغة باللون القرمزي وليس باللون الأخضر، لون القرية؟ لماذا لا أزالُ على قيد الحياة، ومن جاء بي إلى هنا؟

مع المحبّة والتقدير

سلمى

أمسكتُ بالزجاجة العينة، ورششتُ العطر عليّ بسخاء على مرأى من فتاة المبيعات المستنكِرة. في سحابة من عطرٍ مشيتُ راجعةً إلى ساحة سانت بول، المكان الذي يقصده «الرعاع بامتياز»، وجلستُ على أحد الكراسي البيض لمقهى الرّصيف. النادل الجزائري، الذي تظاهر بأنه فرنسي، أتى راكضاً وسألني:

«ماذا تحبّين أن تشربي، مدام؟»

«بعض الماء، أطال الله في عمرك-يعَيشَك-»

ابتسم متظاهراً أنه لا يفهم العربية، واختفى. على أيّة حال، من المفترض أن يكون اسمه بيير، وجدّه خدمَ في الجيش الفرنسي. أخبرتني بارفين أنه من المعروف أنّ المهاجرين من شمال إفريقيا يزوّرون وثائق الجيش للدخول إلى حصن أوروبا.

«ما عنوانكِ؟» سأل ضابط الهجرة.

لم أفهمه، ورحتُ أشدّ طرفَي الوشاح الذي يغطّي رأسي.

«أين تسكنين؟»

«في هنكلاند، أظنّ»، قلتُ.

«أين، في إنكلترا؟» سألَ بصبر.

«حيث يلتقي النهرُ البحرَ»، هكذا وصفت الآنسةُ آشر مدينة ساوثامبتون لي.

«أوه، بحقّ الله!» قال.

«نعم، بحقّ الله!»

مدينة إكستر مشهورة بشاي مع الكريما. حين ترى على طاولة إبريقَ شاي، وكعكاً مدوّراً، وبعض المربّى، وكريماً متخثّراً، فهذا يعني أن الذي يتناولها، يجب أن يكون مواطناً محليّاً. السيّاح والأجانب لا يستطيعون تحمّل غنى الكريم، فيطلبون قهوة اسبرسو أو كابتشينو. شاي الكريم لا أستطيع هضمه، شاي الكريم لا أستحقّه. إذا كنتَ قد عبرتَ البلدان والبحار باحثاً عن أجوبة، باحثاً عن ابنة، باحثاً عن الله، فسينتهي بكَ المطافُ محتسياً قهوةً مرّةً من فنجان صغير. إنه يوم ذهابي إلى التبضّع، ذكّرتُ نفسي. هذا أكثر الأيام متعةً في الأسبوع، إذ أتخيّل نفسي في ماكياج باريسي، وقصّة شعر باهظة التكلفة، وفستان بديع، أشرب المياه المعدنية، وأقرأ مجلة «ماري كلير» في مقهى على البحر. استغرقَ الأمرُ دهراً لكي أحرفَ لساني، وألفظَ «ماري كلير» بلكنة فرنسية

خفيفة. كان يجب إخفاء عربيّتي البدوية الفظة، في نهاية الأفق. تعودتُ أن أقولَ لحمدان: «حبّكَ في قلبي مثل دبيتش البغال». وكان يحضنني ويقولُ: «أحبّيني»، وكان يعني احضنيني، وقرّبيني منكِ.

جلستُ، بظهر مشدود، ومعدة مسطّحة، وارتشفتُ قهوة من دون سكّر، حتى آخر قطرة. هنا الأشياء تختلف. أنت تقيسُ الأشياءَ جميعها في ملاعق صغيرة. إذا تودّدتَ إلى أحدهم، فليس ممكناً أن تذكر البغالَ، بل تكتفي بالهمس وأنت تحتسي فنجان قهوة أو تشرب مياهاً معدنية فوّارة، مع شرائح صغيرة من الليمون، «هل ترغب في فنجان قهوة؟»

كنتُ أقدّمُ القهوة للجميع: ضبّاط دائرة الهجرة، رجال الشرطة، بائع الحليب، ساعي البريد، وبائعات المتاجر. كانت خيمتي مفتوحة، والقهوة بالهال تغلي طوال اليوم، وتستقطب نكهتها الأصدقاء والجيران. ذات صباح، فتحتُ البابَ لساعي البريد لتسلّم رزمة لليز. وبدلاً من جاك، كان يقف هناك شاب صغير، بشعر أسود قصير، وعينين زرقاوين واسعتين، وأذنين متحفّزتين. كان الجوّ بارداً، في ذاك الصباح، بعد أن وقّعتُ، باسم سالي آشر هذه المرّة، سألتُهُ هل يرغب في شرب فنجان من القهوة.

«هل أنتِ متأكّدة؟» سأل.

«الطقس بارد جداً في الخارج»، قلتُ.

قال إنه سيعود لتناولها في السادسة مساءً. نظّفتُ طاولةَ القهوة

واشتريتُ بعض البسكويت الإنكليزي، ووضعتُه في الصّحن. وصل في السادسة تماماً، لكنّني لم أستطع التعرّف إليه. كان شعره الأسود مسرّحاً إلى الخلف بواسطة مثبّت الجل، وقميصه ناصعاً ونظيفاً، وابتسامته تعلو شفتيه، وأمسك يدي مدّة أطول مما يجب. طلبت منه الدخول، واصطحبته إلى غرفة الجلوس، ثم جلبت القهوة والبسكويت على صينية. رشف رشفة قهوة وقال: «لماذا تجلسين هناك؟ تعالي واجلسي بقربي على الأريكة».

«لا بأس بي هنا»، قلتُ وابتسمت. إنه ضيفي الأوّل.

نهض، ووقف قبالتي، ثم وضع أصابعه تحت ذقني، وحرّك وجهي باتجاهه.

قفزتُ وقلت، «لا».

«ماذا تعنين بـ «لا»، لقد طلبتِ منّي الدخول».

«لا، آسفة»، قلتُ وأنا أضمُّ نفسي.

«ماذا تعنين، آسفة؟»

كانت شفتاي ترتجفان حين قلتُ: «هل تريد المزيد من البسكويت؟»

شدّ قميصَه نحو الأسفل، ومسّد شعره نحو الخلف، ثم حكّ أنفه، ومشى خارجاً من الغرفة. فتح الباب الأمامي، فيما كان يغمغمُ بشيءٍ من قبيل، «امرأة لعوب! يا رجل!»، وغادر، صافقاً البابَ خلفه. ربّما كان عليّ أن أقدّم له شيئاً آخر. ستعودُ ليز بعد قليل، لذا نهضتُ، وبأصابع مرتجفة، بدأت أجمعُ فتات البسكويت وشعري الأسود المتساقط.

مضى أكثر من أسبوع الآن وأنا ألعب مع حمدان لعبةَ الغميضة. أمّه رفعت شكوى لأمّي وهما تحتسيان قهوة الصباح، بأن ابنها الشاب بدأ يدور حول نفسه مثل بغل الساقية. ارتشفت أمّي قهوتها وقالت: «اغلي له البابونج». كنتُ أتمدّدُ على العشب، تحت شجرة التين، وأنفخ لواعج قلبي في ناي القصب، وشعري حول رأسي يرسم هالةً، حين أطلّ حمدان. توقفتُ ونظرتُ إلى تعابير الصلاة على وجهه. كان شعاع الشّمس يتسلّل عبر الأوراق، ورائحة الياسمين تملأ هواء المساء، وكان بإمكاني أن أسمع نباح كلاب الرعاة، العائدين إلى المنازل. أغمضتُ عينَيّ، وعضضتُ شفتي السّفلى، وحبستُ أنفاسي. ترك أصابعه تتوغّل في شعري، وأحكمَ قبضةَ يده، وغادر، لكنه عاد بعد مدة وتملك ما كان له، مطلقاً سراحي، وساجناً إياي، بقيةَ حياتي.

«أمّ أميركية تدفعُ مالاً لمسلّح من أجل أن يختطفَ ابنتَها». وضعتُ الجريدة جانباً، واسترقتُ نظرة أخرى إلى الإيطالي الأسمر الذي يجلس وحيداً، يحتسي قهوته الاسبرسو. إنه حمدان، ولكن بدلاً من الجلابية البيضاء العريضة، كان يرتدي قميص تي شيرت أبيض بخطوط رهيفة وجينز أزرق. ابتسم لي فابتسمتُ له. لا بأس بإيطاليا، فكّرتُ، وأنا أحاول فهم آخر استطلاع في الجريدة. المحافظون تراجعوا. العمال يتقدّمون بخمسة في المئة. كنتُ أحاول أن أفهمَ السياسة في هذا البلد.

«لا يمكنكِ أن تبقي بدوية جاهلة»، تقولُ بارفين، «عليكِ أن تتعلّمي قواعد اللعبة، اللعنة».

لكني أبقيتُ رأسي مطأطئاً، وآمالي عريضة، ووقفتُ خلف الفائزين: هذا ما كان ينصحُ به دليل المهاجر من الألف إلى الياء. معرفتي بالسياسة البريطانية كانت تبدأ وتنتهي مع برنامج «صورة الشبيه»، ولم أكن أستطيع أن أعرف اسم الشخص الذي تشبهه دمية معينة. وتلك كانت مناسبة نادرة لأن أشاهد التلفاز مع ليز.

«هل هذا هو المستشار الظلّ؟» أسألُ ليز.

«لا، إنه رئيس الوزراء. المستشارُ لا يبصق»، تجيبُ ثم تنظر إلى الشّاشة، غير راغبة في أن يقاطعها أحد.

«من هم هؤلاء الدمى؟» أسألُ.

«أجانب! غرباء مثلكِ»، تجيبُ، وتبتسمُ.

«مثلي؟» أسألُ.

«نعم، مهاجرون غير شرعيين»، تقولُ.

«أنا لستُ غير شرعية»، أقولُ، ناسيةً إنكليزيّتي فجأةً.

«أجل، أنتِ كذلك. يجب أن تكوني»، تقولُ.

«هل ترغبين في فنجان شاي؟» محاولة تغييرَ الموضوع أسألهُا مقلّدةً لهجة صديقتي غوين.

«لا، شكراً»، تقولُ، وقد بدت أكثر انزعاجاً الآن. لم تكن تحبّ غوين، وتأثيرَها الويلزي فيّ. «فنجان شاي؟ حقاً!» تقولُ، هازّة رأسها.

كانت ليز على حقّ. كنت مجرّد نفاية.

كلّما تسلّقتُ جبلَ ريم، الأعلى في قرية الحمى، بصحبة

ماعزي، كان حمدانُ يتبعني بحذر، قافزاً خلف الصخور والشجيرات. كتفاه عريضتان، وجلابيته البنية تخفق في الهواء، فيما كوفيته المرصّعة بمربعات حمر وبيض، تخفي شعره الأجعد الأسود الكثيف. كان يعدو بين الفينة والأخرى، محاولاً اللحاق بي خلسةً. ذات يوم كان الجو حارّاً، وقيظ الحرارة يهبط على وادينا. وكنت أعزفُ على الناي، وأقودُ قطيعي إلى البئر الطويلة. ملأتُ الجرنَ بالماء البارد وبدأتْ عنزاتي بالشرب. أصغيتُ ملياً لعلّي أسمعُ صهيل حصان أخي محمود. ما من همسة. رميتُ الدلو المطاطي في البئر ثانيةً، وسمعته يرتطم بالماء البارد، ثم يشقّه ويغوص عميقاً. صرختُ من فرط الإثارة، مدركةً أن عيني حمدان تراقبانني، وأذنيه تصغيان إلى تأوهاتي. خلف الشجيرات، كان حمدان قد أخلد إلى الهدوء، حين سكبتُ الدلو فوق رأسي. وفيما كنتُ أغسلُ جسدي، رحتُ أردّد إحدى الأغاني العتيقة لجدّتي شهلا: «هلا، هلا بيك يا ولا. هي يا حليلي يا ولا». و«هلا، هلا بيك يا ولا. هي يا حبيبي يا ولا. هلا يا توأم روحي! هلا يا زوجي القادم». حين ارتبط زوجها بامرأة ثانية، ماتت جدّتي، مفطورة القلب. بعد بضعة أشهر مات جدّي أيضاً.

كان الليل قد بدأ يهبط، ومقهى الرصيف يغلق أبوابه لهذا النهار، وليس ثمة لقاءات ما بعد الخامسة. عادةً، في الخامسة يسرعُ الإنكليز إلى منازلهم للمكوث مع قططهم وكلابهم، في قلاعهم الخاوية. كان باستطاعتي أن أشاهدهم في مطابخهم الصغيرة، يضعون قطع الدجاج المجلّدة في الفرن، ويقلون شرائحَ

البطاطا المتجمّدة. في أول المساء، كانت المدينة تنتمي إلينا نحن المتشرّدين ومدمني الكحول والمخدرات والمهاجرين وإلى أولئك الذين لا عائلات لهم أو الذين يحاولون أن يمحوا تاريخَهم. في هذه الفترة، بين الخامسة والسابعة، كنا ننتشر ونطغى كالطحالب التي تنمو بين شقوق الأرصفة. ارتشفتُ ثفل القهوة ووضعت فنجان الاسبرسو الصغير في الصّحن.

«هل تعلمين، يا سلمى، إننا نحن المهاجرين كداء المنطقة. هو غير مرئي وينسلّ كالأفعى. يتغلغلُ في جسدكِ ثم يطفح فجأةً على جلدكِ ويبدأ بلدغكِ لدغة تلو لدغة»، تقول بارفين وتضحكُ.

كنتُ أستلقي على الأرض حين شقّ حمدان طريقَه بين عرائش العنب، ثم وقف ساكناً يتأمّلني من فوق. لم أكن جائعة، لكنني قطفتُ بضع حبّات من العنب، ورحتُ أرميها في فمي. حين نظرتُ إلى الأعلى، كانت صورته تجثم قبالتي. خبأتُ نهدَيّ بكلتا يديَّ. شهقةٌ، تبعتها قبلةٌ سريعة على شفتَيّ. كان هواء المساء البارد يتغلغل داخل بنطلوني العريض، مذكّراً إياي بأعراف القبيلة و شرفها في قريتنا. لا. «هل جُننتِ؟ لا تكوني متهوّرة!» كلمات والدتي لا تزال ترنّ في أذني. لا. «سوف يطلقون النار عليك، بين عينيك». نعم. لا. لا. لا. دفعتُهُ جانباً. «سوف تندمين كثيراً، يا حلوة» قال، ثم نتف شعرةً من شاربيه ومضى بعيداً. ما إن اختفى بين عرائش العنب، حتى بدأتُ أرتجفُ. كانت الشمس قد مالت إلى الغروب وبدأ الجو يبرد. لففتُ شالَ أمي حول جسدي وقفلتُ راجعةً إلى البيت.

كانت أسطح المنازل والنوافذ الزجاجية لمباني الآجر الأحمر تعكس ألق الشمس الغاربة وترسلُها ذهبيةً وشاحبةً. مشيتُ نحو الكاتدرائية القريبة، ووسط طيور الحمام ووقع الابتهالات، كان بوسع الرجل ذي الشعر الأسود أن يقترب منّي مطمئناً. لعلّه عربيّ. حشدٌ من القساوسة يعبرُ المرجَ ويدلفُ إلى الكاتدرائية. بدا مظهرهم غريباً بأرديتهم السود الطويلة، وياقاتهم البيض. ما زلت أسمع الغرف الداخلية توصد. كان العقد الفيروزي المعشق بالفضة، الذي أعطتني إياه الراهبة فرانسوا، في العلبة الصينية من الساتان.

مشيراً باتجاهي، قال الرجل ذو الشعر الأسود: «مرحبا».

نظرتُ خلفي لأرى إن كان أحدهم يراقبني. لو رآني شقيقي محمود أتحدّث إلى رجال غرباء لربطَ ساقَيّ إلى حصانين، وجعلهما يعدوان في جهتين مختلفتين. لكنّه لم يكن ليُرَى البتة. ثبّتُّ قدمَيّ بقوّة في الأرض لمنعهما من التراجع وابتسمتُ. هنا، في هذا البلد الجديد، لا يكلّمني سوى الرجال.

الراهبات يحكمن رتاج البوابات الثقيلة للأبرشية. في الداخل يتردّد الصدى متهادياً في الفضاء الخاوي. كنتُ أركض حافيةً على الحصى المرصوف البارد أبحث عنها.

«أنا ديفيد. ناديني ديف».

«سالي»، أجبتُ، مستخدمةً اسمي الإنكليزي ومستمتعةً بنبرة صوت إنساني.

«هل ترغبين في احتساء فنجان من القهوة معي؟» قال بلكنة ديفونية قوية.

«نعم»، أجبتُ، ثم طويت جريدتي، ومعها آمالي بأن ألتقي عربياً هنا، قد يسلمني للشرطة، أو يقتلني على الفور.

مشينا على الطريق باتجاه متجر يبيع تحفاً تقليدية، ويخدمُ أيضاً كمقهى. رجل يحمل لافتة كُتب عليها «لا أستطيع أن أدفع الضرائب المحلية، لن أدفع»، ويوجّه كلمات بذيئة إلى المارّة. حماني ديفيد بذراعه اليسرى، وراح يقودني عبر الأبواب. أصرّ على الدفع فطلبتُ كأساً من عصير البرتقال الطازج وزجاجة مياه معدنية. طلب ديفيد لنفسه شاياً مع الكريم في مقهى يحاول جاهداً أن يسوّق نفسه كنادٍ حديث للجاز.

«هل تعيشين في إكستر؟» قال.

«أجل»، قلتُ، وأنا أنظر إلى النادل الشاب الوسيم.

«أعمل في نادٍ للرياضة»، قال.

«أوه، هذا جيد!» قلتُ، محاولةً أن أقلّد لهجةَ الملكة. لا بدّ أن ليز، صاحبة منزلي، ستكون فخورة بي.

«من أيّ بلد أنت؟»

لو قلتُ له إنني بدوية عربية مسلمة من الصحراء، مطاردة، لبصق الشاي الذي يحتسيه. «أنا في الأصل إسبانية»، كذبتُ.

«زرتُ إسبانيا مرّات عديدة. من أين في إسبانيا؟»

«غرناطة»، قلت. في المدرسة تعلّمنا الكثير عن أمجاد إسبانيا المسلمة، وعن الفاتحين المسلمين في غرناطة.

عبر النافذة الطويلة، رحتُ أراقبُ الظلامَ يهبطُ طبقةً طبقة، وشعرتُ فجأةً بالتعب. لا بدّ أن السبب يعود إلى تلك النظرة في

وجه ديفيد، الطافحة بالأمل والانبهار. سلمى أكلت العنب، وأغضبت القبيلة، ودفعت ثمناً باهظاً. كنتُ هشّة للبدء بأي تقارب، وبشرتي لا تزال رقيقة، ومملوءة بالكدمات. لو كنتُ مكانه لما نظرت إلي مرة آخرى. كانت النباتات الغبية تكبر وتكبرُ، محوّلةً المقهى إلى مشتلٍ زجاجي. أسمعُ رنين سكاكين المائدة تأتي من الأسفل، وطقطقة الكراسي التي تُكدّس على الطاولات. بدت النادلات على عجلة من أمرهنّ. لم يكن باستطاعتي أن أستمر في هذه اللعبة. لم أكن حفيدةَ جدّتي شهلا، المسكوبة من معدن مختلف تماماً، هي التي لا تعرف الخوف أو الخجل.

كانت جدّتي، شهلا، تضفرُ شعرَها الطويل الأبيض الخفيف جديلتين، وتقول: «اتبعي قلبَكِ دوماً، يا ابنتي». كان زواجها ثمرة علاقة حب. هي تنتمي إلى قبيلة عدي الشرسة، وهو ينتمي إلى قبيلة الفرسان، وكلتاهما في حالة حرب مستمرة. رآها ذات صباح ربيعي تملأ جرّتها الفخّارية بالماء، وشعر بقشعريرة تسري في نخاعه، وتستحوذ على أنحاء جسده. «صباح الخير، أيّتُها الغزالة الشابة»، نادى من بعيد، يعتريه خوف العبور إلى أراضي قبيلتها. من الطريقة التي كان يحرفُ فيها كوفيتَه إلى اليمين، مغطياً عينه اليمنى، أدركت أنه كان ينتمي إلى قبيلة الفرسان. وراح ينتظرها باكراً كلّ صباح، حيث سنابل القمح تتلألأ بالندى تحت شمس الصباح. شهلا نظرت إلى كتفيه العريضتين، وشاربه الأسود الكثّ، وشعره الطويل الفاحم، المعقود جديلتين، وقرّرت أنها ستذهبُ إلى البئر كلّ صباح لتتأكّدَ أنّ جِمالها وأحصنتها لن تعرف

العطش. كان صباحاً باكراً حقاً حين ناداها ظلّهُ: «هذه الليلة سآتي وأخطفكِ. استعدّي لذلك». بيدِها ظلّلت عينيها، ونظرت إلى شبحه في البعيد. كان يقف فارعاً، أسمرَ، وهائلاً، يحجب ضوءَ الشّمس. كان منزلهم بيتَ شَعرٍ مؤلفاً من أربع خيام مصنوعة من شعر الماعز، واختارت أن تنام في خيمة الضّيوف من أجل أن لا توقظ والدتها حين يصل. كان فراش والدتها يحتلّ المدخل الرئيسي للخيمة، تنام هناك كأنّها حارسة، ولذلك تظاهرت شهلا بأنها تنظّف المجامر في غرفة الضيوف، حتى بدأت والدتها بالشّخير. وجلست تنتظره مرتدية ملابسها، وحين بدأ النعاس يغشى عينيها، سمعت صهيلَ حصانه ووقع الحوافر، فخرجت راكضةً للقائه. ذاك الرجل المقنّع، ببندقية تهتزّ على كتفه، مدّ ذراعه لها، فأمسكت بها، وترنّحت في الهواء قليلاً، قبل أن يضعَها على السّرج، أمامه. نظرت خلفها إلى بيت الشعر المغلق بالسجاد المتدلي، حيث الأوتاد مشدودة حول الخيام وأحصنة أهلها موثوقة إلى أسافين والقوائم الأمامية لجِمالهم مربوط بعضها ببعض والماعز تنام خلف مسكنهم. تعضّ شهلا على آخر سنّ متبقية لها، وتقولُ: «تززأ! كانت تلك آخر نظرة في حياتي ألقيها على داري وقبيلتي».

ماذا يمكن شهلا أن تفعل في هذه الديار؟ أستتناول العشاء مع ديفيد، وتسمح له بأن «يمتطيها حتى تصطدم الأساور النحاسية التي بيديها بتلك التي بكاحلها»؟ أستمدّ يدها إلى غريب وتمضي معه في الظلام؟ أسينتصر الإيمان على الشكّ؟ وماذا عن الماضي، ذاك الظل الأسود الذي يلاحقكِ؟

توجّهتُ إلى الباب الرئيسي، أحملُ بإحكام أكياس مشترياتي. تبعني وقال: «هل تتناولين العشاء معي؟»

«شكراً جزيلاً، لا أعتقد أنني أرغب في ذلك»، قلت.

«ولِمَ لا؟»

«أنا مشغولة. يجب أن أذهبَ يا ديفيد».

خفضتُ رأسي وعبرتُ المتجرَ، تحت أشجار البلح الجافّة. ووسط الطواويس الهندية، وتماثيل لبوذا، وطيور الببغاء واللّحف المكسيكية والطاولات الصّينية، بدأ صوت جديد يتكوّن في رأسي: «لا»، وهي الكلمة التي كثيراً ما حذرني منها دليل المهاجر من الألف إلى الياء. ووقع بصري على فرس نحاسي مجنّح، يقفز في الهواء، محاولاً أن يبلغ السّماء.

قلت لديفيد بسرعة: «كلاّ، أنا آسفة». وقبل أن يجيب، أسرعت إلى الشارع البارد عبر الباب الإفريقي ورحتُ أستنشقُ الهواء باحثةً عن ملجأ. الرائحةُ نادتني، وأنا استجبتُ كأنّني في حال الخدر. رائحةُ الطعام الغنيّ المقليّ هي لي.

جلست خلف عربة الكباب وتنشّقتُ رائحةَ الإلفة والحريّة والوطن وأصختُ السمعَ.

«بالك تلك الفتاة عميلة سرّية؟» قال الرّجل العجوز بلكنة شمال إفريقية.

«ما خطبكَ؟ العميلات السريّات لا يجلن مرتديات لباس المشردات العربيّات. إنهن يرتدين قبعات كبيرة مثل فيلسي. شقر، بيض، مع سيجار في أفواههن»، قال الشّاب.

«تقصد فيلبي، أيّها المعتوه! في هذه الأيام يبدو العملاء مثل أي شخص آخر، مثل يسوع المسيح. ما أدراني!». قال العجوز بلكنة شمال إفريقية.

«أنتَ مصابٌ بالبارانويا. حين تهتزّ أوراقُ الشّجر في اللّيل، ينتابك الظنّ بأنّ قمراً اصطناعياً أميركياً يلتقطُ صوراً لك». قال الشّاب.

«كائنة من تكون، أنا لستُ مطمئناً لرؤيتها تجلس هنا على هذا النحو»، قال العجوز، ورمى أقراصاً جديدة من الفلافل في زيتِ القلي المغلي. حمل الهواءُ الباردُ عبقَ طعامٍ مقلي غني مباشرةً إلى قلبي. رفع معنوياتي صوت أزيز القلي، وتجوال المغرفة، والفلافل المضغوطة داخل أرغفة الخبز، والرائحة الجذابة للحمّص والنعناع والكزبرة. متلفّعةً بشال أمّي البدوي الأسود، وسط مدينة إكستر، حلّقتُ فوق بلدان وأنهار وبحار، ذاهبة إلى جبال جافة جرداء، وإلى قطيع من الماعز والزيتون اليانع، الذي يثقل أغصاناً فضّية خضراء. حلّقتُ عالياً فوق أراضي وطني.

«إنّها غير مؤذية، يا أبي. إنها تجلس بهدوء تتنشّقُ الهواءَ البارد»، قال الشاب.

لم أكن قادرة على رؤية واجهة عربة الكباب، لكنني سمعتُ جلبةً، وباباً يُفتح، ووقعَ أقدام. وقبل أن أعي ما يحدث، كان الرجل العجوز يقف قبالتي، حيث الضباب الناصع للمساء يلامس السماءَ الزرقاء. كان رجلاً نحيلاً، طويل القامة. عيناه واسعتان، تزدادان بياضاً بسبب التقدّم في السن، وشعره أشيب، خفيف، تعلوه قلنسوة بيضاء مخرمة يدوية الصّنع، يرتدي بنطلوناً فضفاضاً،

ضيّقاً عند الكاحلين، وخفّاً جلدياً بنّياً، مع عبارة بون جوفي «لا ربح من دون ألم»، مطبوعة بخطوط حمراء على قميصِه التي شيرت الأسود.

وقفتُ وجهاً لوجه مع ماضيّ وحاضري.

«أطلبُ السترَ من الله»، قال.

شددتُ شالَ أمي الأسود حول رأسي، ولم أنبس ببنت شفة.

«أتيتِ تسترقين السمعَ إلينا، هل أنتِ جاسوسة أم ماذا؟» قال.

لو كنتُ في البلاد القديمة، هناك في المشرق، لوقفتُ وأمسكتُ بيده اليمنى، وقبّلتها، وناديته «جدّو»، وعرّفته بنفسي، «أهلاً! أهلاً! أنا سلمى إبراهيم الموسى»، لكن أنا في البلاد الجديدة، مطاردة ولي سجلّ، لذلك بقيتُ جالسةً على المقعد الخشبي، متظاهرةً بأنني لا أفهم.

تردّد قليلاً، ثم قال: «لا أريدكِ أن تجولي هنا. يالا! يالا!»، وحاول إبعادي.

تمنّيتُ لو أنني أقبّلُ العروقَ الخضراءَ المنتفخةَ لظاهر يده الهرمة وجبينه ولحيتَه الرّماديةَ الشائكةَ، لكنّني، بدلاً من ذلك، نهضتُ وغطستُ بعيداً في الضباب حتى اختفيتُ مثل نبتةٍ صحراوية اقتُلِعت من جذورها وشرّدتها الريح.

كروم عنب وأشجار تين

في الظلام أو عند الفجر، أبقي بتلاتكِ مغلقة بإحكام، وساقيك ملتصقتين. ولكن مثل وردة طائشة تتفتّحُ تحت الشّمس استقبلتُ حمدان. «سلمى، أنت امرأةٌ الآن . . . أنتِ لي، يا سبيتي!».

«نعم، نعم، نعم»، كنتُ أقولُ له. لم تكن هناك مناديل ورقية. فقط الرائحة الخصبة لأرض محروثة حديثاً. غسلتُ بنطلوني في السّاقية، وعدتُ إلى المنزل دائخةً. منذ ذلك الحين، تعودتُ أن أستلقي تحت شجرة التين، وأنتظرَهُ معظم الليالي.

«ألا تزال عاهرتي هنا؟» كان يقول، ويأخذني بسرعة.

«المزيد»، كنتُ أهمسُ.

حين توقّف حمدان عن الدوران في المدارات، وتوقّفتُ أنا عن تقبيل الحصان والماعز والأشجار، بدأت أمّي وأمّه تشعران بالريبة. «أيّتها العاهرة الصغيرة، ما الذي فعلتهِ؟» جذبتني أمّي من شعري.

«أمّي، من فضلكِ».

«لطّختِ اسمَنا بالقطران. سيطلقُ أخوك النارَ عليكِ، بين عينيكِ».

«أمّي».

قُطِفتْ بتلاتي الواحدة تلو الأخرى. شَدّت وبصَقَت وضَرَبت، حتى بتّ سوداء وزرقاء وغرقتُ، لحسن الحظّ، في العتمة.

مشيتُ وحيدةً تحت الأعمدة الكهربائية التي تمدّدت ظلالها أكثر فأكثر، ورحتُ أضمّ حقيبة مشترياتي. كلاّ، ليس سهلاً العيش هنا في إنكلترا بصفة «غريبة» كما نعتَنَي ضابط الهجرة. ذات مرة كتبتُ على حيطان مرحاض عمومي: «غريبة سوداء مرّت عبر سماوات إكستر». كلّ صباح كان يأتي من يذكّرني بأجنبيّتي. كلّ صباح، والضباب لا يزالُ يحيطُ بنا، يأتي ساعي البريد جاك ويلوّحُ لي ويناديني «مرحبا، يا بنت»، كنتُ أشعرُ بالانزعاج. أريد أن أكون «عزيزتي» مثل بيف، جارتي. وبرغم تصحيحه مرّات عديدة، قائلةً له: «سلمى، يا جاك. اسمي سلمى، من فضلكَ»، لكنه كان ينسى في اليوم التالي، ويناديني مرةً ثانية، «يا بنت». بيد أنّ جاك لا يملكُ شيئاً يذكّره بي، لأنني لم أتسلّم البتة أيّة رسائل مطبوعة باسمي العربي، سلمى ابراهيم الموسى. «سلمى، بيدين وقدمين حنونين. سلمى المعطرة مثل زهور الياسمين البيض، والصافية كالعسل في جراره الزجاجية». لكن، كنتُ أحياناً أتمنّى أن يشتمني جاك، كما يفعل حليقو الرؤوس في حانة (وايت هير). «أنتِ، أيّتها الأجنبية! أنتِ أيّتها الغريبة! لماذا لا تعودين إلى

الغابة؟ اذهبي وتسلّقي إحدى شجرات جوز الهند! اغربي عن وجهنا! اذهبي إلى بلدكِ!» لم أكن أستحقّ أن أكون هنا، ولا أستحقّ أن أكونَ حيّة. أنا خيبتُ أملَها.

*

مشيتُ عبر شارع ساوث ستريت، الذي يعجّ بسماسرة العقارات المنتظرين بفارغ الصبر وضع أيديهم في جيوبِكَ. كم أنا بعيدة عن أن أصبح شارية للمرّة الأولى؟ ألفا ميل؟ ثلاثون عاماً؟ حياة كاملة؟ أوه! ماذا يترتّب عليّ أن أعطي لكي أشتري منزلاً في برانسكوم، حيث يعيش الآن القسّ ماهوني، صاحبي الإيرلندي، ومخلّصي! كوخٌ بتدفئة غاز مركزية، وثلاث غرف نوم، وحديقة، وكلب، وفرن مايكرويف، وقطيع صغير من الماعز والخراف، وبقرة تُحلَب كلّ صباح. ليس العشبُ شحيحاً هناك، ومن ثم فإنّ سوق القطيع إلى المروج سهلٌ، كما ترين. كنتُ سأقضي وقتي أزرعُ وأربّي الأغنامَ، وأعزفُ على الناي. طبيبٌ إنكليزي مهذّب سيعالجني من كلّ الأمراض. سأكون سعيدة وبصحّة جيدة، وأعيش مع أطفالي. سيتوقّف أخي عن البحث عني، معتقداً أنني ميتة. سيعمل زوجي خلف البحار ويعيلنا. سنروي قصصاً لأطفالنا ونضحك: الأم العجوز وأطفالها الجميلون.

كانت الشّمسُ تشرقُ على منزل القسّ ماهوني في برانسكوم. الرّفوف تكتظ بالكتب القديمة، وهناك الكنبة البالية، والراديو العتيق في الزاوية، وكتاب الإنجيل، مع نظارتيه على الغلاف الجلدي. كانت الآنسة آشر قد طلبت منه الاعتناء بي لأنني «يجب

أن أعود إلى المنطقة، وأنقذ المزيد من الأرواح البريئة».

«سلمى مرحّبٌ بها للمكوث بضعة أشهر»، قال بنبرة بطيئة ليتيحَ لي أن أفهم. «مع ذلك، سأذهبُ، شخصياً، إلى الشّرق الأوسط في السنة الجديدة».

بعد الانتهاء من طقوس النظافة، بعد الفطور، طلب مني القسّ أن أجلس في غرفة الطعام، حيث سيبدأ «تعليمي غير الرسمي» بمعدل ساعتين يومياً، وأخذ دروس في الإنكليزية والرياضيات والعلوم. هو يعدّ الغداء وأنا أنظّف المكان. كان يخرج ليتمشّى في نزهات طويلة، بعد الظهر، وكنت أمضي الوقت أتفحّصُ خزانةَ والدته الراحلة، ومكتبته، والصور فوق الرف. كنتُ أبحث في الصور عن الوجه الفتي للقس ماهوني. أزلتُ الغبار عن مجموعة والدته للخزف النفيس ذي الحواف المذهّبة، والمطلي يدوياً، مردّدةً: «صحن العشاء، صحن الفواكه، صحن الحساء، إناء الفواكه، صحن الكعكة، طقم الكريم والسكّر، فنجان الشاي، فنجان القهوة، صحن الفنجان»، وهي أسماء كان قد علّمني إياها القسّ.

«كانت تحبّ هذا الطقم من هافيلاند»، قال حالما دلف عبر باب غرفة الطعام.

لم أتوقّع أن يعود باكراً هكذا، فجلستُ وانتابني فجأةً شعور بالضياع. «كانت أمّي تحبّ قبّعتها المزينة بالنقود الفضية»، قلتُ.

«حقّاً؟» قال. ثم خلع معطفه المطري، ودسّ قميصَه داخل بنطلونه.

نظرتُ إلى ذراعيه البيضاوين النحيلتين، وظهره العريض، وساقيه الضعيفتين، وقلتُ: «أنا لا أستحقّ الحب».

«بالطبع أنتِ تستحقّين»، وجلس قبالتي.

«ارتكبتُ أشياء مشينة»، قلتُ.

«كلّنا ارتكبنا أشياء ندمنا عليها»، قال، «هذا جزءٌ من حياتنا كبشر».

«تركتُها ورائي. أستحقّ أن أموتَ، لا أن أعيش، أنا». قلتُ وبدأتُ أبكي، «واحدة في سني، ولا أملكُ نقوداً ولا منزلاً ولا عملاً».

فرك عينيه الزرقاوين المتعبتين وقال: «لا شيء يبقى على حاله، يا صغيرتي. الاحترام، الحبّ، الألم، المرض: لا شيء يبقى على حاله. هذه أمور تأتي وتذهب. يمكنكِ حتى أن تسترجعي الاحترام. أما بالنسبة إلى عائلتك، فربّما تقرّرين ذات يوم أن تعودي، فالأشياء يمكن أن تتغيّر».

«الأشياء يمكن أن تتغيّر؟ يمكن أن أعود؟» سألتُ وأنا أعيدُ دسّ بضعَ خصلات شعر انزلقت تحت وشاحي الأبيض.

«أجل، ذات يوم، يجب أن تعودي»، قال.

«الأشياء يمكن أن تتغيّر»، قلتُ، وبدأتُ أرتجف.

تردّد، ثم مرّرَ أصابعه على شعره الأشيب، وراح يضمّ جسدي المرتعش ويهدهدني بلطف، مردّداً بالعربية، «شوش، هذا يكفي، يكفي»، حتى توقفتُ عن البكاء.

*

عبرتُ الطريقَ، ومشيتُ في شارع فرعي، كي لا يلمحني رئيس عملي ماكس، الذي ربّما كان يعمل هذا السبت. «أنجزُ أكثر حين لا تكنّ هنا، وأنتنّ تثرثرن وتهذرن». كان دائماً يتلصّصُ على المارّة عبر النافذة المطلية بالنيكوتين. «انظري! انظري إلى شعرها! لا بدّ أنّ انفجاراً ما قد حدث في مطبخها»، يقول ويضحكُ. إنّها ضحكة مهدّدة حتى أنكَ تخفض عينيك، وتمرّر ماكينةَ الخياطة مرّتين على حاشية الثوب. «قلتِ، ما اسمكِ، س-ل-م-ى؟ ياله من اسم!» بارفين قالت إن الإشاعات انتشرت بأن ماكس يناصر الحزب القومي البريطاني، الذي يريد أن يقتل اليهود والعرب والمسلمين. كلّما نظر إليّ بعينيه الثاقبتين، انتابتني رجفةٌ في كل أنحاء جسدي. سمعتُهُ أثناء محادثته زبوناً يقول ذات مرّة: «سالي تعاني تقلّبات مزاجها. العرب مهووسون بالحزن».

أحدهم قال لي إن البار الذي في الزاوية لا بأس به، مع موسيقى حيّة، وغير ذلك. كنت أفضّل حانة (وايت هير) حيث كان أحد حليقي الرؤوس المخمورين على وشك أن يضربني. أراد مراقصتي، ولم أستطع أن أقول لا. بدا طويلاً، نحيلاً، بسترته الجلدية السوداء، وبنطلونه الضيّق، وشعره الشوكي المطلي بالأحمر الفاقع مثل ديك. «المسه! هزّه! اكسره!» ردّد الشبّان مع الفرقة، ثم رفعوا أذرعهم اليمنى لأداء التحيّة. كانت تفوح من أنفاسه رائحة بيرة رخيصة، حين أمسكَ بيدي، وشدّني باتجاهه، حتى أني شعرتُ بالرؤس المعدنية الباردة الملصقة بسترته تضغط على جسدي، ثم دفعني بعيداً عنه، وما إن أصبحتُ على مسافة

كافية منه، حتّى طوّح بي في الهواء حوله . . كنتُ مطواعة مثل دمية ليز المصنوعة من القماش. أصبح الغناء أعلى وأكثر جنوناً، وملأت الهواء رائحةُ البيرة والأنفاسُ النتنة. حين قرر أخيراً أن يفلت يدي، حزنتُ لأنني ما زلتُ على قيد الحياة. كنتُ أستحقّ السخرية والضرب، بل القتل. تخليت عنها، وتركتُهم يأخذونها بعيداً.

أحكمتُ قبضتي على حقيبة مشترياتي وتابعتُ السّير. كانت جحافل الطلاب تخرج من الكلية. ماذا يعني أن تكون طالباً؟ ما الذي يعلّمونهم إياه هنا في إنكلترا؟ هل من الممكن أن أخرج من جلدي، من ماضيّ، ومن اسمي؟ هل من الممكن أن أفتح صفحة جديدة، وأبدأ مجدّداً مع هؤلاء الشبان القوطيين المرتبكين؟ ومن ثم أستطيع أن أجلس معهم خلف المقاعد، مصغيةً إلى ما يقوله المعلّم القدير، وأثناء الاستراحة أتناول سندويش الزبدة والسكّر، وأشرب شاياً أسود مرّاً. أبصق في سندويشتي لأمنع زميلاتي من اختطافها من يدي وتناول غدائي. وبدلاً من أن أذهب إلى السجن، وأنا في الخامسة عشرة، أتوجّه إلى مركز الفنون لمشاهدة فيلم فرنسي، ممسكةً بيد صبي لطيف، خجول. أستطيع أن أتخيّل نفسي مرتديةً تنورةً سوداء شفّافة، وقميص تي شيرت أسود، مطبوع عليه في الأعلى، وبحروف حمراء كلمة «موت»، مع ماكياج أسود وحذاء أسود من ماركة (دكتور مارتنز). بل يمكن أن أصبغ شعري باللون الأرجواني.

كان الجو بارداً حقّاً في المرّة الأولى التي ذهبتُ فيها إلى

المدرسة. موسم الحصاد قد انتهى، والسماء ملبّدة بغيوم كثيفة، تنذر بالمطر. أشمّ نار الحطب في المجامر، والقمح المدخّن. أمي سرّحت شعري وقسّمته إلى جديلتين، ثم ارتديتُ فستاني الأسود المطرز، الذي كانت ترتديه هي أصلاً، ووضعتُ سندويشة الزبدة المبهرة والسكر اللذيذة داخل حقيبتي القماش، مع دفتري وقلمي الرصاص، وأسرعت إلى المدرسة. مشيتُ حافيةً بمحاذاة حقول الزيتون، صعوداً ثم هبوطاً، عبر التلّ القاحل حتّى شاهدتُ قاعتين طينيتين في البعيد، بناهما رجال القرية ونساؤها. لم تكن الجدران مستقيمة، ولا النوافذ مستطيلة أو مثلّثة، أما الأبواب فبنيت بشكل عشوائي. الآنسة نايلة، «المرأة ذات الشفتين المغلقتين» تنتظرنا وراء الباب. «يا لله! تحرّكوا! تأخّرتم»، كانت تقول.

دخلتُ، أحملُ دفتري وقلمي. جلستُ على الكرسي المكسور، محاولةً التركيز على السّبّورة.

قالت الآنسة نايله: «الراء ترمز إلى الرأس والسين إلى...؟»

همستُ «سلمى».

قالت «ماذا؟» ملوّحةً بعصاها.

رفعتُ صوتي وقلتُ: «سلمى، يا آنسة».

وبصوتها الحادّ قالت: «جيّد. هل تعرفين كيف تكتبين اسمكِ؟»

«لا، يا آنسة».

«هيّا إلى السّبّورة».

وقفت بالقرب من السّبّورة أرتجف، ومثانتي ممتلئة، وبنطلوني يوشك أن يقع.

حملت إصبعاً من الطبشور وكتَبت، «س-ل-م-ى».

حملتُ إصبعاً من الطبشور، متنبّهةً إلى عشرة أزواج من العيون تنظر إليّ، وبدأتُ أرسمُ حروفَ «سلمى».

«كم عمركِ؟»

«ستة أعوام، آنسة».

قالت السيدة نايلة: «أحسنتِ!»

انطلقت راكضةً إلى البيت لأُري أبي ما كتبت: «سلمى»، «رأس»، «حمار»، «إنسان». فرح كثيراً حتى أنه طلب من أمّي أن تعدّ لي شاياً، مع مزيد من السكّر «لهذه الفتاة الذكية».

حيثما أذهبُ، أرى كنائسَ في البعيد: بيوت الله العتيقة، المتهاوية، والمظلمة. وكلّما دخلت كاتدرائية أو كنيسة، شعرت بالبرد. كأنّ ثمة نظام تبريد خاصّاً وسرّياً لها، يوزّع رائحةَ العفونة العالقة على الحجارة القديمة. إنها أماكن مظلمة دائماً، خافتة، موحشة. إذا لم تجبر الناس على الذهاب إلى الكنيسة فلماذا يذهبون؟ يجب أن يكون هناك إمام أو كاهن قوي، يهزّ عصاه، مستحضراً الله، ومتوعّداً حزناً «مفصّلاً على قياسِ كلّ قلب»، إذا لم تعبده. الكاتدرائية مهجورة إلا من كهنة يجولون بأرديتهم السود وياقاتهم البيض، وبضع سيدات عجائز، بشعورهن المسرحة التي يعلوها الشيب، ومجنونَين يقفان بالقرب من صندوق التبرّعات الزجاجي. تجد هناك ثلة من مدمني الكحول والمتشرّدين، ينامون على وسائد الصلاة المبسوطة على الأرائك الخشبية الطويلة. الدينُ

ضعيفٌ في هذه البلاد كالشّاي. لم يتبقّ منه سوى «هل هذا هو اسمكِ العائلي أم اسمك الأول؟» الذي كان ضابط الهجرة قد سألني إياه، ولم أعرف بمَ أجيب.

«مسلمة، لستُ مسيحية».

«اسمُكِ؟ ما اسمُكِ؟» قال.

«اسمي؟ اسمي؟ سالي آشر».

«يا يسوع!» قال.

من أعلى التل الأجرد، تُشاهَدُ قبة الجامع الزرقاء مع المئذنة، حيث يقف الإمام لأداء الصلاة. الدعوة إلى عبادة الله وإطاعته تأتي خمس مرّات في اليوم. «الله أكبر. يا نائم وحّد الدائم»، يستيقظ المسنّون في الفجر، ويتوضأون، ويتوجّهون، برفقة شبّان نصف نائمين، إلى الجامع. يقف الإمام أعلى المنبر، ويحثهم على الدخول إلى المسجد وطلب المغفرة من الله.

«لا يمكننا أن نبيع زيتوننا قبل أن نأخذ فتوى من الإمام»، كان أبي يقول. نظرتُ إلى أبي بعينَي طفلة في العاشرة، وأدركتُ أنّه أضعفُ من الإمام. جسدُهُ الطويلُ والنحيلُ يشي بسنوات من ركوب الخيل والحراثة والحصاد. عيناهُ السّاهمتان تحكيان عن أيامٍ من النظر إلى السّماء، وانتظار الغيم أن يأتي، والمطر أن يهطل، وينقذ محاصيله. لماذا كان هذا الرجل الطويل النحيل أضعف من الإمام؟ لماذا يجب عليه أن يستشيره قبل أن يبيع صناديق الزيتون التي تتعفّن في المخزن؟

قوسُ قزح يطفو فوق نهر الإكس، مبشّراً بالمطر. لكم كان أبي، الحاج إبراهيم، سيفرحُ لو رآه، حيث ألوانه تعدُ بأكداسٍ من القمح في المخزن، مع رحلة إلى المدينة لبيع المحصول، وشراءِ معطفٍ جديدٍ من صوف الحمَل. بعضُ مَنْ في الحمى سيفسّره بأنه وعدٌ بجمع المال والاقتران بزوجة ثانية. «نشكركَ ونحمدكَ يا الله»، كانوا يقولون. بالقرب من مقلب النفايات لمحطّة القطار، بدا قوسُ قزح على حقيقته: انعكاسٌ زائف للضوء فوق المياه. مسحتُ العرق عن جبهتي، وربطتُ شعري نحو الخلف بحلقة مطاطية. يجب أن أشاهد فيلم فيديو عن رجلَي عصابة يختبئان في دير، متظاهرَين بأنّهما راهبتان تقيّتان. كنتُ أنا أيضاً مذنبة، وأتظاهر بأنني مسلمة، لكنني لم أكن سوى كافرة، لن يُسمَحُ لها أبداً بدخول الجامع. ومن ثمّ تذكّرتُ أن ليز كانت قد قرّرت منعي من استخدام جهاز الفيديو في غرفة الجلوس لأنّني عبثتُ بجهاز التوقيت، ولأن شعري الأسود كان يتساقطُ في كلّ مكان.

ستكونُ الآن صاحبة منزلي ترتشف نبيذَها الرخيص، وتنتظرُ عودتي إلى البيت لتسدي لي النصائحَ في هذا الأمر أو ذاك. وضعتُ أغراضي على الرّصيف، وأدرتُ المفتاح في قفل الباب. ولم يخب ظنّي فقد كانت الرائحة الحامضة للنبيذ تفوح إلى أنفي. ها هي تستأنف عادتها. «هلّلو»، غنّيتُ.

«أهذه أنتِ، يا سلمى؟» قالت.

«من سيكون سواي، يا ليز؟»

ثم توقّعتُ سؤالهاَ المقبل، الذي سيكونُ عن الطّقس. «هل كان الطقسُ جافّاً اليوم؟»

«أمطرت زخّات خفيفة، ولكن الطقس جافّ الآن»، نظرتُ إلى شعرها الأشيب المنساب، وعينيها الغائمتين، وشبكة الشرايين الناعمة في خدّيها وأنفها، وجلستها المخمورة المتكئة على الكنبة، ثم قلتُ لأرفع من معنوياتها: «ثمة قوس قزح هائل، ينحني فوق الحقول والتلال وينعكس في مياه النهر».

رشفةٌ أخرى من الكأس المتسخة، أتبعتها بجملتها المتردّدة، «ربمّا يجب أن ألقي نظرة؟»

«أجل، أجل. هل ترغبين في صحبة ما؟»

«صحبة»، قالتها بنبرة إنكليزية صافية.

«صحبة»، ردّدتُ خلفها، وأنا أشدّ عضلات فكّي.

«يا أمّي»، صرختُ، وأنا أبصقُ الليمونَ الحامضَ من فمي. كانت القابلة تضع أسياخاً حادّة في داخلي. تحفرُ وتحفر بحثاً عن اللّحم النامي. سيلانُ الدّموع لم يطفئ النار.

«من فضلكِ»، صرختُ. من فضلكِ، صرخَتْ. «أنا . . . أنا . . .» وقبل أن أكمل الجملة، اختفى وجهُ أمّي المكبّر في الظلام.

حين استيقظتُ، قالت أمّي: «لا شيء. إنه لا يزال عالقاً في رحمكِ مثل ابن حرامٍ حقيقي».

ابتلّت عباءتي بالدم، وشعري المنفوش التصق برأسي، ووجهي توهّج بالدموع. بيدَيَّ الاثنتين بدأتُ أضربُ رأسي وأصرخُ: «ماذا أفعل؟»

«إذا اكتشفَ أبوك أو أخوك الأمر، فسيقتلانك».

ربطتُ الوشاح الأبيض حول رأسي، ثم نهضتُ، وركضتُ فوق التلّ الأجرد، وهبطتُ التلّ نفسه، باتجاه المدرسة. كانت الآنسة نايلة تنام في إحدى الغرف. طرقتُ البابَ الحديدي وناديتُ: «آنسة نايلة! آنسة نايلة!»

«بسم الله، من الطّارق؟»

«سوف يقتلونني، ويطلقون النار عليّ، وبين عينَيّ».

«من؟ لماذا؟ ومتى؟» قالت وهي تزيح رتاجَ الباب.

أسرعت نحو الداخل، ثم وقفتُ في منتصف الغرفة. بدأتُ أضربُ صدري بيدي وأصرخُ، «أستجيرُ بالله وبكِ، آنسة نايلة».

«ما الأمر؟»

«أنا حامل».

شحبَ واصفرّ لونهُا. «أيّتها المسكينة».

ربطت شعرَها الطويل، وارتدت وشاحَها، وأحكمت العقدة تحت ذقنها، وبلعت لعابها بصعوبة، ثم جلست على حافة السرير.

وقفتُ هناك، في وسط الغرفة الفارغة تقريباً، مرتعشة.

قالت أخيراً ببعض الصعوبة، «بادئ ذي بدء، عليكِ أن تربطي لسانَك. لا تخبري أحداً».

«هل تريدين أن أرافقكِ، يا ليز؟» سألتُ ثانيةً.

«لا، أفضّلُ أن أنجز هذا أوّلاً». ورفعت كأس نبيذها الوسخ.

أملتُ بحذر علبةَ سائل الغسيل، التي كنتُ أخبّئها خلف علبة رقائق القمح «السِريال» الصّباحي، في الخزانة التي كانت ليز قد أفرَدَتها لي، وتركتُ قطرةً خضراء صغيرة تسقط فوق الإسفنجة الصفراء. يجب أن أكون حذرة جداً حين أنظّفُ كوب الشاي. إذا التقطت ليز نفحة من رائحة الليمون، فسنبدأ بجولة شِجار. سأخسر لساني تماماً وأخلدُ إلى الصمت، وستسكب إنكليزية إذاعة البي بي سي فوق رأسي. «الخزف والسكاكين قديمة. يجب أن لا تنظّفيها بمادة كيميائية. ماذا دهاكم أيّها الناس؟ الغسل والتنظيف طوال الوقت. لا عجب أن البثور تغطّي جميع أنحاء جسدكِ!» كانت تتحدّث إليّ وكأنّني خادمتها في الهند، حيث كانت تعيش، ولستُ مستأجرة، أدفعُ أربعين جنيهاً في الأسبوع، إضافة إلى الفواتير. كانت الغلاّية تغلي فأطفأتُها، وسكبتُ ماءً ساخناً في الكوب، ووضعتُ فيه كيس الشاي، وحرّكته. خطوط من اللّون البنّي بدأت تتكوّن على الفور. كنتُ مقتنعةً أنّ ما كنتُ أعدّه ليس شاياً، لأنّني لم أكن أرى أوراقَ الشاي، كما أنّ الماء أضحى بنيّاً في الحال. يومياً ما بعد الظهر، كنتُ في الحمى أضعُ بعض أوراق الشّاي في الركوة المعدنية، وأملؤها بالماء، وأضيفُ نبتةَ المريمية الجافّة أو حبّ الهال، وسبع ملاعق من السكّر، ومن ثمّ أضعها فوق النار الموقدة في العراء، تحت شجرة التين. حين تغلي، أرفعُها بأصابعي، ثم أعيدُ وضعَها، وهكذا، مرّات عديدة، حتى تبلغ رائحةُ الشاي والمريمية أنفَ أمّي. أخرجتُ كيسَ الشاي الرطب والدائري، ورميتُه في الحاوية، ثم حاولتُ أن أفتح كرتونة الحليب. فتحتُ طرفَيها، وحرّرتُ جناحيها، لكنها رفضت أن

تُفتَح. لم أستطع حتى أن أفتحَ الكرتونة اللعينة! غضبتُ من نفسي لكوني أجنبية إلى هذا الحدّ، فنحرتُ العلبةَ بالسكّين، وسفحتُ الحليب على سطح الطاولة. في الحمى، إذا احتجتَ إلى حليب، تأخذُ إناءً وتضعه تحت البقرة، وتحلبها، حتى تَغْرقَ يداك في الحليب الطازج الساخن. مسحتُ الحليبَ بالقماشة المتعدّدة الاستعمالات، والتي كانت تستخدمها ليز لمسح جميع السطوح، بما في ذلك أرض المطبخ. كانت القماشةُ غير نظيفة، ولذلك غسلتُ يدَيّ بالماء والصابون، وأخذتُ رشفةً من الشاي الذي كان قد بردَ الآن، وأسرعت صاعدةً إلى غرفتي.

لم يكن مسموحاً لي أن أضع فنجان الشاي على قطعتَي الأثاث العتيقتين اللتين كانتا تقبعان في الزاوية مثل كلبَي صيد. لذلك كنتُ أضعه على الطاولة الرخيصة القريبة من سريري، الذي يصدرُ صريراً في كلّ مرّة أجلسُ أو أنام عليه. وكنتُ أضعُ تلفازي الذي اشتريتُهُ من محلّ لبيع الأثاث المستعمل بعشرين جنيهاً، على الطاولة الأثرية التي أعطتني إياها ليز. حين كنتُ أنظرُ عبر السّتائر المفتوحة، المفصّلة على القياس، كنتُ أرى خطّ سكّة الحديد، وتوهّجَ الشّمس الغاربة. الستائر الزرق والبيض تمثّل الوعد الوحيد في الغرفة بمستقبل أفضل، مستقبل امتلاك بيتٍ، وفرشه بقطع أثاثٍ مفصّلة على المقاس تماماً. كانت بضعة كتب ومجلاّت أنيقة مكدسة على الرفّ الذي ركبته ليز. أفرغتُ كيس مشترياتي على السرير. هذه المرّة بالغتُ جداً. أحضرتُ صباغاً سريعاً للشّعر، ومنظّفاً للوجه، ومعطّراً للفم، وشامبو، وكريم (E45)، ومنظّفاً للتواليت (Big Dum)، وهو على رأس قائمة المواد المحظورة

لدى ليز، ودورقَ نيسكافيه. في دعاية النيسكافيه كانت خشخشةُ حبّات القهوة تستنفر السيّدة لتتحرّك وتذهب لتستعير بعض السكّر من جارها الوسيم الأسمر الذي كان قد انتقل إلى الحي نفسه توّاً.

حين لا أكون في انتظاره بين عرائش العنب، كان حمدان يصدرُ صوتاً حادّاً، كأنّه ينادي كلابه للعودة إلى الاسطبل. وكلّما سمعتُ صفيرَه، انسللتُ عبر القضبان المعدنية، وقفزت نحو الأسفل كي ألتقيه. كنتُ أمشي حافية بمحاذاة الحائط، خلف جذوع الأشجار، ووراء الصخور، خائفةً من أن أوقظَ الكلب. وحين أصل إلى دالية العنب، أستلقي تحتها بهدوء تام، أحدّق في النجوم البعيدة، وأصغي إلى وقع الخطى. كنتُ أميّز خطواته الخفيفة التي كانت كمخالب الضبع وهي تلامس الأرضَ، قبل أن تقفز ثانيةً بأقصى سرعتها. يمسكُ بكاحلي، كاتماً ضحكتَه المخنوقة. نتعانق تحت السماء النيلية الدكناء وبين الظلال السّود للأشجار.

يمسّدُ شعري ويقول: «أنتِ غانيتي، وسبيتي».

«أجل، يا سيّدي»، أقول.

يدفعُ ويدفعُ، وأنا مستلقية تحتَه، وأعضّ شفتَيّ كي لا تهربَ منيّ صرخةٌ. أريحُ رأسي على صدره، لاهثةً، فيما هو يمرّر أصابعه على شعري، ويغنّي لي أغاني الحبّ: «حبّكِ استولى على أحشائي، يا روحي».

«حبّي لكَ مثل دبيتش البغال». أقولُ، وكان يضحكُ ويضمّني.

لثوانٍ قليلة طارئة، شعرتُ أنّ حمدان يحبّني ويقدرني ويصبو إليّ. لن أستطيعَ أن أعيد التقاطَ ذاك الشعور ثانيةً أبداً.

«انهضي وتفاءلي! اعتني بنفسكِ! بيعي نفسَكِ!» قالت لي بارفين. «أنتِ الآن في مجتمع رأسمالي، ليس مجتمعكِ».

إنّها على حقّ. كانت معظم صبغات الشعر مصمّمة للشقراوات، وامرأة سوداء مثلي، غزاها الشيبُ باكراً، وجدت صعوبةً كبيرة في الحصول على اللّون الأصلي لشعرها. في المذياع، البارحة، كان رجلٌ يتحدّث عن «العنصرية المؤسساتية». لا بدّ أنه كان يشير إلى شيوع اللون الأشقر في كلّ مكان. شقراء، صحّتها جيدة، في الدعايات لمعجون الأسنان ومجفّف الشعر واللبن القليل الدسم. كلّما نظرتُ إلى المرآة المزخرفة، التي جلبتها ليز من الهند، أرى وجهاً يذوب مثل شمعِ العسلِ، وجهاً لم يعد شاباً البتة. قلت لنفسي، وأنا أنظر إلى عربة الدرجة الأولى، المضاءة جيّداً، لقطار لندن، شعري قاتم ويداي قاتمتان، وأنا قادرة على ارتكاب أفعال سوداء. هناك، على المقاعد الزرق، سيكون زوج المستقبل جالساً، مرتدياً بزّته الرمادية وقميصه الزّهري، يقرأ صحيفة «فايننشال تايمز». إنكليزي ثري، كريمٌ وحسّاس، يتشوّق إلى لقاء امرأة إكزوتيكية مثلي، بعينين دكناوين، وبشرة غامقة، وأفعال سوداء. سأحكّ جلدي الزّيتوني اللون بجلده، وفي غفلة كالسّحر، أصيرُ بيضاء. في لمحةٍ، ودون أن أستعمل مراهم تبييض البشرة على مدى سنوات، سأصبح أكثر بياضاً ونصاعةً. وفي لمحةٍ سأختفي.

«يجب أن تغادري هذا المكان على الفور»، قالت معلّمتي الآنسة نايلة.

«لماذا؟» قلتُ مذعورةً.

«إذا لم تفعلي، فسيقتلونك». مرّرت لسانهَا على شفتيها اليابستين.

ضغطتُ على وجهي الرّطب بكلتا يدَيّ. «إلى أين أذهب؟ ماذا سيحدث لعنزاتي؟»

«لا تكترثي لعنزاتكِ. إننا نحاول أن نخلّصَ رقبَتكِ هنا». أطفأت الآنسة نايلة قنديل الكاز، ووضعته على الأرض، ثم ضغطت على معصمي بكلّ قوة. «إن أفضل ما نقوم به الآن هو أن نسلّمكِ إلى رجال الشرطة، ونصلّي بأن تبقي في حمايتهم إلى الأبد».

مشترياتي أضعُها على عتبة نافذة الحمّام، فأرى الانعكاسات الملوّنة لأضواء الطاحونة القديمة على صفحة الماء. الأضواء المهشّمة تطفو على ماء النهر في اتجاهات مختلفة. أعرفُ ذاك النسيم. كانت هناك، تبحث عن مكان للراحة، عن موطئ قدم، عن خلاص. كانت هناك تعبة، تبكي. تناديني. ضغطتُ على أذني بكلتا يدَيّ. قشعريرةٌ اجتاحت جسدي كأنني أُصبتُ بصقيعٍ مفاجئ، وانتصبت حلمتاي الدكناوان البشعتان اللتان بلغ طول كلٍّ منها سنتمتراً ونصف السنتمتر، أو حجم إصبعي الصغرى، حتى الفقرة الأولى. يجب أن لا أمكث هنا الليلة. عليّ الذهاب إلى حانات دافئة، ومطاعم ذات إضاءة جيّدة، تطفح بانعكاسات متلألئة

لشموع في كؤوس المشروب، حيث يمكن للنَفَس البشري الدافئ، والهمسات والضحكات، أن تحيط بي وتضمني، وربّما أُعامل معاملة مهينة.

في قصر البجع أستلقي على السّرير، وأراقب الدهان يتقشّر، ثمّ يسقطُ أرضاً. الغرفة رطبة وكئيبة مثل زنزانة، حيث أمضيتُ خمسة أشهر. «حبس انفرادي»، ردّدتُ خلف آمرةِ السجن. ضابط الشرطة أخبرني أنني سأوضع في زنزانة من أجل حمايتي. لقد قرّرت قبيلتي قتلي، وحلّلوا سفكَ دمي، وهاهم الشبّان يقتفون أثري في أصقاع الأرض. «إننا نحاول أن ننقذَ حياتكِ»، قالت آمرةُ السجن. اسمها نعيمة. وأنا اعتدتُ أن أحصي الخطوط على الحائط، وأضيف خطّاً واحداً كلّ يوم. شيء آخر: كنت سعيدة لكوني حاملاً. ماذا كنتُ سأفعل لو أنني سأمرّ بالعادة الشهرية؟ هل كنتُ سأجلسُ على دلو الصفيحِ ستة أيام؟

حين ذهبتُ إلى حانة (رأس التركي)، علّقتُ زهرة حمراء في شعري لكي أبدو إكزوتيكية، مثل الفتاة في الإعلان عن جزر سيشيلز. شعرها أسود طويل وبشرتها زيتونية وعيناها سوداوان صغيرتان، ونهداها ضخمان، مع أن حلمتيها غير مرئيتين. كانت تقفُ على الشاطئ وبيدها جوزة هند، تهفهفُ تنّورتها التي هي من القش، على إيقاع موسيقى قبلية. «محصولنا الذهبي، نعم نعم، نعم. احصده وضعه في الأعلى. نعم، نعم، نعم». كانت أغاني الصيف تبشّرُ ببدء موسم الخطبة، وتبدأ جميع الفتيات في الحمى

التقلّب في أسرّتهن، ينظرن عبر قضبان النوافذ الحديدية، إلى خيوط نور الصباح. أمّ العريس ستأتي غداً وتطلب يد الفتاة، حاملةً أساور وقلائد ذهبية، مع عقيق، وزمرّد، وقماش حرير ودمقس، إضافة إلى زجاج من الخليل، وعطر العطّار الصافي، الموضوع في زجاجات مزخرفة. إنهنّ، في نهاية المطاف، سيقفن تحت الظلّ البارد للرّجل.

عزيزتي نورا،

أنا سعيدة، سعيدة جداً. تزوجت من رجل إنكليزي، ينحدر من أسرة جيّدة جداً، ونحن ننتظر مولوداً أنثى. رأينا صورتها في رحمي. إنه ثري أيضاً. بيته عتيق وكبير. مملوء بالكتب الجميلة، الكتب الملوّنة من كلّ أنحاء العالم. الغربيون يقرأون كثيراً، ليسوا مثلنا. إنهم أيضاً مهذّبون ومتواضعون، وليسوا مثلنا. تخيّلي- يوقف الشرطي السير كي يسمح لطيور البطّ بعبور الطريق! إننا مرعبون جدّاً تجاه الحيوانات، ما عدا عنزاتي، فكنتُ أدللها كثيراً. كيف حال أمّي؟ أتمنّى أن تعتني بنفسها. لا أزالُ أتذكّر يديها الخشنتين تمسحان وجهي، وتباركه. لا أزالُ أتذكر الخبز المقمّر الطازج، وسندويش الزبدة والعسل. كادت تفقد بصرها بسبب الحزن عليّ حين غادرتُ، فاشتريتُ لها نظّارة طبّية. إن ثمنها باهظ، أعرفُ ذلك، لكن زوجي الجنتلمان أعطاني النقود، ونصحني بشراء العدسات المركبة لتتمكن من رؤية القريب والبعيد.

المشتاقة

سلمى

كانت تبكي لأنها تريدني. وضعتُ يدي على قلبي، وفتحتُ الثلاّجة، وأخرجتُ بعضاً من أصابع السمك المتجمّدة، ووضعتُ خمساً منها تحت المشواة، مع شريحتين من الخبز. حين أخرجتُها، كانت قد تفحّمت تقريباً، لكنّني قررتُ أن أتناولَها كلّها على أية حال. أخذتُ رشفةً من شراب الكوكاكولا الخالي من السكر، وبدأتُ أمضغُ قديدَ السّمكة، التي لم يكن قلبها قد طُبِخَ بعد. متكئةً على إفريز النافذة، لمحتُ ضوءاً ذهبياً دائرياً يختفي خلف غيوم شفّافة. فتحتُ النافذة، وباتجاه السماء البعيدة، بسطت هاتين الذراعين المكسوتين بالبثور الجافة. عبر المسافات، حمل النسيمُ البارد صرخاتها المكتومة، إلى هذه الجزيرة التي هجرَها الرّبُّ. إذا وضعتُ سدادات قطنية في أذني، فلن أسمع شيئاً: حفيف الأوراق وصفير القطارات وإليزابيث الثملة التي تتخبّط في غرفة الجلوس وهمسات حمدان وبكاؤها المكتوم ودقات قلبي، دقّةً وراء دقةً.

*

كنتُ أجلسُ على كومة من سنابل القمح، أتناول سندويش الزبدة، حين خرج حمدان فجأة من غيمة الغبار، وجلس بالقرب مني. بسهولةٍ ويسر، مشى باتجاهي كالنّمر، مرتدياً جلاّبيتَه البيضاء. عيناه مثبّتتان على كاحليّ السوداوين النحيلين، اللذين اعتاد أن يسحبهما كل ليلة تقريباً، تحت عريشة العنب. «كيف حال عصفورتي؟» قال، مثبّتاً كوفيته المرصّعة بالأبيض والأحمر.

بلعتُ لعابي بصعوبة، وقلتُ، «أنا على ما يرام».

«تبدين تعبة. هل أنهكتُكِ بحاجاتي الكثيرة؟» هَمَس.

رميتُ السندويش إلى العصافير ثم قلتُ: «أنا حامل».

على الأرض القذرة لغرفة السجن، شقّت كتلةٌ من اللّحم طريقَها إلى الخارج. صرختُ، بكيتُ، توسّلتُ، ثم وضعتُ صرّةً متورّمةً من اللّحم، حمراء مثل جذر الشمندر. كانت مدمنات الكحول، والعاهرات، وقتلة أزواجهنّ، يتفرّجن عليّ، أنا التي ارتكبت إثماً، أضعُ مولوداً على أرض سجن «الإصلاح». ثبتَتْ مدام لمعة شالَها الوردي، ومسحتْ وجهَها بيديها، وضمّت نورا، التي كانت دموعها تنساب على خدّيها، وهي تغمغمُ بشيء لم أستطع أن أفهمه. «ذات يومٍ سوف تعرفين... ذات يومٍ سوف...»

شاي المريمية

نزعتُ ملابسي الداخلية الحمراء، التي كنتُ قد اشتريتها خلال فترة التنزيلات، ووقفت عاريةً على السجّادة القذرة. «لقد تحسّنتِ في المدّة الأخيرة»، قلتُ لصورتي في المرآة، ثمّ غمرتُ نفسي في الماء. كان كافياً أن أستلقي في الماء السّاخن، وأستنشقَ روائح الصابون وزيوت الحمّام. ولأني محاطة بهالة من البخار والعطر، شعرتُ بالأمان والدفء، وتلاشت على مدى بضع دقائق من رأسي العهود التي نكثت والخيانة والعار والموت. نهضتُ واقفةً، ولففتُ نفسي بمنشفة، وبدأتُ أفركُ وجهي. شرعت أصابعي تمرّ على الأنف الغليظ المعوجّ، والجبهة الضيّقة، والفم الكبير، والوجنتين العاليتين. حفَفتُ، وحفَفتُ، كي أزيلَ البقع المتخثّرة، وأفتح مسام الجلد. فجأةً، عبقُ البنّ المطحون، ورائحةُ الزيتون اليانع، وعطرُ براعم الليمون، ملأت فضاء الحمّام. كنتُ أجلس تحت شجرة التين، وأمّي نحتسي شاي النعناع. تضع أمي كأسَها أرضاً، وتمرّر يدَها الخشنةَ على وجهي، مرددة بعض التمائم. في كل يوم جمعة، بعد الظهر، كانت القرية بأسرها تجتمع حول المذياع الوحيد، خارج منزل الشيخ، ليستمعوا إلى المطربة فايزة أحمد تغنّي:

ما تقولش كنّا وكان
يا ريت ده كلّه ما كان
يا ريت ما شفتك
ولا عرفتك
ولا كان جمعنا ما كان.

سكبتُ الماءَ الباردَ على وجهي. بدت المرآةُ ضبابية، كأنّها تطفو في بحرٍ مالحٍ.

خططتُ شفتيّ بقلمٍ أحمر، محاولةً أن أجعلَهما أصغر حجماً وأكثر امتلاءً. ثمّ رششتُ مُزيلَ العرق. انتشرَ العبقُ الباردُ من أعلى جسدي حتى أسفله. من خزانة الملابس، اخترتُ أكثر تنانيري قصراً وضيقاً، وحشرتُ نفسي داخلها، وأدخلتُ ساقيّ في جوربين أسودين شفّافين، ثم ارتديتُ حذائي الأسود اللمّاع، ذي الكعب العالي. ثبتّ حاملة الثديين، وشددتُ أحزمتها نحو الأعلى، لأعطي نهدَيّ شكلاً أكثر اكتمالاً وفتوةً. كانت بلوزتي السوداء، المحبوكة بالخرز، ضيّقة على نحو يكفي لإبراز الثديين، من دون أن تُظهِر ترهّل المعدة. وقفتُ مشدودةَ القامة قبالة المرآة، وشددتُ معدتي. تلك لحظات قليلة وثمينة، في المساء، كنت خلالها أنسى الماضي. لحظات أنظر فيها إلى طيفي كأنني أنظر إلى غريبة. وينهمك ذهني بالبحث عن اسم جديد وتاريخ جديد لنفسي. «سأكون الليلةَ نجمة سينمائية».

*

إذا تابعتُ صومي، إذا تابعتُ صمتي، إذا تابعتُ الخياطة، فسأخرج من جسدي مثل أفعى تخلعُ جلدَها القديم. لن أكون سلمى بعدئذ، وسوف أصبح امرأةً أخرى، لم تذق يوماً طعم التفّاحة المحرّمة. سيمرّ الوقت سريعاً، وسوف أنتقل بلطف من السجن إلى القبر. لا ألم، لا مقاومة، ولا حتّى ضجر. أوثقتُ رسالةَ أمّي بخصلة الشّعر، ووضعتُها داخل كيس جلدي، وحوّلتُها إلى حجاب، ثمّ ارتديتُها حول عنقي مثل قلادة. الخطّ الشاحبُ ليدِ الآنسة نايلة، التي كتبت الرسالة نيابةً عن أمّي، لا يزال محفوراً في رأسي.

هذا ما أرادهُ الله لكِ. سمّيتُكِ سلمى لأنّني عقدتُ عليكِ آمالاً كبيرة. أردتكِ أن تتعلمي الكتابة، وتتزوجي من أحد أبناء شيخ القبيلة، وتأكلي اللّوزَ والعسل طوالَ حياتكِ. أردتُكِ أن تعيشي حياةً أفضل من حياتي. لكنّ «خصلةَ صوفكِ» ظلّت مختلفة دائماً عن جميع فتيات القبيلة. كنتِ تصبغينها بالأحمر. وتحبّين جذبَ الانتباه. أخبروني أنّكِ امتنعتِ عن الأكلِ والشّرب في السجن. لا أستطيعُ زيارتَكِ لأنّ والدكِ الحاج إبراهيم وشقيقكِ محمود، حرّما علي ذلك. قالا إنهما سيطلقان علي النار أنا أيضاً. حين أنظرُ إلى عنزاتكِ السوداء، ضائعة من دونكِ، وتزدادُ نحولاً يوماً بعد يوم، أقولُ لنفسي، يا ربّ، اجعل النهاية رحيمة.

وضعتُ شالَ أمّي الأسود حول كتفيّ، وخرجتُ على رؤوس أصابعي من المنزل. كانت ليز تتحدّث إلى صادق، «الفتى

الباكستاني الذي يعمل في متجر الكحول»، والذي يزوّدُها بالنبيذ الرخيص. «مدام، هذا ممتاز أيضاً. من خمرة معتّقة أيضاً. جرّبيه، مدام. إنه ممتاز أيضاً». ثمّ تطلقُ أكثر من نكتة، وتضحك حتى تمتلئ عيناها دموعاً. تلك كانت أفضل لحظاتها، حين تكون مبتهجة قليلاً، ومعنوياتها مرتفعة. تشبكُ يدها بذراعه، ثمّ تقول، «صادق، عليكَ أن تخجل من نفسك، وأنت تغازل امرأة إنكليزية عجوزاً مثلي».

يحرف ذقنه إلى أحد الجانبين، كأنّما يبحث عن الكلمات، ثم يقول، «مدام، أنت لستِ عجوزاً أيضاً».

كانت ضحكتها عاليةً، مصطنعةً، تمزجُ القهقهة بالنهنهة. وفوراً تنتقل إلى لغة أخرى. «كيس نو تام؟»

«هذه ليست لغة الأوردو، مدام. إنّها لغة الهندي (Hindi)»، يقول مقتضباً.

ثمّ تجيبه «ثيك هاي!» وهي تهزّ كتفيها.

أجلسُ خلف ماكينة الخياطة من ماركة سينجر، وأضغط على الدّوّاسة، وأترك الإبرة تسير فوق البولستر والقطن والساتان. كنتُ أخيط كلّ ما تأتي به آمرات السّجن: أكماماً، بنطلونات، ياقات، أذيال تنّورة الآمرة نعيمة، وجيوب سترتها الرسمية، التي مزّقتها إحدى نزيلات السجن. أشدُّ الوشاحَ الأبيضَ حول رأسي، وأقطّبُ أطرافَ الجيبِ على سترتها. كانت الغرفة خانقة، تنبعث منها رائحةُ البول وزيت الآلات. كل ما تستطيع رؤيته هنا هو تلك

الرؤوس المحجّبة، المحنية، وكل ما تستطيع سماعه هو ذاك الصرير المنتظم لآلات الخياطة العتيقة. «فقط اتركي تلك الأصابع تتحرّك»، أقولُ لنفسي، «وستكونين على ما يرام». كنتُ أريد أن أعيدَ حياكة حياتي. أهيّئ القبّات بعناية فائقة، ثم أقطّبها يدوياً أوّلاً، ثمّ أدعُ الآلة تمرّ عليها. إنّ المكتوبَ على الجبين لا بدّ أن تراه العين. «أليست خيّاطة جيّدة؟» تقول السجينات وهنّ ينظرن إلى الأثواب المحوكة بأناة. لم يكنّ يعرفن أنهنّ ينظرن إلى حياتي المهدورة. «لطالما ظننتُ أنّكِ لستِ بيضاء كالياسمين، صافية كالعسل في جراره الزجاجية، بل مجرّد امرأة فاسقة».

وإذ أعبرُ الطرق، أسمعُ صفير القطارات، وصريرَ الحديدِ يفلّ الحديد. «إنّ الطقسَ قارص»، سمعتُ نفسي أقولُ بإنكليزية إليزابيثية. إن صاحبة منزلي تسكنني كشبح. إذا لم أنتبه، فسأتحوّلُ إلى إليزابيث، أو إلى وردة إنكليزية، أو إلى حسناء نائمة، ولكن من دون أمير. إن أوّل ما لفت نظري في محطة القطار هو لوحة الإعلان المنارة جيداً. لقد أنزلوا دعاية شاي (تتلي) مع الحسناء النائمة والأقزام السبعة ، واستبدلوها بصورة مصقولة لسيارة (شفروليه) حمراء. شركة جديدة اسمها (فاكس هوم) كانت قد استولت على البناية المهدّمة، المحاذية لخطّ الحديد. رمّمت البناية من الخارج، وكستها بطبقة مضاعفة من الزجاج، وأحضرت آلات طباعة ونسخ وتصوير، وعرضت خدماتها بأسعار معقولة. وكان بإمكاني أن أرى الآلة في المكتب الضعيف الإنارة تبعث برسائل إلى أناس مفقودين. كانت السيّدة سميث من مكتب البريد تبتسم

كلّما رأتني أدخل مسرعة عبر الباب، لكنها كانت ابتسامة تعبة. لا بدّ أنّها تفكرّ بينها وبين نفسها، وتقول: «ها قد أتت هذه المرأة السوداء!» كنتُ كلّما سلّمت إليها رزمةً جديدة من الرسائل، وضعت نظّارة القراءة، وتفحّصت العناوين. «إلى من يهمّه الأمر»، أو «إلى نورا، سجن الإصلاح، المشرق»، وتراها تقرأ بصوت عال، ثم تخفض نظارتها، وتنظر إليّ بعينيها الرماديتين الثاقبتين. «هذا لا يبدو صحيحاً». لكنّها، بعد فترة توقّفت عن تفحّص العناوين. كانت تهزّ كتفيها وتقول، «آه، لا بد أن لديكِ أصدقاء كثراً هناك».

«أوه، أجل»، أجيبُ بنبرةٍ مشرقة. لدي أصدقاء: معلمتي الآنسة نايلة، وصديقتي العزيزة نورا، ومدام لمعة، والضابط سليم، والراهبة خيرية، والراهبة فرانسوا، والقس ماهوني، وغوين وبارفين.

«من خاطَ هذا الثوب الأبيض؟ أريدُ أن أقابلها»، نادت امرأةٌ، بلهجة لبنانية، الضابط سليم، مديرَ السجن. «اسمي خيريّة، وأريد أن أراها». كانت هي زائرتي الأولى على الإطلاق. نهضتُ، عدّلتُ فستاني المزهّر، وانتعلت حذائي البلاستيكي. قادني حارس السجن عبر متاهة من الممرّات إلى مكتب المدير. كان ثمة شعاع من الضوء ينير المكتب الرمادي. أغلقتُ عينيّ وفتحتهما، محاولةً تبيّنَ الناس الجالسين في الغرفة. امرأةٌ صغيرة الحجم، ترتدي لباساً رمادياً، بياقة عالية، تحملُ الفستان الأبيض الذي كنتُ قد خطته قبل سنوات. قال الضابط سليم، «سلمى، اجلسي».

بلعتُ لعابي، وجلستُ على الكرسي، بالقرب من المرآة.

كان الضابط طويلاً، يميل شعره إلى الصلع، وثمة تعبير لطيف مرتسم على وجهه. «هل حكت أنت هذا الثوب الأبيض؟»

أنفقتُ ساعات وأنا أخيطُ فستانَ تلك الطفلة. أمضيتُ ساعات أتخيّل كيف يمكن أن تكون عليه زنبقة ماء بيضاء، تطفو على ماء صاف، في ليلة بهيجة برّاقة: ليلى. حاولت أن أجعل شكل الفستان يشبه زهرةَ الزنبق. كنتُ أصبو إلى أن تكون حياة من ترتديه أكثر سعادةً وبياضاً من حياتي. الهدبُ المهفهف، والقبّة المزهِرة، والجيوب الصغيرة التي تشبه الورود، والأكمام الصغيرة المنتفخة، وزنّار الساتان، وحبات اللؤلؤ المتوهّجة، المشبوكة حول الياقة.

أومأتُ برأسي . . .

كانت البناية الفولاذية الضخمة المخصصة لفرز الرسائل مضاءة جيداً. كانوا يفرزون ويسلّمون آلاف الرسائل، لكن رسائلي لم تكن لتصل البتة. ماذا يجب أن أفعل لأتسلّم رسائلهم، أو بشكل أفضل، لأسمع أصواتهم؟ إذا استلقيتُ في وسط الشارع مثل مطب، ودهستني سيارة البريد الملكي الحمراء الضخمة، فهل سيلاحظون وجودي؟ وكلّما كنت على وشكِ الإصابة بنوبة، نظرت إلى النافذة، خلف القضبان، وقرأت رسالة أمّي مرّات عديدة، حتى يتوقّف قلبي عن الخفقان، وتجفّ حبّات العرق العالقة بجبهتي. كنت أستطيع أن أقرأ بين السطور أن أمّي كانت

تنصحني باستئناف أكلي، لكنّها لم تكن قادرة على الإفصاح عن ذلك، خوفاً من رجال العائلة. «لماذا لا ترتدين صدريتي»، قالت نورا، «ربّما خفّفَت الألم شيئاً ما». هززتُ رأسي. كان لا بدّ أن أضغطَ بلطفٍ على حلمتَيّ الملتهبتين، لأحرّرَ ثدييَّ من الحليب غير المستعمل، ثمّ أبدّل الضمادات. كنت أشعرُ أن الحليب المجفّف يشبه الحصى داخل ثدييّ الموجعتين. أصبحت حلمتاي أكثر طولاً وسواداً، مع كلّ عمليات العَصر والسَحب العقيمة، ومع كلّ ذاك الحزن.

اللّيلُ باردٌ وجاف، بيد أنّ نهر الإكس يجري صاخباً على الصخور التي اعترضت مساره، وهو في طريقه إلى البحر. صوتهُ يشبه العويل الذي تتبعهُ صرخة. المرأب في (رأس التركي) يكتظّ بالسيارات، وواجهاتها الزجاجية المكسوة بالضباب: سيّارات صغيرة، وسيّارات فخمة، وهي من تلك الأنواع التي لطالما أحببتُ أن أركبها. بمرور الوقت، انقسم الطابقان في البار وفقاً لمعايير العمر. كبار السنّ يصعدون الدرجَ إلى الطبقة الأرضية، والشباب يهبطون الدرجَ إلى القبو. عبر النوافذ التي يعلوها الغبش، كنت أرى أضواءَ الديسكو الملوّنة، وأسمعُ الصوتَ الأجش للمغنّية. عشراتٌ من الصبايا والشبّان الإنكليز يهزّون رؤوسَهم ويميلون بخصورهم، على صوت الموسيقى. بعضهم يحتسي الكحول، وآخرون يتداعبون، وثمّة آخرون يتبادلون القُبل، ومنهم من يرقص وحيداً. كانت اللّوحة على الباب تقول: «حفلة عيد ميلاد خاصّة».

«أريدُ أن أساعدَك على الخروجِ من البلاد»، قالت خيرية، راسمةً شارةَ الصّليب.

«من فضلكِ، هلاّ تقدّمين نفسَكِ لسلمى»، قال الضابط سليم.

«أنا راهبة مدنية من لبنان. أنقذتُ الكثيرَ من الفتيات الشابات مثلكِ. صلّيتُ من أجلكن جميعاً على مدى سنوات، لكنّني الآن أتنقّل بين السجون، وأهرّب النسوة. لا أستطيع أن أتحمّلَ فكرة أن يتمّ قتل نفس بريئة. وها هي المسألة. التجوالُ في الظلام هو قدري»، قالت متعجّلة.

«سلمى، أنتِ في رعاية احترازية، وهذا يعني أنّكِ لستِ هنا لأنك ارتكبتِ شيئاً، بل من أجل حمايتكِ. إذا أطلقتُ سراحَكِ، ومكثتِ في هذه البلاد، سوف يقتلونكِ، أمام بوابة السجن. إذا غادرتِ البلاد، فستكونين بمنأى عن أيّ أذى»، قال الضابط سليم، وضغط بأصابعه على مكتبه المشعّ.

«سيطلقون النار عليّ. سأُقتل»، تلك كانت كلماتي الأولى منذ أسابيع. كنتُ أفقد لساني وأبقى صامتةً أياماً. كانت السجينات يطلقْن عليّ «الخرساء التي تعزف الناي».

«انظري، سأضمنُ أنّهم لن يفعلوا ذلك. سنأخذُ أقصى الحيطة، ونطلق سراحكِ ليلاً. ولست أنتهك القانون حين أخلي سبيلك. بالنسبة إلى الدولة، فأنتِ بريئة تماماً».

مسحت خيرية ياقتَها بأصابعها وقالت: «يعلمُ الله أنّني هنا للمساعدة. سأقلّكِ في منتصف اللّيل، وأذهبُ بكِ إلى لبنان».

«ماذا عن؟ ماذا عن . . . عائلتي؟»

«يا طفلتي»، قال الضابط سليم، «معلّمتكِ سلمت الرّسالة قبل ست سنوات، ولم نسمع عن عائلتكِ منذ ذلك الحين».

أنا في السّجن. وأتخيل في اليوم التالي، حين يقرع جرس الزيارات، والذي توقّفوا عن رنّه بعد أن امتنع الجميع عن زيارة النسوة السجينات في سجن الإصلاح، تنادي آمرةُ السّجن عبر مكبّر الصوت، «زائر لسلمى إبرهيم الموسى». أهيّئ ثيابي النظيفة التي كنتُ قد غسلتُها، استعداداً لهذه المناسبة، وأنتعل حذائي البلاستيكي، وأمشي بفخر إلى السّياج الشائك. هناك سيكونون جميعاً: أبي الحاج إبراهيم، وشقيقي محمود، مع أمّي الحاجة أمينة التي تبكي وتحمل كيساً بنّياً من البرتقال. نُدخِلُ أيدينا في الشِباك، وندفعُ، ثم ندفعُ، حتى تتلامسَ راحاتنا. يدا والدتي خشنتان، كما كانتا دائماً. أعرّضُ شفتَيّ للخطر، لدى محاولة تقبيلهم عبر السياج.

مشيتُ عبر الأبواب العريضة إلى جزيرة من الدفء والدّخان والضجيج. صوتُ المغني الأجش يتردد فوق الأرضية الخشبية. نظرة أولى على الجالسين فوق الكراسي الحمراء جعلتني أكتشف من كان يحضر للصيد في تلك اللّيلة. اخترتُ كرسياً في الرّكن البعيد من البار، لأتجنّب لفت الانتباه غير المرغوب فيه. كان المالك يجلس على كرسي مريح في زاوية بعيدة، يراقب النادلات

الكثيرات. بدت الفتاة التي تعمل خلف البار أليفةَ الهيئة، بتنّورتها العريضة، وبلوزتها الواسعة. وجهها واضح، مكشوف، خالٍ من الماكياج، ويشعّ بالصدق. «مساء الخير».

«مرحبا».

«فيمَ ترغبين؟»

«نصف كأس من عصير التفّاح». كان لون عصير التفّاح يشبه البيرة، ومن ثم كلّ من يمرّ بقربي سيظنّ أنّني متفتحة العقل، ولست مهاجرة مسلمة، متعصّبة.

خلفي تماماً، رأيت ثمة مجموعة من الشباب، في الثلاثين من العمر، يناقشون موضوعاً ما. أخذتُ رشفةً من «البيرة» ونظرتُ حولي. أحدهم كان يرخي شعره جديلة طويلة، ووجهه يشيخ بلطف، ويرتدي قميصاً أزرق مدخّناً فضفاضاً. إنّه يذكّرني بجيل الستينيات. أشار إليّ، وسأل الرجلَ الذي يقف بالقرب منه شيئاً ما. واجتمع الرأسان في مشاورة. التفتُ إلى كأسي من جديد. إنّه على وشكِ أن يبتسم في وجهي. كان البارُ مملوءاً بالنّاس الذين يتحلّقون مجموعات. يحادث بعضهم بعضاً، والجميع حريصون على لفت الانتباه. الجميع تقريباً يبحث عن خيار أفضل من المرأة التي تستند إلى كتفهم، وتضحك بغباوة كبيرة. ناظرةً إلى شرابي، بلونه العسلي، ظننتُ أن كلّ شيء سخيف، بما في ذلك شراء عصير التفّاح والتظاهرُ بأنه كحول.

حدّدتْ خيرية موعداً لإطلاق سراحي. ابتسم سليم، ولوّح

بيديه في الهواء، علامةً على الموافقة. طلبتُ بعض الماء. في طريقي إلى غرفة السجن برفقة حارسة، رحتُ أفكّر في يوم الثلاثاء المقبل، إذ سأحزم في منتصف الليل أغراضي وأستعدّ للمغادرة. «أذهبُ إلى أين؟» سألتُ الجدرانَ الملوثة. «إلى أين؟» ومع أنه لم يكن لدي الكثير من المتاع، فقد قمتُ، لعشرات المرّات، ببروفات في ذهني لطريقة إعداد أمتعتي للمغادرة. كانت أكثر الأشياء أهميةً، مهيّأة سلفاً، وهي موضوعة حول عنقي كقلادة: رسالة أمّي وخصلة شعرها. تنهّدتُ، وأعادني إلى الحاضر منظرُ عصيرِ الطماطم وهو يُسكَب في كأس. لقد سبّبت حمرته لي رجفة.

«ماذا؟» قال الهبيّ السابق، الذي كان يقف بالقرب مني، ويستند إلى حافّة البار.

هززتُ رأسي وقلت، «لا شيء». حاولتُ أن أرفعَ معنوياتي باستحضارِ دعاية تلفزيونية. كانت دعاية الشكولاته قد ذكّرتني بحمدان. إنّ دعاية القهوة أفضل، حيث اتفق الجاران على اللقاء. تنفّست عميقاً وابتسمتُ، وبانت أسناني كأنّني أقدّمُ دعايةً عن معجون الأسنان.

غامزاً أصدقاءه، سأل: «هل أشتري لكِ شراباً؟»

يبدو أن ملامح وجهه قد عرفت أياماً أفضل، وبدأ الشيب يغزو صدغيه، لكنه بدا نظيفاً، تفوحُ منه رائحةُ مسحوق الغسيل. أحببتُ أصابعَه النحيلةَ، وأظفاره بيضوية الشكل. دسستُ خصلةَ شعرٍ هاربة خلف أذني، وقلتُ «عصير طماطم، من فضلك».

«عذراء بدون كحول؟» سأل.

«نعم، من فضلك».

ابتسم، وبصوتٍ متهدّج طلب شراباً بلهجةٍ غربية جنوبية.

«من أيّ بلد أنت؟»

بكثير من الخوف، ارتسمت في ذهني الدقائق القليلة المقبلة. كم من المرّات طُرح عليّ هذا السؤال منذ أن أتيتُ إلى بريطانيا؟ بعد سنوات من العمل في متجره، ظلّ معلمي، ماكس، يسألني، «قلتِ من أين أنتِ؟ الشام؟ الحمى؟»

«احزر؟»

كانت القائمة، كالعادة، تضمّ كلّ بلدٍ في الأرض، إلاّ بلدي. «نيكاراغوا؟ فرنسا؟ البرتغال؟ اليونان؟ حتماً روسيا؟»

«لا. هناك قطعة كبيرة في المنتصف تماماً».

«تركيا؟»

«لا. بلاد الشام».

كان يلعبُ بكأسِه الكبيرة التي لم يكن يعلم أين يضعها، شاعراً أن أصدقاءَه ينظرون إليه. وفي التزامٍ معهود بالنصّ، قال، «لماذا غادرتِ بلدكِ؟»

أمتعتي التي رحتُ أجمعها وأرتّبها بعصبية، كانت تضمّ ناي قصب، وفوطاً صحّية، وممشطاً بنياً طارت بعض أسنانه، ومصحفاً، وعباءة مدرقة سوداء، وشال أمّي، وملعقة، وفرشاة أسنان تعلّمت كيف أستعملها في السجن، وفنجاناً بلاستيكياً،

ومنشفة رمادية، وقلم حمرة الذي كانت قد أعطتني إياه مدام لمعة، وممشطين من الصدف صغيرين، وزجاجة عطر أهدتها إليّ نورا. وضعتُ الحجاب التعويذة الذي يضمّ رسالة أمّي وخصلة شعرها البرّاقة الناعمة، على كومة الأغراض، وحزمتُ الصرّةَ بإحكام.

«لماذا أردتُ المغادرةَ؟ ربما لأنّني أرغب في الاكتشاف على ما أعتقد».

ارتشفَ بعض البيرة، حائراً فيما إذا كان سينهي ليلته ويذهب إلى البيت، أو أن يتابعَ محادثة هذه المرأة الأجنبية.

«هل مضى عليكِ وقتٌ طويل هنا؟»

«أجل»، شددتُ تنّورتي نحو الأسفل.

«هل تحبين الحياة هنا؟»

«أجل، إنّها جيدة».

«هل لديكِ عائلة في موطنك؟»

«أجل. لديّ عائلة». أمّ، وأب، وأخ، و . . . بعض الأصدقاء.

«هل تشتاقين إليهم؟»

«نعم». كان يحاول جاهداً جرّي إلى محادثة ما. لا أبلعُ الطعم أبداً. آخذُ وقتاً طويلاً وأنا أتذوّقه، وأمضغه، ثمّ أبصقُهُ، قبل أن تخترقَ إبرةُ الصنّارة لساني. أخذتُ رشفةً من الدم البارد اللاذع في كأسي ثم سألتُ، «وماذا عنكَ أنت؟»

«أعيشُ في إكستر وأملكُ متجراً للأكل والفيتامينات الصحّية».

«من أيّة منطقة في الأصل؟»

«ولدتُ في لينكِنْ، غير أن عائلتي تعيش في لايم ريجيس منذ سنوات. وكان والدي صيّاداً للسمك».

أحدهم فتح الباب، مغادراً، فاندفعت هبّةٌ من الهواء البارد نحوي. كنتُ أعرفُ ذاك الهواء. جلستُ على المقعد المرتفع، أرتجفُ من البرد، وأحاول منع يدي من سحب تنورتي نحو الأسفل. وضعتُ كلتا يدَيّ أسفل جسدي، ورحتُ أصغي إلى الأصوات الخافتة للماء المنساب، ورنين الكؤوس، ونباح الكلاب البعيد.

طرقةٌ متردّدةٌ على باب السجن، أعلمتني أن السّاعة هي الثانية عشرة من منتصف الليل. كانت النزيلات نائمات. نظرتُ إلى وجوههن وإلى الأرض الباردة والحائط الملوث والأسرّة الجاهزة التي أُحضِرت أخيراً لتحلّ محلّ «الفرشات» المطاطية، واستدرتُ جانباً، مستعدةً للمغادرة. لو أنّ نورا ما زالت هناك، لكان صعباً عليّ أن أقول وداعاً. متأبّطة الصرّة التي تضمّ كلّ ممتلكاتي، مشيتُ بهدوءٍ خلف نعيمة. راحت عيناي تتابعان أرضيةَ الممر التي مسحتُها ونظّفتُها مئات المرّات. كانت الحيطان مغطّاة بخطوطٍ تحصي الأيام. الليلة أضفتُ إلى متاهة خطوطي خطّاً أخيراً، مع نقطةٍ تحته. «ما هذه؟» «هذه علامة تعجّب». كنا نردّد خلف الآنسة نايلة. ولدهشتي، عانقتني نعيمة وانسابت الدموعُ على وجهها الغاضب عادةً.

تمالكتُ نفسي وقلتُ، «شكراً لكِ. وداعاً».

واستعجل الضابطُ سليم خروجي عبر البوابة، قائلاً، «ليرعاكِ الله ويحميكِ».

همستُ له شكراً، وقفزتُ في السيّارة المنتظرة، وجلستُ بالقرب من خيرية، وانطلقنا على الفور. اختفى بناء السجن في ثوان قليلة. كنتُ أستطيع أن أتبيّن فقط الشبحَين القاتمين لسليم ونعيمة، وهما يلوّحان مودّعين.

كانت خيرية تركز على قيادة السيّارة. «لا نريدُ لأخيكِ أن يطلقَ عليكِ النار».

نظرتُ إلى الطريق الملتوية، وإلى النجوم البعيدة التي لم أرها منذ ثماني سنوات، وهمستُ، «كلاّ».

«ناديني جيم، من فضلكِ». قال الرجل الإنكليزي ذو الجديلة.

«جيم، هل ترغب في شراب؟»

«أنا سأحضره».

«لا، أنا».

«حسنٌ. ويسكي اسكتلندي مزدوج، من فضلكِ».

إنها لا تزال الساعة التاسعة، قلتُ في نفسي، وها هو بدأ يطلب ويسكي مزدوجاً. وشرعتْ أصابعي تحفرُ عميقاً في جزداني.

«هلاّ نجلس بالقرب من المدفأة».

«أجل».

توجّهنا إلى المدفأة، حيث بالإمكان سماع هسيس الغاز في الأنابيب. يمكنك رؤية الحطب المشتعل، وألسنة اللهب المشعّة، المتراقصة، لكنكَ تدركُ أنّها مثل قوس قزح الذي رأيته هذا الصباح، زائفة، وخادعة للعين. جلستُ على الكَنَبة الجلدية، وتنهّدتُ. الجلوس على الكنبة أفضل بكثير لظهري المتعب. نظرتُ إلى عينَيّ جيم الرماديتين، وتساءلتُ كم عدد النسوة اللواتي نام معهنّ. الجاران في دعاية النيسكافيه، وبعد مرور أيام من استدانة القهوة، ومن تناول العشاء معاً لم يتبادلا حتّى قبلة واحدة.

«ما هو عملكِ؟» قال، مادّاً ساقيه، ومظهِراً حذاءه العملي.

«أنا مساعدة خيّاطة»، قلتُ.

«أوه!»

لا بدّ أنه يقول في قرارة نفسه إنّ هذا مملٌ جداً. «كما أنني أدرسُ الأدب الإنكليزي، بنصف دوام». هذا أشاع بعض الدفء في عينيه. «أنا أخذتُ اختصاصاً اختيارياً في علم الاجتماع، وعليّ أن أكتب بحثاً عن المتشرّدين. لا أعرف كيف أحصل على مراجع عن هذا الموضوع. في ساحة الكاتدرائية، تجد المتشرّدين وهم يتصيّدون الطعام. ما زال أمامي عشرة أيام لكتابته».

«يمكن لأستاذك المشرف أن يساعدك».

أستاذي المشرف، الدكتور جون روبسون، بعيد ومشغول، وعيناه دائماً مركّزتان على شيء آخر غير وجهي.

«تحدّثي إلى المتشرّدين».

«عن التشرّد؟» سألتُ. تخيّلني: مهاجرة سوداء، تتقاضى أقل

دخل ممكن، تسأل المتشرّدين: «لماذا تنامون في الشوارع والساحات العامة؟».

«نعم». ابتسمَ جيم، وارتشفَ آخرَ قطرةٍ من كأس الويسكي.

من دون قصد شددتُ تنورتي نحو الأسفل، ثمّ احمرّت وجنتاي لأنّ يدَيَّ ذهبتا في الاتجاه المعاكس.

حين خرجتُ من بلدي، كان الليلُ بارداً جدّاً. بردٌ يتغلغلُ في النخاع ويجمّد الأنفاس. كنتُ أرتدي فستاني المزهّر وبنطلوني وحذائي البلاستيكي. حين بدأتُ أفركُ يدَيّ، قالت خيرية، التي كانت تركّز على الطريق، «تلفّعي بالشّال!» لففتُ كتفيّ بشال أمّي الأسود، ونظرتُ عبر النافذة إلى الأضواء البعيدة. كانت السيارةُ تقلّنا عبر قرىً بأسرها، وإن بدت مجرّدَ حفنةٍ من أضواءٍ في البعيد. كانت بلادي سلسلة من عشرات الأضواء التي يتبعُها الظلام. كانت رائحةُ الخشب المحترق في المجامر تملأ هواءَ اللّيل. ستكون أمّي جالسةً في بيتها الطيني، تنسجُ تحت ضوء الكاز، وسيكون والدي ينتظر المطر وهو ينظر إلى السّماء. وهي ... و ...؟ إنني أُهَرَّبُ خارج البلاد. ضممتُ صرّتي النسيجية إلى صدري بقوة. مهما فعلتُ وأينما ذهبتُ، يجب أن لا أفكّر فيهم.

بدأتُ أشعر بالدفء تجاه هذا الرّجل الذي لم يكن في أوج شبابه، صاحب العينين الرماديتين. كان كلّ منّا يشدُ معدته،

متمسّكاً بشبابه. «لماذا أتيتِ إلى البار وحيدةً؟» سألني وهو يمرّر إصبعَه النحيلةَ على شفةِ كأسه.

«ليس لدي أصدقاء على الإطلاق»، أجبتُ. كنتُ أكذبُ. كانت لدي غوين وبارفين.

«لا بدّ أنكِ تعيشين هنا منذ سنوات. ولمَ أنتِ بلا أصدقاء؟»

«أمضي جلّ وقتي أعمل في المحلّ». قلتُ، ثمّ بيدي دسستُ شعري الأجعد خلف أذني.

ابتسمَ.

ابتسمتُ.

في انعكاسات كأس الويسكي على الطّاولة، رأيتُ شبحَ الممثّلة التي تقف على رصيف الميناء. إنها تدير رأسها وتبتسمُ للضّابط متحدّية القرية بأسرها. شاهدتُ الفيلم مع بارفين في أحد لقاءاتنا النادرة. في اللّهب الزائف، بدا جيم لطيفاً ومرحّباً، مثل فندق صغير يتمتّع بخدمات أساسية. فندق صغير يكتظّ بأمتعة أناس آخرين، وأنفاس دافئة. سقفٌ فوق رأسك وظل بارد لرجل.

وضعَ كأسَه على غطاء الطّاولة وقال: «هل تملكين سيارة؟»

«كلاّ».

«هل يمكن أن أقلّكِ؟»

تردّدتُ. عبر ألسنة لهب المدفأة، رأيتُها تبتسمُ لي. أمّي بسطت ذراعيها، والآنسة آشر وبّختني، والقسّ ماهوني باركني، وإليزابيث صرخت في وجهي، وانهمر الضباب على الزجاج البارد للنافذة مثل الدموع. «أجل»، قلتُ.

غطّيتُ كتفي بشالِ أمّي الأسود، ومشيتُ عبر جموعِ أصدقائه. صفّقوا وهلّلوا. ابتسمَ وقال، «تجاهليهم!»

بدت خيرية خرافية في ثوبها الرّمادي، وياقتها البيضاء. نظّارتها الفضّية، المربوطة بخيط جلدي، معلّقة حول عنقها مثل قلادة. كانت تقودُ السيّارة وكأنّ جنّياً يسحبُها بيده الجبّارة. تابعنا الرحلة بصمتٍ مطبق. طبقةً، طبقةً ، بدأ اللّيلُ ينقشع. ستكون نورا في «منزل العطر»، تمتّعُ الزبائن، والنزيلات الأخريات ينظرن إلى النوافذ خلف القضبان، ويحلمن برؤية السماء، وهي تبكي وتبكي من أجلي. إنها تريدني. في نهاية الأفق كنتُ أستطيعُ رؤيةَ تلالٍ بنّية مخضرة، وقطيع من الغنم يرعى، ومرج رحب يكسوه الندى. رائحةُ العشب المحصود والنيران المكشوفة في العراء تملأ الهواء. كان ذلك هو شروق الشمس الأوّل الذي أعيشُهُ منذ ثماني سنوات. أضاء نورُ الصّباح الجبالَ والسهولَ. تساءلتُ ماذا يمكن لعنزاتي السوداء أن يكون عليه حالها الآن. أشحتُ بوجهي صوب نافذة السيّارة، ورأيتُ السهلَ الأخضر الوافر المتلألئ، الممتدّ حتى نهاية الأفق.

«وادي البقاع»، قالت خيريّة.

كان الندى يشعّ تحت شمس الصباح. أنا حرّة. بطرف وشاحي مسحتُ وجهي المبتل.

«أحبّ خريرَ المياه المتدفقة»، قلتُ وأنا أصعدُ إلى سيّارة جيم القديمة.

ابتسمَ جيم وقال، «إذاً، ثمة شيء ما تحبّينه على الأقل».

«أجل، خرير المياه، والشاي بنكهة المريمية، والكعك المغطّس بالشوكولاته والكريما».

ضحكَ وقال، «يا له من مزيج!»

رمقتُ بريق بشرته الشمعية، وشفتيه الرقيقتين، وأذنيه الصغيرتين.

«شاي المريمية؟ نعم. هل تشربون الكثير من شاي الأعشاب في بلادكم؟»

«أجل، البابونج والمريمية والنعناع والصعتر».

«وهل تزرعون هذه الأعشاب؟» سأل، ممسكاً يدي.

عنزاتي تتسلّق الجبل، وأنا أجمع الأعشابَ لأمّي. كنتُ أوبّخ العنزات حين تلتهم أوراق العشب. «أجل، نقوم بذلك. البابونج والمريمية والصعتر تنمو في كل مكان».

«أستوردها من اليونان، مجفّفة ومعلّبة، على نحو جميل، ثمّ أبيعُها في متجري».

كان لبنطلونه مسحة منسابة ومريحة، ولحذائه مظهر حسن. أوقف سيّارته قبالة محلّ «صادق» غير المرخّص، ثم نظر إليّ وبدا كأنة على وشكِ أن يقول طابت ليلتك.

«شكراً»، قلتُ بصوت مرتجف، وأمسكتُ قبضةَ الباب للخروج.

«شعركِ مذهل»، قال ولمسَ شعري.

سرى دفء أصابعه في شعري، نزولاً إلى جانب وجهي.

ضغطت يدي على قبضة الباب. بدا الشارع بارداً، وغير حقيقي، في الضوء البرتقالي الخافت لمصابيح الطريق. كان قلبي يخفقُ بشدّة، ويدي تتعرّقُ، وذقني ترتجف، حين قلتُ له أخيراً، «هل ترغب في فنجان شاي مع المريمية؟»

مررّ أصابعه على شعره، ثم على جديلته، وتردّد قليلاً، ثم أطفأ أضواء السيارة، وقال: «نعم».

لم يكن مقدراً ومكتوباً، ولكن بالرغم من ذلك حدث. ورثتُ جميع رسائل إليزابيث ومذكّراتها اليومية. كنتُ قد نسيتُ أن أسلّمها إلى ابنةِ أختِها، ومن ثم أصبحتُ حاملةً أسرارها الهندية.

تمّت دعوة جدي وأبويّ إلى موكب عرس عائلة البغم. كان ذلك وقت القيلولة، وغرفة المطالعة مظلمة وباردة، على نحو ممتع. كان ثمة صمتٌ خافت يحيط بنا، باستثناء أزيز ذبابة من حين لآخر. صعدتُ السلّم الخشبي وتناولتُ أحد كتب جدّي المحرمة، التي كان يحتفظ بها عادةً في الرف العلوي. وضعتُ الكتاب على المقعد، ففُتح من تلقاء نفسه، على هذه الصفحة:

«ذات يوم، وبينما خرج شهريار للصيد، مكث شاهزمان في القصر، يشعر بالكآبة لوفاة زوجته. نظر إلى الحديقة فرأى زوجة أخيه تدخل الحديقة، وبرفقتها عشرون فتاة من العبيد، عشر منهن بيضاوات البشرة، وعشر أخريات سوداوات. خلعن ثيابهن، وتبيّن له أنهنّ عشر فتيات وعشرة شبّان، تقدّموا لممارسة الجنس

جماعياً، في حين أن عبداً اسمه مسعود قفز من أعلى الشجرة حين نادته الملكة، «تعال، يا سيّدي». دفعها باتجاه الشجرة، وكاد يخنقها بالقبلات والعناق، ثمّ امتطاها. الشبّان الزنوج والفتيات العبيد حذوا حذوها، مغتبطين معاً، حتى قدوم اللّيل. بعدئذ، ارتدوا ثيابهم كفتيات عبيد، باستثناء مسعود الذي عاد وقفز من فوق الحائط، واختفى».

فجأةً شعرتُ بالعطش، وسرتُ كأنني في حالة الخدر، باتجاه المطبخ باحثة عن (هيتّا).

سرتُ أنا وجيم على رؤوسِ الأصابع، عبر القاعة الرئيسية، وصعدنا الدرجَ بهدوء. أدرتُ غلاّية الماء، وطلبتُ منه أن يجلس. جلس على أحد الكراسي القريبة من النافذة. الضوءُ البرتقالي لسكّة الحديد، المتسلّل عبر الستائر، جعله يبدو كأنه غريب من الفضاء الخارجي. خلعتُ حذائي وشالي وجلستُ على أرضية الحجرة، مستندةً إلى جهاز التدفئة البارد ومعانقةً ركبتيّ.

«هل تشعرين بالبرد؟» سأل وجلس القرفصاء، قبالتي.

رأيتُ وجهَ أبي ثمّ وجهَ أمّي ثم حمدان ثم شهلا ثم دير العليّة للراهبات في لبنان ثم منزل القس ماهوني ثم أباح رجال القبيلة سفك دمي ثم أمّي ضربتني ثم رأيتُ جدران السّجن الملوثة التي تفوح منها رائحة البول والدموع. عرفتُ ذاك الهواء. إنّها هناك، في الخارج، تبكي من أجلي. إنّها تريدني.

«أوه! يا عزيزتي! دعيني أمنحُ يديك الدفءَ»، قال، وبدأ

يفرك أصابعي. كان الماء يغلي، ويملأ الغرفةَ بالبخار، وهذا ما جعل الغلاية تنطفئ آلياً. وضع شفتيه الباردتين على شفتي. ليس لدي مكان آخر ألجأ إليه. هذا البلد هو الوطن الوحيد الذي أملكُ. أغمضتُ عينَيّ، وطردتُ ذكرى ممارسة الحب الملحّة مع حمدان، واستقبلتُ قبلتَه. كان لطيفاً جداً، يداعبُ جسدي بأصابعه الرقيقة كأنّني جوهرة، كأنني هشّة. حمدانُ كان يعرف أنني قويّة، أستطيعُ التحمّلَ، لذا كان ينام معي بخشونة ويده تضغط على شفتَيّ.

«هل أحضّر الشاي؟»

«نعم»، قال، ثم قفل عائداً إلى كرسيه.

وضعتُ فنجَانين ساخنين على الطاولة. أوراقُ المريمية الطافيةُ على السطح ابتلّت ثمّ غرقت إلى أسفل القاع.

شمّ الشاي أوّلاً، ثم أخذَ رشفةً. «لها نكهة برّية غريبة».

كنتُ أسمعُ شخير ليز يأتي من الأسفل. «إنّها صاحبة المنزل»، قلتُ.

وضع الفنجان على الطاولة، وشدّني، وأمسك رأسي بكلتا يديه، ثمّ قبّلني.

الاخضرار المشعّ لوادي البقاع، وسطوعه ورحابته وزهوه، جلبت الدموع إلى عينَيّ. كان عقلي يقبّلُ كلّ شيء حولي: السّماء الرحبة الزرقاء، والسّهول الخضراء، والأشجار العملاقة، حتّى الحمير والسيارات الأخرى. أنا حرّة. أوقفتْ خيرية السّيارة قبالة

محلّ صغير. «امكثي في السيّارة»، قالت وأسرعت إلى المتجر، واشترت بيضتين مسلوقتين، ورغيفين رقيقين من الخبز، وفنجاناً من الشاي الحلو. ما إن ناولتني إياها، حتّى بدأتُ بالأكل على الفور. ابتسمت خيرية وقالت، «باسم الأب والابن والروح القدس، آمين»، وبدأت تأكل. في السجن لم يكن هناك سوى العدس وكسرات الخبز الجاف. كانت النسوة يطلبن مني العزف على الناي، فيما هنّ يغنّين:

في الصباح أو في المساء: عدس.
في الصيف أو في الشتاء: عدس.
بارد أو ساخن: عدس.

في الصباح ناولتُ جيم فنجان قهوة، وزبدية حليب مع رقائق الحبوب، وقلتُ، «منام وإفطار» وابتسمت. كان جيم جنتلمان حقيقياً. كان يعانقني أثناء ممارسة الحب وحين ينظر في عينَيّ، يقول، «أعجب، لماذا كلّ هذا الحزن؟» وهو يمضغ رقائق الحبوب في السرير، بين المناديل الورقية الوسخة، والشَراشف المكوّمة، والثياب المبعثرة، قلنا وداعاً. قبّلني سريعاً على جبهتي وخرج. كنتُ أسمعه يسرعُ الخطى على الدّرج، ويصفقُ البابَ خلفه، ويدير محرّكَ السّيارة، وينطلق عبر الشارع. تابعتُ تناول فطوري. لا نزع شَعر، ولا بكاء، ولا شق ملابس. تقولين وداعاً بشفتين مطبقتين. تبقين أعصابَكِ باردة إذا أردتِ رؤيته مرةً ثانية. لا تسألي

أبداً، «هل بإمكاني أخذ رقم هاتفك؟» أو «هل كان لقاؤنا جيّداً» أو «أسأراكَ ثانيةً ؟» تبقين في السّرير، بالقرب منه، طوال اللّيل، متظاهرةً بأنكِ راضية، نائمة، وكلّ ما تريدين فعله هو أن تقفزي وتغسلي جسدكِ، بالماء والصابون، وتتوضّئي، وتطلبي من الله المغفرة. ولكنك تتناولين فطوركِ البارد وتنظرين إلى الخيوط السّاطعة تتسلّلُ من بين السّتائر وإطارِ النافذة، بشفتين مطبقتين. تبتسمين لأنّه من المفترض أن يكون هذا هو الصباح، بعد تلك الليلة الجميلة، الفائتة.

ليلك وياسمين

فرانسوا، الراهبة الفرنسية الشابّة، وضعت صينيّة الفطور على الطاولة الجانبية، وقالت بعربية لبنانية مكسّرة، «صباح الخير».

فتحتُ عينَيّ، وأدركتُ أنني لم أعد قابعةً في السجن. نوافذ الدير المطلية عكست ضوء قوس قزح فوق السّرير. كانت تلك تجربتي الأولى في النوم على سرير مريح. في قريتي، كنا ننام على فرشٍ مفرودة على الأرض. في السّجن، نمتُ على فراش أوّلاً، ثم على سرير معدني قاس.

«صباح الخير»، ابتسمتُ.

كنا قد وصلنا متأخّرين في الليلة الماضية. بدت خيريّة شاحبة حين أمسكت بطارقة الباب النحاسية، وضربت بها القاعدة. امرأة عجوز ذات شعر أشعث فتحت البوابة، وأذنت لنا بالدخول. حملتُ صرّتي قريبةً من صدري، وتبعتهما مطيعةً عبر الممر المضاء بالشموع. حين فتحت الراهبة العجوز الباب وقالت، «غرفةُ نومكِ»، بدأ ذقني يرتجف. غرفتي رحبة، ومضاءة جيّداً، يتصدّرها سرير ضخم، تغطيه شراشف بيض نظيفة، مع وسائد وحرامات.

«لا تكوني سخيفة»، قالت خيرية بعصبية.

حبستُ دموعي. «شكراً».

أغلقت الباب الخشبي العتيق خلفها، وقالت، «طابت ليلتكِ».

فتحتُ النافذة، فرأيتُ القمرَ في منتصف السماء، فوق الوادي العميق. حفنةٌ من أضواء تتلألأ في الظلمة. البحر غطاءٌ فضّي مفروش عند أقدام الجرف الشاهق. فتحتُ البابَ وركضتُ حافيةً، صعوداً ونزولاً في الممر الرئيسي فوق الحصى المرصوف، لكنني لم أعثر على أحد. الشموعُ أطفئت، الممر باردٌ ومظلم. عدتُ إلى غرفتي، ونظرتُ ثانيةً عبر النافذة إلى البحر، حيث الأمواج تتكسّرُ، مخلّفة وراءها خطوطاً من الزّبد. أين أنا؟ وكم أنا بعيدة عن أمّي؟ كم أنا بعيدة عنها؟

على رؤوسِ أصابعي، هبطتُ الدَرَجَ باتجاه المطبخ، كي لا تلحظَ ليز شيئاً. لا يمكنُني أن أتحمّل استجواباً هذا الصّباح. كانت الأدراجُ المغطّاةُ بالسجّاد باردةً تحت قدمَيّ العاريتين. عانقتُ نفسي. كنتُ دائماً أخرجُ من الفراش، مرتدية قميصَ تي شيرت، فقط لأتذكّر لاحقاً البرودة المنتشرة في كل مكان. أعددت فنجاناً من القهوة. كان المنزل هادئاً. ذهبتُ إلى غرفة الجلوس، متمنيةً أن أجد كرسي ليز المريح خاوياً، لكنها كانت هناك، بسترتها الزرقاء الغامقة، وبنطلونها الهندي الفضفاض، جالسةً على كرسيها، تحتسي الشّاي وتشاهدُ (توم وجيري) على التلفاز.

«صباح الخير».

«صباح الخير، سال».

لم أكن أحبّ أن يناديني أحدٌ «سال»، وبدا مثل اسم ذَكَرٍ في لغتي الأم. جلستُ على أحد كراسي القش، أحتسي قهوتي بسرعة.

«هل أمضيتِ وقتاً حلواً البارحة؟»

كان توم يطارد جيري حول المنزل. «نعم، شكراً».

«من هو؟»

كان جيري يحاول أن يربط ذيل توم بمكواة كهربائية. «شخص يملك محلاً للمنتوجات الصحّية».

«هل يحمل اسماً ما؟» سألتْ، ثم مرّرتْ أصابعها على أزرار جهاز التحكّم.

شعرتُ بالخجل لأنني لم أستطع تذكّر اسم عائلته.

«نعم». وقبل أن يُصعَق جيري بالكهرباء، غيرت ليز القناة. «يوم بارد في الجنوب مع احتمال هطل زخّات متفرقة ما بعد الظهر».

حملتُ فنجاني الدافئ قريباً من صدري، غير قادرة على تحديد موقعي في هذا العالم ومعرفة من أنا.

«لطّختُ اسمَ أهلي بالوحل»، أخبرتُ فرانسوا، الراهبة في دير العليّة. كانت تطوي بعناية المناشف وقطعاً من القماش.

«ولكن كلاّ، يا صغيرتي، فنحن جميعاً نرتكب أخطاءً»،

قالت، وفركت عينها اليسرى. إنّها شابّة، وجهها جميل، سمح. كنتُ أظنّ أنّ جميع الأجنبيات شقر، ولكن شعر فرانسوا فاحم وعينيها سوداوان برغم أنها فرنسية.

«فرانسوا»، قلتُ وابتسمتُ، مدركةً أنّ لساني لم يستطع أن يلتفّ حول اسمِها.

ردّت الابتسامةُ بمثلها.

«أين نحن الآن؟ كم نبعد عن بلدي؟»

كانت لغتها العربية غير صافية، وتبدو لكنتها أجنبية، لكنها كانت تندفع إلى الكلام بسرعة خاطفة. «إننا في شمال بيروت، على ساحل البحر الأبيض المتوسط. بلدُكِ يقع جنوباً، وتقريباً في الجنوب الشرقي. بضع ساعات في السّيارة».

«إذاً، لسنا بعيدين جداً».

«كلاّ، ولكن ثمة بعداً كافياً».

مسحتُ فمي، ووضعتُ صينية الفطور على العتبة العريضة للنافذة وقلتُ: «سوف أعودُ ذات يوم».

نظرَتْ عبر النافذة وقالتْ، «انظري، الشمسُ مشرقةٌ. سأصحبك في نزهة لأريكِ حقلنا. اشتريتُ لكِ حذاءً وبعض الثياب. هيا، استحمّي».

إنّها زمرّدة خضراء، فيروز أزرق معشّق بالفضّة، حريرٌ هندي يتهادى كالشلاّل، حبّات قهوة طازجة، مطحونة بمدقّة مهباش من

خشب الصندل المزخرف، عسلٌ وسمنٌ مبهر ملفوفان بخبز طازج محمّص، لؤلؤةٌ بيضاء تتلألأ بثوب أبيض وبنّي، بلسمٌ لكلّ الجروح، إنّها فرانسوا.

ذهبتُ إلى حمّام الدير، ودُهِشتُ لوجود مرحاض عال وحوض للاستحمام. في السّجن، كان يُسمح لنا بالاستحمام مرةً واحدة كلّ أسبوعين، باستثناء الولادة والموت. كنا نستخدمُ مرحاضاً واطئاً، هو مجرّد حفرة في الأرض، ثم نغسل أجسادنا بالماء من كوزٍ بلاستيكي. استخدام الحوض أسهل بكثير من رفع الماء من البئر، ودلق الدلو فوق الرأس أكثر من مرّة. كانت رائحة زيت الزيتون تملأ الحمّام العتيق. خلعتُ ملابسي، وللمرّة الأولى في حياتي، نظرتُ إلى صورة جسدي في المرآة الطويلة المثبتة بالحائط. حصانٌ وحيد القرن بذيل كثّ، محفورٌ على زاوية المرآة. بدوتُ نحيلة وسوداء، وشعري طويلاً أشعث. كان وجهي مجرّد عينين سوداوين كبيرتين، وأنف أعوج، وفم عريض. أنزلتُ نفسي في الماء الفاتر، واستلقيت في الحوض، وحرصتُ على أن يغطّي الماء والصابون جسدي كلّه. كان ضوء الصباح يتراقص بحريّة فوق الجدران وأرض الغرفة والماء. أصغيتُ إلى شدو عصافير الدّوري وهي تستقبل الصباح.

بمؤخّر كمّ قميصي، مسحتُ الضباب عن نافذة غرفة الجلوس. «أجل، إنه يومٌ مشرق». استمرّت ليز في طرح الأسئلة عن «هذا الرجل» الذي حضر معي إلى المنزل في الليلة الماضية.

أردتُ أن أكون لطيفة مع ليز، لكنني لم أستطع ذلك. لم أستطع أن أخبرها عن الحزب الذي صوّتَ له، «لا يسأل المرء الناس عن آرائهم السياسيّة حين يلتقيهم للمرّة الأولى. هذا أمر خاصّ».

«أوه! فتاة غبية! بالطبع تسألين. لا تريدين أن ينتهي بك المطاف مع ماركسي»، قالت بنزق.

لم أكن أعلم عمّا تتحدث، لذلك غيّرتُ الموضوع. «ليز، الطقس مجيدٌ جدّاً اليوم. لماذا لا تخرجين في نزهة؟» كنتُ أعلم أن ليز تحب كلمة «مجيد».

تركت أصابعها تعبث بشعرها الأشيب وقالت: «يجب أن أخرج، أليس كذلك؟»

كانت الزهور فوق غطاء رفّ المستوقد قد ذبلت منذ أيام. لا بدّ أن أحضر لليز بعض النرجس الأصفر. عليّ أدخال المزيد من ضوء الشّمس إلى هذه الغرفة. صعدتُ إلى غرفتي، وخطفتُ منشفتي، وأسرعت إلى الحمّام.

فركتُ شعري بمكعب الصابون القاسي حتى غطّته رغوةٌ كافية. الصابون أعدته راهبات الدير بأنفسهنّ. ملأتُ الوعاء بالماء، وأزلت الوسخَ. مياه بُنّية فاتحة دارت ثم وجدت طريقها إلى المصرف. حككتُ جسدي بليفة سميكة حتى صارت بشرتي حمراء، وصببتُ ماءً نظيفاً على رأسي، حتى زالت كلّ أدران السجن. بمنشفة بيضاء جفّفت شعري وجسمي. نعومتها ودفئها ذكراني بخشونة يدَيّ والدتي. كانت تقبضني بين ساقيها بإحكام،

وتفركُ شعري بزيت الزيتون، وتسرّحه، ثم تفرّقه في جديلتين، وتربتُ كتفي وتقول: «ضعي جلاّبيّتكِ، وهيّا إلى المدرسة! لا أريدكِ أن تكوني أمّيةً مثلي». الآنسة نايلة علّمتني فكّ لغز الحروف العربية، ووضعها جنباً إلى جنب، وتكوين كلمات منها. «رأس. رؤوس. ردّدي ورائي!» درستُ مفردةً، ومن ثمّ مفردة أخرى، حتى أصبحتُ متعلّمةً. في السّجن، بعد أن بدأتُ أقرأُ وأخبر السجينات عن الجرائد القديمة، كنتُ أبدّلُ قليلاً بعض الأخبار بغية إضحاكهن. «حمارٌ محترم تزوّج قردة شريفة، فأنجبا آمرة سجن». «زهرةٌ ذَبُلَت: بقلبٍ ملآن بالحزن، نعلنُ موتَ قطّتنا مشمش». وكانت تلقى الأخبار المعدّلة تصفيقاً في كلّ مرة. ثم بدأتُ أتعلّمُ لغةً أخرى. «لو كان بمقدوركِ فقط يا أمّي أن تسمعيني وأنا أقرأ الإنكليزية». لكنني كنت أرى شفتَيّ أمّي تتلمّظان بطريقة بدويّة، وتقولان: «تتزووا! صحيح أنّكِ لم تعودي أمّية. لكنكِ في ورطة. أن تتحدّثي أكثر من لغة، فهذا لن يقلّل هموم القلب».

دوائر من نور لا تزال تملأُ حمّامَ الدير مثل أقواس قزح صغيرة. ارتديتُ بنطلوني، بعد سروالي الداخلي وحمّالة الصدر اللذين لم يسبق أن ارتديتهما من قبل. ارتديتُ الجينز وقميص تي شيرت كانت قد أحضرته لي فرانسوا، وعقدتُ شعري ذيل فرس وغطيتُ رأسي بالوشاح الأبيض، وخرجتُ من الحمّام: امرأة نظيفة جديدة ومرتبكة، وغير متعودة حمالة الصدر فوق ثديي والسروال الداخلي ذا الحواف المطاطيّة حول وركي. الشّمسُ الساطعة استقبلتني حين خرجتُ من البوابة الرئيسية. ظلّلتُ عينَيّ،

ونظرتُ إلى الأسفل. كان البحر الأزرق والأخضر يمتدّ عند أقدام الجبال البنية الشاهقة. كنت أشمّ رائحة الأرض الخصبة والبحر المالح. استنشقتُ عميقاً الهواء النقي، ثم لحقتُ بفرانسوا، منتعلة خفّ المشي المتين الذي أعارته إليّ. كان الحقلُ يمتدّ حتى آخر الأفق. عشرات الراهبات الشابات الغربيّات، بلباسهنّ الأبيض والبنّي، كن يحفرن الأرض ويروين النباتات. يردّدن ابتهالاً أجنبياً ويعملن في إطار جماعي منظّم.

«يجب أن لا يسقين الدوالي»، قلتُ.

«لماذا؟» سألت فرانسوا.

«لأنّ الدوالي لا تحتاج إلى مياه كثيرة. إذا كنت تريدين عنباً حلواً، فيجب أن لا يروينها كثيراً».

ابتسمت عيناها السوداوان وهي تقول: «بالطبعِ، أنت كنتِ مزارعة».

«وراعية»، قلتُ.

كانت أحواضُ البنفسج الأفريقي والنبتة المتدلية صلتي الوحيدة بالزّراعة الآن. زهورٌ تقف مثل علامات التعجّب على حافة النافذة في قصر البجع. أنظّفُها، وأسمّدُها، وأسقيها بكثرة. عندما تعيش في شارع مثل هذا، لا يمكن أن يكون لديك حديقة. أنت محاصر بسكة الحديد والكراجات. على الأقل كنت أطلّ على النهرِ والهضاب، وأستطيع رؤية حدائق الآخرين. كان ثمة منزل في شارع «الشمال الجديد»، محاطاً بحديقة كبيرة جميلة. في

الليل، حين لا يكون هناك أحدٌ حولي، أقفُ على الرّصيف، وأدخلُ رأسي عبر السياج، لأسترق النظر إلى أحواض الورد الفصلية. كانوا يبدّلون التصميمَ مرّة كلّ ثلاثة أشهر. تمرّ من هناك وتشمّ روائحَ اللّيلك والخلنج والنرجس والياسمين، وفقاً لفصول السنة.

استيقظتُ باكراً في الصباح، اغتسلتُ وبدّلتُ ثيابي، وتناولتُ فطوراً جماعياً مع الرّاهبات، وخرجتُ في نزهة طويلة، باتجاه الوادي، صعوداً إلى الجبل. رفيقاي هما التعويذة المتدلّية من عنقي وناي القصب. كنتُ أراقبُ البحر وهو يستيقظ من نومه حين تلامسه أشعة الصّباح، فيتبدّل لونه من رمادي إلى مرجاني، إلى ذهبي، ثم فيروزي، مثل قلادة جدّتي التي لم تكن سوى سلسلة من الخرز المعشّق بالفضّة. الشمسُ تصارعُ ظلامَ البحر. والشّمسُ تفوز بالنهار، مالئةً الهواءَ بالضوء. البحرُ الأزرقُ المظلم، يتحوّلُ، منهكاً، إلى أخضر طحلبي عند الحوافّ. كان ذلك هو وقتُ الانضمام إلى الرّاهبات في البستان. أمشي إليهنّ، وأنا أعزفُ ترنيمتهنّ الفرنسية على الناي. كنّ ينشدن معاً، «آه! يا مخلّصي! آه! يا حبيبي!» طويتُ كمّي قميصي وذيلَي بنطلوني، وخلعت حذائي، وبدأتُ أعملُ في المزرعة، حافيةً. «انظروا إليها»، قالت فرانسوا، «إنّها تقلعُ العشبَ مثل عاصفة».

كانت السماءُ صافيةً، مع مزقٍ قليلة من غيوم تمرّ. خطفتُ حقيبةَ يدي، وأسرعت إلى خارج المنزل، صافقةً البابَ خلفي.

كنتُ أريدُ لليز أن تعرفَ أنّني تركتُ قصر البجع. صديقتي غوين، التي تنتظرني عادة أيام الآحاد، تعيشُ في المنزل رقم ثماني عشر. كان الباب يحمل لوحة نحاسية مكتوب عليها، «ديسندو ديسيموس» أهداها زملاء غوين إليها في مناسبة تقاعدها. وقد شرحت أن العبارة لاتينية، وتعني «ندرّس فنتعلّم».

عندما انتقلتُ إلى منزل إليزابيث، كنت قد اعتدتُ المشي بمحاذاة النهر كلّ يوم أحد. مرةً كنتُ أعبرُ الشارع، فرأيتُ امرأة عجوزاً، تنحني لتلتقطَ عصاها، فالتقطتها نيابة عنها، وأعطيتُها إياها. «شكراً لكِ»، قالت، وعدّلت شعرها المصفّف.

«هذا لا شيء»، قلتُ، وابتسمتُ.

«هل تعيشينَ بالقرب من هنا؟» سألتْ.

«نعم، الرقم الخامس عشر»، قلتُ.

«هل تمشين إلى النهر؟»

«نعم»، قلتُ.

«هل تمانعين إذا رافقتكِ؟» قالت وابتسمت.

في تلك الظهيرة، لم نتوقّف عن الكلام. تحدّثنا عن لون قوس قزح المنحني فوق النهر، وعن كلب غوين العجوز والمريض، الذي كان لا بدّ من التخلّص منه، وعن ربّ عملي، ماكس، وأصدقائي الغائبين.

حالما طرقتُ بابها، سمعتُ وقعَ قدميها، وصرير السلسلة والمفتاح.

«صباح الخير، يا حلوة»، قلتُ، وقبّلتُ غوين على خدّها.

ابتسمت، ودفعت نظّارتيها إلى أعلى أنفها، وعانقتني. «ادخلي، يا سلمى. أتيتِ في موعد الشاي والبسكويت».

جلستُ خلف طاولة المطبخ، ورحت أراقب غوين، بوزنها الزائد ومئزرها، وهي تعدّ الشاي. كانت مديرة مدرسة في ليدز، التي تصفها بالمدينة البشعة، الجميلة، المتناقضة، الصناعية، لكنّها قرّرت التقاعد في ديفون. اشترت هذا المنزل المتواضع، ووضعت جميع أمتعتها في عربة شحن مستأجرة، وقادتها عبر الطريق السريع.

«غوين، لماذا لا تجلسين؟ أنا أعدّ الشاي».

«كلاّ. سأصبحُ اتكالية، وهذا ما لا أريده»، قالت بنبرتها الويلزية الموسيقيّة.

تعبة ومحمرة، وضعت الصينية على طاولة المطبخ. حين مسحت نظارتها بطرف مئزرها وتنهّدت، أدركتُ أني أستطيع البدء بالحديث الآن. «جلبت لكِ بعضاً من مربّى الفريز الفرنسي، وكتاباً لجورج إليوت».

«أوه! هذا لطفٌ كبيرٌ منكِ. ولكن يجب أن لا تجلبي لي الهدايا. وراتبكِ قليل».

«انظري، المربىّ هدية، وليس الكتاب. طلبتِ مني أن أشتري لكِ (دانيال ديروندا)، هل تتذكّرين؟»

ابتسمَت، وأخرَجَت ورقة من فئة الخمسة جنيهات من جيب مئزرها. كان المطبخُ بارداً ومعتماً، له نافذة واحدة تطلّ على سكّة

الحديد. جلسنا هناك نحتسي الشاي، ونأكل بسكويت جوز الهند. كان ابنها مايكل دائماً مدار حديثنا يوم الأحد. مايكل فعل هذا، ومايكل فعل ذاك.

«أرسل إليّ بطاقة بريدية، انظري. برج إيفل، ولكن رأساً على عقب. لديه صديقة جديدة»، قالت، معدّلةً بيدها المرتعشة شعرَها الأشيب القصير.

«حقّاً؟ هل هي مناسبة؟»

«لا بدّ أنّها كذلك. لقد ذهبا معاً إلى باريس».

ذهب إلى فرنسا، بيد أنّ المجيء إلى إكستر قد يكون مكلفاً. ولكي أمنعَ نفسي من قول شيء يمكن أن يزعجَها، قلتُ من دون تفكير: «لا بدّ أنّه سعيد».

«نعم، سلمى، لا بدّ أنه كذلك». قالت، ودست خصلات من شعرها الأشيب القصير خلف أذنيها.

حبيبتي ليلى،

حين أصبحتُ حاملاً بكِ، حبيبتي ليلى، توسّلت أمّي إليّ أن أغادرَ القرية قبل أن يكتشف أخي أمري. «سوف يطلقُ عليكِ النارَ بين عينيكِ ببندقية إنكليزية. يجب أن تذهبي، يا ابنتي، قبل أن تُقتَلي». مسحت وجهي بأصابعها الخشنة، وهمَسَتْ بآيات من القرآن، وقبّلتني ودفعتني بعيداً عنها. الآنسة نايلة أمسكت يدي، وسحبتني بعيداً. يداً بيد مشينا إلى مركز البوليس.

أعيشُ الآن في بريطانيا العظمى. لدي عمل، وسيّارة وزوج

ومنزل كبير. أنا غنيّة، غنيّة جدّاً، وأستطيع أن أدفعَ أقساط تعليمكِ الجامعي. ذاتَ يومٍ ستشاهدينني قبالتك. أنا متأكّدة أن قلبي سيتعرّفُ عليكِ، وسوف أصطفيكِ حتى لو كنتِ بين مئات الأطفال.

مع حبي الأزلي

نعملُ في البستان ساعات طويلة، حتى نسمع صوت صافرة رئيسة الدير، وهي تدعونا إلى الغداء. نجتمع وسط البستان، حول طاولة خشبية متينة، غنيّة بالأطعمة. أغسلُ يدَيّ من الوحل، ثم أحمل صحناً وأنضمّ إلى الصفّ. نتناول خبزاً طازجاً، وبندورة جبلية، وفلفلاً أخضر، وجبنَ ماعز، وصعتراً وزيتَ زيتون. آكلُ بسرعة، وأدفعُ شرائح البندورة في فمي. كانت الراهبات يضحكن عليّ. «لا أحد يطاردكِ، وفي يده عصا. تناولي طعامكِ على مهل»، قالت فرانسوا.

«شوي، شوي؟» تظاهرتُ أنني لا أفهمُ عربيتّها.

وكانت تبتسم.

«هل قلتِ، في الجنوب الشرقي من هنا؟»

«نعم». ثم بدأت تجمع الصحون الفارغة وتضعها على الطاولة.

حين بدأت طيور النورس تحلّق فوق رؤسنا، عرفنا أن الوقت قد حان للعودة إلى العمل، وترك بقايا الطعام لها.

«هلاّ تصحبينني إلى غرفة الجلوس؟» سألت غوين بصوت خافت. أمسكتُ يدَها، وساعدتُ قدميها المتيبّستين بسبب التهاب المفاصل، على بلوغ العتبة بين المطبخ وغرفة الجلوس. عندما استراحت أخيراً على كرسيها، أعطيتها الكتاب الذي سيشغلها بضعة أيام. «انظري ما الذي نسجتُهُ لابنتك حبيبتِكِ ليلى». فردت سترةً بيضاء صغيرة للأطفال، على ركبتيها. نظرتُ مذهولةً إلى النَسجِ الماهرِ للأزهار والنجوم. لا بدّ أنّها أنفقت شهوراً وهي تحوكها بإبرة واحدة. «إنها في السادسة عشرة الآن. ولكن، بالطبع، هذه حماقة منّي!»

ممسكةً بيدِها الهرمة، بحثتُ عن الإلفة في عينَيها الزرقاوين، وشفتَيها المرتعشتين، ورائحة الخزامى. وإذ مرّرتُ أصابعي على شرايين يدها الخضراء المنتفخة، اطمأنّ قلبي، واستطعتُ أن أحبسَ دموعي.

«كان يا ما كان، في قديم الزمان، فتاة صغيرة اسمها جُبيّنة. سمّوها بهذا الاسم لأنها كانت بيضاء مثل جبن الماعز. شعرها أسود فاحم، وخداها أحمران كرأسَي بندورة، وعيناها واسعتان. اعتادت اللعب في الباحة مع الدجاج والماعز والجِمال. كان الجميع يحبّون جُبيّنة. ذات يوم، وبينما كانت تطارد كلباً، اختطفها عملاق شرير ووضعها على ظهره، وأخذها سجينة إلى قلعته النائية. أحدُ جمالها تبعها، ووقف في الوادي، قرب القلعة العالية، وراح ينشدُ:

«يا جميلُكِ، يا جُبيّنة،

حين حينك، حين رنك،

وحين قطع بالحبال».

«الجمَلُ صرخَ ونادى. بكت جُبيّنة، ثمّ بكت، حتى تسببت دموعُها بفيضان الوادي المحيط بالقلعة». ثم فجأةً توقّفت أمّي عن الكلام.

«أمّي، ماذا حدث بعد ذلك». تنهّدتُ.

«قد يخلّصها جَمَلها»، قالت، ثم حضنتني، وقبّلتني، وغطّتني بحرامٍ من جلد الخروف.

بعد أن أنهيتُ غسل الأطباق، ورتبتُ المطبخ، قبّلتُ غوين على خدّها، على جاري العادة، وغادرتُ. مشيتُ في محاذاة الشارع، على الطريق الرئيسة، متجاهلةً طريق المشاة الفرعية. ماذا لو دهستني سيارة الآن؟ أسيذرفُ عليّ أحدٌ، في أيّ مكان، دمعةً واحدة؟ كانت يداي ترتجفان حين ملأتُ استمارة التبرّع بالأعضاء. أهب كلّ عضوٍ من جسدي لأيّ شخصٍ يحتاج إليه بعد موتي. اتّصل بـ . . . عائلتي لا تعرفُ شيئاً عن مكان وجودي، وأنا لا أعرفُ شيئاً عن مكان وجود ابنتي. تفحّصتُ قائمةَ الأسماء التي أعرفها في هذا البلد: بارفين، الآنسة آشر، ليز، القسّ ماهوني، رئيس عملي ماكس. «في حال الطوارئ، اتّصل بغوين كليتون، شارع كينغ إدوارد، الرقم ١٨»، كتبتُ. إذا متّ، فلن تستطيع

غوين أن تتدبر الأمر، وستسأل ابنها مايكل مساعدتها، ومن ثم يمكن موتي أن يقرّب أحدهما إلى الآخر أكثر فأكثر.

الآنسة آشر الإنكليزية، وهي إحدى راهبات الدير، جلست على حافة السرير، لتقنعني بلغتها العربية المكسّرة، هي التي تتكلّم بفم مقفل، لماذا يجب عليّ أن أذهبَ معها إلى بريطانيا، وأترك دير الراهبات في لبنان. كنتُ سعيدةً هناك.

جلبن لي آلة خياطة، لكنني كنتُ أمضي الصباح عاملةً في البستان، وفي فترة ما بعد الظهر، أخيط الوسائد الصغيرة، والملابس الداخلية، والمعاطف، والأحزمة، والياقات وأغطية المصابيح. كنتُ أنسخُ كلّ شيءٍ يجلبنه لي من فرنسا. أخيطُ وأخيطُ، حتى يحلّ الغروب، ثمّ أحملُ ناي القصب وأذهبُ إلى البقعة المفضّلة لدي على قمّة الجبل، وأعزفُ ألحاناً فرحة، وأراقب الشمسَ وهي تغرقُ في المياه، وأصغي إلى أجراسِ البقرات، وثغاء الأغنام. كانت مصابيح الكاز في الوادي تُنارُ، الواحدَ تلو الآخر. إنّها تذكّرني بقريتي، الحمى، وبأمّي ومعلّمتي نايلة. لا بدّ أن جُبيّنة ستسبحُ خارج القلعة إلى برّ الأمان، ويحملُها جملُها الصبور إلى وطنِها.

نظرتُ إلى الوعاء الخشبي المملوء بالعنب، الموضوع بثبات على عتبة النافذة، وقلتُ للسيدة الإنكليزية، «لا، لن أذهب إلى أيّ مكان، يا آنسة، أنا سعيدة هنا». رئيسة الدير، أريان، حاولت أن تحدّثني عن يسوع، الذي مات لينقذ البشرية جمعاء. طلبتُ منها أن لا تحدّثني عن الدين. توقّفتْ عن الكلام، لكنها ظلّت

لطيفة ومتفهّمة. لقد جرّدوني من كلّ شيء: كرامتي وقلبي ولحمي ودمي. كان وجه أمي يطفحُ بالحبّ حين روت لي قصّة جُبيّنة. ظلّت تقولُ لي إنني أفضل الجميع، حتى صدّقتها، ثمّ سقطتُ، وسقطتُ. حتىّ الجَمَل كان يعرفُ معنى الصداقة وأواصر المحبّة.

*

كلّما ذهبتُ إلى البلدة، عبر شارع «الشمّال الجديد»، مررت بمنزل عتيق أبيض كبير بالقرب من نادي التنس، وهو المفضّل لدي، بسبب حديقته الواسعة. كنتُ أسترق النظر عبر السياج إلى أصص الورود الأنيقة. شجرة تفاح كبيرة تنتصب في المنتصف، جذعها مكسو باللبلاب المعرّش. الستائر البيض المخرّمة للشبابيك العتيقة تتراقص في النسيم. فجأةً أدركتُ أن الظلّ الأسود بالقرب من البوابة هو كلب روتويلر، فقدّمتُ إليه رأسي. وبدأ يقفزُ وينبحُ فأغمضتُ عيني متأمّلةً أن ينهشَ لحمي قطعةً قطعةً، وينزعَ عينَيّ بمخالبه السوداء، ويشلّني بعضّةٍ من فكّيه المقصّين. «توقّف، يا ريدر!» صرخت امرأةٌ من نافذة الطابق العلوي، وحرمتني من فرصة إنهاء كلّ شيء.

ذات صباحٍ، أتت إليّ فرانسوا، مرهقة، وعلى وجهها ترتسم أمارات الجدّ. لا يزال الوقتُ مبكراً، وكنتُ في فراشي، أحاول أن أتبيّن هل الصرخةُ التي سمعتُها هي لنورس عابرٍ أم لغراب. إذا كان غراباً فإن فراقاً ما على وشكِ أن يحدث.

«يجب أن أتحدّث إليكِ، يا سلمى».

نهضتُ، ثم قلتُ لها مبتسمةً صباح الخير.

كانت تحدّق في قدميها حين قالت، «هذا الصباح بعثت خيريّة إليّ برسالة تقول إن عائلتكِ علمت بأنكِ هربتِ من السجن. وشقيقك محمود يبحث عنكِ».

محمود؟ حين كنتُ صغيرةً، كان يشتري لي حلويات راحة الحلقوم، ولكن بعد بضع سنوات، بدأ يشدُّ شعري بأصابِعِه البنّية الرقيقة. كانت أمّي تراقبه والغمّ يعتصر قلبها. وقفتُ على قدمَي.

«الأخت آشر، وهي عضوٌ معنا، تريدكِ أن تذهبي معها إلى بريطانيا».

دثّرت ذراعي بالغطاء الأبيض.

«ستكونين أكثر أماناً هناك».

أردتُ أن أغطّي رأسي باللّحاف، وأرقد ساكنةً في الظلام.

فركت عينها اليسرى وقالت: «لا يمكننا أن نخاطر أبداً. أتى أحد رجال الشرطة إلى خيرية أخيراً وسألها عن أماكن وجود جميع الفتيات اللواتي هربناهن. يجب أن تذهبي مع الآنسة آشر إلى إنكلترا».

«هنغلاند؟ فين هنغلاند؟»

«إنّها بعيدة كثيراً». قالت فرانسوا، وفركت عينها اليسرى. إذا رفّت العين اليسرى فهذا يعني أن فراقاً سيحلّ بنا. وضعت سبّحتها الخشبية الطويلة حول عنقها، ثمّ شدّت الشَّرابة إلى الأسفل.

«لا، ما ودّي هنغلاند»، قلتُ وعانقتُها.

«أعلم أنكِ لا تريدين الذهاب، لكنكِ ستتعلّمين محبّتها، حبيبتي»، قالت.

بدا البناء الإسمنتي الشاحب للمكتبة العمومية في إكستر مثل ثكنة للجيش، بيد أنّ نوافذه الزجاجية كانت تسطع في ضوء الشمس الدافئ. حين فتحتُ البابَ، قابلني صمتٌ مكتومٌ مهذّب، فتنحنحتُ وقلتُ لأمينة المكتبة، المتوسّطة العمر، «أودّ أن أنضمّ إلى المكتبة»، غير أنّ مخارج نطقي للحروف الصوتية، وخصوصاً حرف (O)، جاءت جميعها خاطئة. خفتُ أن أُصابَ بالخذلان. بدأت المرأةُ تبحث عن استمارة. ثمة منشور يحذّر من مرض الإيدز، يقول: «النسوة المصابات: اتّصلن بنا . . .»، وكان ملصقاً على لوحة الإعلانات. انتظرتُ أمينة المكتبة، التي كانت تبحث في أدراجها عن عذرٍ يحرمُ عليّ العضوية. أنتِ أجنبية، ولا نملكُ رقم ضمانٍ وطني لك، لذا لا تستطيعين الدخول. «ولكنني لستُ حاملة أوراق موقّتة، ولا حاملة فيزا طارئة مثل الألبانيين، أنا مواطنة إنكليزية»، ردّدتُ مثل التعويذة، «أنا مواطنة إنكليزية». أدليتُ بقسم الولاء للملكة وذريّتها. مرتبكةً ومحمرّةَ الوجه، أخرجت لي استمارةً كي أملأها. كنتُ ممتنةً جداً لمنحي العضوية، ولمعاملتي كأنني واحدةٌ منهن، حتى أنّني أسقطتُ القلمَ والاستمارةَ على حذائها اللاّمع الأسود.

كنتُ ملفوفةً بحرام، وجالسةً على الأرض، حين قالت الآنسة آشر، الراهبة الإنكليزية: «بدّلتُ اسمَكِ، وصار سالي آشر، وأمّنتُ

لكِ وثائق موقّتة». أخرجتُ رأسي من بين الأغطية، ورأيتُ امرأةً متوسطة العمر، بنظّارتين فضّيتين، وتنتعل صندلاً جلدياً، وترتدي قميصاً رمادياً، مزرّراً حتى الأعلى. كانت ملامح وجهها تشبه تلك المرتسمة على محيا يسوع، المصلوب على جدار القاعة الكبيرة. «محام في بيروت أنجزَ أوراقَ التبنّي. إنّ قسم منح تأشيرات الدخول لم تعجبه فكرة تبنّي شخص في العشرين من العمر. وكان لي حديث طويل مع السّفير، وهو أصولي علماني متطرف، وقد أخبرته أنكِ فقدتِ جميعَ أفراد أسرتكِ، في جنوب لبنان، وجميع وثائقكِ، وأنكِ تعانين تشوّشاً سيكولوجياً مزمناً. يسوع سيعتني بها، وسوف نؤمّن لها عائلة»، رسمتْ شارةَ الصليب، ثم أضافت، «سأريها دربَ الرب، وأعلّمها الإنكليزية».

كانت فرانسوا تترجم ما تقوله زميلتُها الراهبة الإنكليزية. وكنتُ أصغي إليها صامتةً، ممسكةً ناي القصب بقوّة.

«هذا هو جوازَ سفركِ اللبناني الموقّت، ووثائق سفركِ. الساعة الثالثة نسافر بالقارب إلى قبرص».

نظرتُ إلى قميص النوم الأبيض، بجيوبه الوردية الشكل، الذي كنتُ أخيطه لفرانسوا، والوعاء الكبير للعنب، وقلت مردّدة كالببغاء: «ولكنّني سعيدة هنا».

فركت فرانسوا عينها اليسرى، وضغطت على يدي بقوة، ثم قالت: «أيّتها الصغيرة، عليكِ أن تفهمي بأن حياتك في خطر. يجب أن تغادري». دسّت يدها في جيب ثوبها البنّي وأخرجت مزقةً من سماءٍ زرقاء، «هذه القلادة الفيروزية تنتمي إلى ماضيّ البعيد في شوارع باريس الخلفية. أريدُكِ أن تأخذيها».

بأصابعي تلمّستُ الحبّات الزرق الباردة الموضوعة في قلادة فضّية، ورحتُ أتخيّلُ مدينةَ باريس. «شكراً جزيلاً لكِ»، قلتُ، ودسستُ القلادةَ في صرّتي.

جلستُ على أحد الكراسي، ووضعتُ كتاباً ضخماً مصوّراً على الطاولة. المكتبة هادئة في ساعات ما قبل الغداء. سيّدة عجوز يونانية، ترتدي ثوباً أسودَ فاحماً، وتعصب رأسها بشال أسود، كانت تكنسُ باحةَ كوخها الأبيض القديم. عنوان الكتاب هو (اليونان غير المرئي). ذات يوم، سوف أذهبُ إلى هناك، وأعزف للقطيع على الناي، وأطاردُ الدجاج، وأركض خلف الكلب، وأمتطي صهوة الحصان. جدرانُ الرواق المغسولة بالأبيض تُبقي حرارةَ الشّمس بعيداً. أغلقتُ الكتاب الأسود الكبير، ونظرتُ إلى رؤوس القرّاء المطأطئة في المكتبة. كانوا يتبادلون الابتسامات والتحيّات، لكنهم لا يقولون ما كان أهل الحمى يقولونه للغرباء: «والله يجب أن تتناول الغداءَ معنا. ولن نقبل منك كلمة لا».

أقامت رئيسةُ الدّير، أريان، صلاةً من أجلي. عانقتهنّ طويلاً، وقبّلتُ فرانسوا التي كانت دموعها تنهمر على خدّيها، ومشيتُ مع الآنسة آشر، عبر التل. أخبروني أنّ محموداً، شقيقي، سيكون هنا في أيّة لحظة، خنجره موثق بحزامه، وبندقيته محشوّة. قيل لي من الأفضل أن أسرع الخطى. كنتُ أسمعُ ترنيماتهنّ الفرنسية وأرى أضواء شموعهنّ المرتجفة، وأنا أقترب من شاطئ

البحر. كانت طيورُ النورس تحلّق عالياً فوقنا مثل غيوم بيضاء. سيارة تاكسي تنتظرنا، ولكن، قبل أن أجلس في مقعدي، نظرتُ إلى الأعلى، ولوّحتُ للدّير ونوافذه الزجاجية الملوّنة ويسوعه المصلوب.

شدت الآنسة آشر كمي. «هيّا بنا».

«هيّا بنا»، ردّدتُ. تلك كانت أولى كلماتي الإنكليزية.

درّاقٌ وأفاعٍ

كان نُزُل باكبكرز هادئاً تماماً. لقد خَلَدَ الزبائن للنّوم أخيراً. وفيما كنتُ أراقبُ الانعكاسَ المرتعشَ لأضواءِ الشّارع البرتقالية على السّتائر القذرة، سمعتُ التنهّدات المكتومة لبارفين، تأتي من سريرها المعدني العسكري سابقاً. لا بدّ أنها تبكي. شغّلتُ الغلاّية، وأعددتُ فنجاناً من الشاي. «شاي، يا آنسة».

نظَرَت إليّ بعينيها الحمراوين المتورّمتين، وقالت: «لا أريد شايَكِ».

أرجعتُ فنجان الشاي الساخن إلى الخلف.

بدأت تبكي وتردّد: «آسفة. نعم. شكراً. آسفة».

«اشربي»، قلتُ.

حملت الفنجان وشربت قليلاً. «حلو جداً».

«أربع ملاعق فقط»، قلتُ.

بعد أن شربت الشاي حتى آخر قطرة، نهضت وسألت: «من أين أنتِ؟»

«عبر البحر»،

«هل أنتِ عربية؟»

«نعم، أنا بدوية».

«واو. عربية بدوية! اللعنة!»

«أرجوك من غير لعنة!». قلتُ.

ابتسمت.

وضعت الفنجان جانباً، وشدّت جذعَها، ووضعت الوسائد خلف رأسِها، وتنهّدت. قالت إنّها لا تعرفُ كيف انتهى بها المطاف في هذه النفاية. والدها أراد منها أن تتزوّج من ابن حرام جاهل من الباكستان. حاولت أن تثنيه عن ذلك، وتوسّلت إلى أمّها، ولكن لا، إمّا أن تذهب قُدُماً في ذلك، وإمّا سيتبرأ منها في الصحف. «بارفين ليست ابنتي». فرّت هاربة، وانتهى بها المطاف في ملجأ تديره نسوة باكستانيات لم يكن بعيداً عن مدينة ليستر، حيث كانت تعيشُ، لكن النسوة نصحنها بالتوجّه جنوباً، لأنّ ثمة فتيات تعرّضن للاختطاف.

«ماذا تعني كلمة اختطاف؟» سألت.

«يأخذونهنّ عنوةً. يدفعون بهن إلى داخل سيارة ويهربون»، قالت.

زممتُ شفتَيّ البدويتين، في إشارة إلى عدم التصديق. الكلمات الإنكليزية الوحيدة التي خطرت لي في تلك اللحظة هي «مشكلةُ قلبكِ».

وبرغم أنّ عينيها العسليتين كانتا تفيضان دموعاً، ابتسمت وسألت، «مشكلة قلبي؟»

«لا. لا». قلتُ.

ضغطت على رأسها بكلتا يدَيها، وبدأت تبكي.

«ما اسمُكِ؟» سألتُ.

«اسمي البائس هو بارفين»، قالت، ومسحت دموعها براحة يدِها اليسرى.

«أنا لي أسماء كثيرة. سلمى، وسال، وسالي»، قلتُ.

راحت بارفين تبكي من جديد. جلستُ بالقرب منها على السرير، وشبكتُ يديّ بين ركبتَيّ. كانت نحيلة وقصيرة، شعرها أسود أملس ولمّاع، وعيناها عسليّتان واسعتان، أخفتهما تحت رموشها المعقوفة. أنفها صغير، وشفتاها مكتنزتان، ظلّتا مفتوحتين قليلاً، تظهران سنّاً أمامية مكسورة. كانت ترتدي فستاناً هندياً، أبيض اللّون، عزّزَ دكنةَ بشرتِها، وهيئتَها النحيلة.

«بارفين، لا تبكي، من فضلك. دموعكِ ذهبٌ»، هذا ما كانت تقوله لي أمّي كلّما أجهشتُ بالبكاء.

تجاهلتني.

نهضتُ وجلستُ على السّرير المعدني. ما الذي أتى بي إلى هنا؟ ما الذي أتى بها إلى هنا؟ من سيحميها؟

عند الغروب، بدا الميناءُ الصغيرُ مسكوناً بالأرواح، مع قوارب مغطاة بشبكات الصيد، وخرق من النسيج الوسخ. صيّاد سمك لبناني عجوز بصق في المياه، ثم بدأ يحلف الأيمان حين رآنا نقترب. كنا متأخّرتين. رميتُ صرتي على متن القارب، ثم خطوت جانباً، استعداداً للدخول. حين ضغطتُ بقدمي على قعرِ

القارب، بدأ يهتزّ يمنةً ويسرةً. أمسكتُ بيد الآنسة آشر. ما إن جلسنا معاً فوق مقعد خشبي طويل، داخل مقصورة صغيرة، حتى مسحَ صيّادُ السّمك العجوز يديه ببنطلونه الأسود العريض، وشدّ سلكاً. بدأ المحرّكُ بالهدير، وفجأة بدأ القارب يهتزّ كلّه. «يا لله!» صرخَ وتحرّكَ القارب بسرعة كبيرة على المياه. أمسكتُ بيد الآنسة آشر لأحافظَ على توازني. حين بات بمقدوري النظر إلى الخلف عبر الباب الصغير، لم أستطعْ أن أرى شبابيك مضاءة، مع أنّ الظلام قد حلّ، وبدا الديرُ في البعيد مثل صقرٍ أسود كبير، بجناحين مبسوطين، ومنقار مفتوح، يحطّ على قمة الجبل.

تنّورتي، وثيابي الدّاخلية، ومحارمي الوسخة، مبعثرة في أرض غرفة النوم في إكستر. ما اسمُ عائلة جيم؟ كلّ ذاك التخبّط في الظلام من أجل أن أنسى من أنا بضع دقائق. كان السريرُ مبعثراً، وغطاءُ الفراش مبقّعاً. بدت الغرفة مكتظّة، تفوح منها رائحة العرق والمريمية. فتحتُ النافذة على مصراعيها، وجلستُ على السّرير. بدت الحقيبةُ الجلديةُ الصغيرة التي تضمّ رسالةَ أمّي، المضمومة مع خصلة شعرها، مثل حجاب معلّقة على طرف المرآة الهندية. أُزيلَت حماية قبيلتي لي، ودمي أُريقَ، وذراعاي طفحتا بالبثور الحمراء. رجفةٌ سرت في عروقي، وكأنّ برودةً مفاجئةً اجتاحتني. نسيمٌ مسائي باردٌ، هبّ عبر النافذة. ارتديتُ جاكيت صوف، وبدأتُ أنزعُ الأغطية عن الفراش والوسائد. وضعتُ جميع الثياب والشراشف الوسخة في الغسّالة، داخل الحمّام، ووضعت المؤشر على الدرجة تسعين، للحصول على بياضٍ عالٍ. جلستُ

على غطاء المرحاض، ورحتُ أتفرّجُ على الثياب وهي تدور وتترامى في رغوة الصابون، مرةً بعد أخرى. أخيراً، هزّ صوتُ الأزيز ودوران الغسّالة، وهي تجفف الملابس، هزّ الأرض الخشبية القديمة. تمنّيتُ لو أضع نفسي بين هذا الغسيل، لأخرج من الجهة الأخرى «ناصعةً نظيفة»، من دون بقع جافّة أو أفعال سوداء. من دون موافقة رجال القبيلة، من دون وثائق، من دون عقد زواج، نمتُ مع غريب. يجب أن يقطّعوني أشلاء، ويتركوا كل نثرة في قمّة تلّ مختلفة، لتنقضّ عليها الطيورُ الجارحةُ. «سلمى»، نادتني ليز من أسفل الدرج، «أريدُ استخدام الحمّام. مضى عليكِ أكثر من ساعة ونصف الساعة في الداخل».

الصوتُ الإيقاعي لمهابيش القهوة وهي تطحن حبّات البن المحمّصة في الحمى كانت إشارة مبكّرة لبداية موسم الأعراس. إنه دور عائشة هذه السنة. مزارع أسود من الوادي كان قد أتى لأخذها على متن عربته. مهرُها قطعةُ أرضٍ خصبة على حافة النهر. لم أكن متأكّدة أنني سأذهب إلى العرس، بيد أن أمّي قالت إن الألسنة العتيقة، إنْ لم أذهب، ستبدأ بنسج قصَصِها. يوم الجمعة، ذهبتُ إلى خيمة النساء، وحييتُ الجميع، ثم جلستُ أرضاً مع باقي نساء القرية. كان الجوّ حارّاً جدّاً، وبدأ العرق يتصبّب من أنفي. كنتُ شابّة، وحبلى، وغير متزوّجة. ملأ سباقُ الخيول جوّ القرية بسُحب الغبار، وصيحات الانتصار أو الهزيمة. ذهبت العروس عائشة إلى الخيمة برفقة زوجِها. شبكَ الرجالُ أياديهم، وبدأوا يتمايلون ويغنّون بتناغم تام. كانوا يردّدون «دحيّه، دحيّه ، دحيّه »، حتى

بُحّت أصواتهم، شهيقاً وزفيراً. فتىً يقدّم إليهم منديلاً أبيض، فيتوقّفون عن الغناء والرقص، ويبدأون بإطلاق النار في الهواء، محتفلين بشرف عائشة، وعفّتها وحظها السعيد. فجأةً، نسمع في غمرة صيحات الفرح والزغاريد، صراخَ أمّ صبحة تقول: «صبحة أُصِيبت. آه، يا خيي! أطلق النار على صبحة!». كانت صبحة زميلتي في المدرسة. بضع همسات في الظلام تحوّلت إلى شائعات، ومن ثمّ إلى رصاصة في الرأس. بلعتُ لعابي بصعوبة. امرأةٌ عجوز، متلفّعة بالسّواد، تجلس بالقرب مني، وتمصّ غليونها، هَمَست: «مع القلعة! خلاصٌ حَسَنٌ! بدمِنا غسلَنا شرفَنا».

استمعي إلى خبَب الخيول، وصليلِ الخناجر الممتشقة من أغمادها، للبومِ، بوجهه المسطّح، ينعقُ في الظلام، للخفافيش تخبّط بأجنحتها، لوقع خطىً خفيفة، للعباءةِ تخفقُ في الرّيح، لحفيف خنجرِه يجرحُ الهواء. استمعي إلى ذراعهِ، تمسكُ برقبتكِ، وتحرفُها نحو الوراء، لخنجرِه يغورُ في اللحمِ، ويخترق العظام ليصيبَ القلب. استمعي إلى دمَكِ الأحمر الحارّ، يفورُ، ويسقط، قطرةً، قطرة، على الرّمل. استمعي إلى جسدكِ، يتلوّى على الأرض. زغرودةٌ. صرخةٌ. تمزيقُ مدارق وعباءاتٍ سود. لطمٌ متناغمٌ على الصدور. وشهقةٌ أخيرة.

جلست الآنسة آشر تحت مصباح الكاز، تقرأ بصوت عالٍ في إنجيلها، وباللغة الإنكليزية. عليّ، صيّاد السمك، شرَعَ يغنيّ بالعربية عن أرض نائية ونجومٍ وحيدة.

ودينا بلدنا ياريس!

تنشم ترابا ياريس!

صوته المبحوح يعلو وينخفض كالمدّ والجزر مع الأمواج. جلستُ ملتصقةً بالخشب البارد، أبحثُ عبر النافذة المستديرة عن أي إشارة إلى أننا وصلنا إلى قبرص. الضباب والموج كشفا لي أنني أبتعد أكثر فأكثر عن وطني وعن أمّي وقبل كلّ شيء عنها. شالُ أمّي الأسود يحيط بكتفيّ، لكنّني ما زلت أشعرُ بالبرودة. في كلّ مرّة كان شقيقي محمود يضربني كانت أمّي تمسحُ رأسي لتهدّئ من روعي. «لا بأس يا صغيرتي، لا بأس يا أميرتي». كانت تحلّ ضفيرتي، وتفركُ رأسي بزيت الزيتون، وتمرّر أصابعَها خلال شعري، وتمسح وجهي بأصابعها الخشنة، ثمّ تداعبُ أذني، وتدلك يدي. «أنتِ غضة وفتية، يا سلمى. أريدُ أن أعضّكِ».

وإذ أرتق الحواشي، وأثني الياقات، وأكوي البزّات الزرقاء الغامقة في محل الخيّاط (لورد تيلرز) تحت ناظرَي رئيس عملي، ماكس، أحلمُ بالبياض. جالسةً في سحابة من البخار والنشا، كنتُ أحلمُ بالسّعادة. أتمنى أن أجلسَ في مقهى في متجر كبير، أدهنُ الكعكَ المدوّرَ بالزبدة، وأحتسي شاياً فاتراً، وأنظرُ إلى الأحذية والملابس الملوّنة المعروضة، كأنّني واحدة من أهلِ هذه البلاد. وإذ أكوي، كنتُ أقرأُ الماركات على القمصان والملابس: دريم ويكئند: عطلة نهاية الأسبوع التي تحلم بها، إيفنينغ لايتس: أضواء المساء، كنتري بريز: نسيم الريف. جالسةً في سحابة من بخار، أحلمُ بقضاء عطلة نهاية الأسبوع في مزارع ريفية، واحتساء

الشاي مع الملكة، والبياض. ماذا لو أنّني أستيقظُ ذات صباح امرأة شقراءِ رشيقة، مثل اللّواتي يعرضن سيقانهن في جريدة (صنداي سبورت)، وهي الصحيفة الوحيدة التي يقرأها صادق، صاحب متجر الكحول. ماذا لو أنّني أصيرُ بيضاء كالحليب، كطيورِ النّورس، كالغيوم المندفعة. في لمحة، يختفي ماضيّ الآثم، ويفصدُ جرّاحٌ جزءاً من عقلي، وحلمتَيّ البشعتين. سأصيرُ بيضاء مثل تريسي التي كانت تعملُ وتتكلّمُ من دون انقطاع، وهي تحملُ الإبر والدبابيس في فمها. لا شَعر أسود، غير مرغوب فيه، بعد الآن ولا «قلتِ، ما هو اسمكِ؟»

لم تستغرق المسافة وقتاً طويلاً من دير العليّة إلى قبرص. كان الظلامُ قد حلّ حين وصلنا، وبدا الشاطئ مهجوراً، باستثناء بضعة رجال يصرخون باليونانية. ربط علي، صيّاد السمك، الذي غنّى أغاني حزينة، طوال الطريق، القارب إلى الميناء. كانت الراهبة فرانسوا قد أخبرتني بأن قبرص جزيرة جميلة، وطعامها لذيذ، وأهلها سعداء، وهم يحبّون العزفَ على البوزوكي، واحتساء نبيذ الأوزي. «نايُكِ والبوزوكي متشابهان، وكلاهما يصدران ألحاناً حزينة». أحكمتُ ربطةَ وشاحي، وقفزتُ من القارب، سعيدةً بالوقوف على أرض صلبة ثانيةً. وبرغم النسيم البارد، كان الرّملُ دافئاً. قابلتنا امرأةٌ تشبهُ الآنسة آشر. خلعتُ حذائي ومشيتُ خلفهما حافيةً. «أسلوب بدوي»، قالت الآنسة آشر للمرأة. مشينا على الشاطئ حتى وصلنا إلى بناء متهدّم. «شقق لعطل الشّمس»، قالت المرأة التي تشبه الآنسة آشر. مجمّع من

الشقق المتشابهة، بُنيت حول باحة، تنهض في منتصفها عرائش العنب. مثل الحمى، كانت تفوح من الهواء رائحة الوعود التي نكثت والعسل المسفوح والقلوب المحطّمة. كنتُ على وشك الانفجار بالدموع حين سمعت الصوت الناعس لصاحب المنزل يصيح: «خالو! هلو! هل كانت الرحلة ممتعة؟»

«نعم، شكراً»، أجابت الآنسة آشر بحدة. كانت تشعر بالتعب.

أُطفئت مصابيحُ الشارع خارج النزل الصغير، لكنني بقيتُ مستيقظة، أتفحّص البثور على ذراعيّ وساقَيّ. بارفين تتخبّط وتتقلّب. عبرتُ أرضية الغرفة وغطّيتها بالحرام الذي كان قد سقط أرضاً. الستائر مسدلة، بيد أن الصوت البعيد والمتناوب لحركة السير ظلّ يملأ الغرفة. سمعتُ إحداهنّ تصرخ في غرفة النوم المجاورة، وكأنها مصابة بتشنج عضلات، أو تعاني مخاض الولادة. الهواء يهبّ على الستارة وينفخها أكثر فأكثر. فجأة رأيت قدمين سمراوين تنتعلان صندلاً جلدياً أسفل الستارة. كان الدم يتدفّق على وركَيّ. تمسّكتُ بالوسادة وضغطتُ عليها بشدّة. حين كسر الحصانُ قائمته، وارتمى على الأرضِ يئنّ، أخرج والدي بندقيتّه وأطلق النارَ عليه. كان ذاك هو حصانه المفضّل، الحصان الذي ترعرع معه مذ كان صبياً صغيراً، الحصان الذي كان يقلّه إلى أقرب بلدة، مرّةً واحدةً في الشّهر. كان يحبّ الحصان، ومع ذلك أطلق النار عليه. نظرتُ باتجاه الطيف الأسود خلف الستارة وقلتُ: «يالا طُخّني وخلّصني! سيكون ذلك خلاصاً لي».

مالت بارفين برأسها ثم فركت عينيها وقالت: «مع من تتحدّثين؟»

«شخص ما في الغرفة يتعقّبني». قلتُ.

نهضت وبدأت تنظر تحت السّرير، وخلف الخزانة، وخارج الباب.

«خلف الستائر»، قلتُ.

أزاحت الستائر ولم تجد شيئاً، لا محمود، ولا صندله، ولا بندقيته. «لا بدّ أنه قفز من النافذة»، قلتُ.

«بحقّ السماء، كيف يمكنه أن ينسلّ من شقّ صغيرٍ لا يبلغُ عرضه خمسة إنشات؟ لا بدّ أن يكون بهلواناً أو قطّة»، قالت معنّفةً.

«ألا تستطيعين أن تري كم أنا مريضة؟» توسّلتُ، ثمّ بسطتُ أمامها ذراعي لترى البثور.

جلَستْ، وأزاحت غرّتها، وقالت: «سلمى، أنتِ لستِ مريضة».

«بل أنا كذلك». وبدأتُ أبكي.

مدّتْ يدها لتلمسنَي.

«ابتعدي، يمكن أن أصيبكِ بالعدوى»، قلتُ.

«الله هو الخالقُ وهو القاهرُ. أحياناً نُكسرُ وأحياناً نُخلَق وحدةً متكاملة». الآنسة آشر تركع، وتصلّي للصليب الخشبي الأدكن على الفراش، وأنا أفتحُ الباب، وأخرجُ إلى الشرفة، لأؤدّي صلاتي الخاصّة. أسمعُ يونانيين يتحدّثان معاً. كان البحر

القاتم مغطّى بالرغوة البيضاء، كأنّ الأمواجَ في عراك بعضها مع بعض. أتنشّقُ الهواءَ الذي يحملُ رائحةَ الزيتون الناضج، والبراعمَ البيض لزهر اللّيمون. هناك، خلف الأفق، ترقدُ الحمى، قريتي. هناك، على الشاطئ المقابل تعيش أمّي، وصديقتي نورا، ومعلّمتي، المغلقة الشفتين، نايلة . . . ووالدي. «ليش؟ ليش؟ لماذا؟ لماذا؟» همسَ الموجُ. تمسّكتُ بدرابزين الشرفة بقوّة. كان قلبي يتخبّط في صدري مثل دجاجة مذبوحة. بدوا جميعاً قريبين جداً، ومع ذلك كانوا بعيدين. «اصمتي»، قالت الآنسة نايلة. «يا أمّي»، صرَخَتْ. كانت تبكي من أجلي. إنها تريد أمها. «أدعو الله أن يحميكِ، خالقنا وقاهرنا، يا ابنتي»، قالت أمّي. «لن يُرفَع لي رأسٌ ما دامت سلمى على قيد الحياة»، قال أبي.

جلستُ في المقهى من دون عائلة أو ماضٍ أو أطفال، مثل شجرة مقطوعة من جذورها، أحتسي الشاي الذي كان قد برد الآن. تلك استراحتي للغداء، وكنتُ في حاجة إلى الهواء النقي. رائحة التبغ والنشا تملأ رئتَيّ، وتعلق داخل أنفي، وبثيابي وشعري، وهذا ما يجعله يبدو أكثر تجعيداً. على الطاولة المقابلة، ثمة عائلة تتناول غداءَها: أمّ في منتصف العمر، وجهها خالٍ من التجاعيد، وخصرها نحيل، وأب في منتصف العمر، بدا كأنه في مطلع العشرين، وطفلان، صبيّ وبنت، يبتسمان بتهذيب لوالديهما، بينما يأكلان السلطة بالشوكة والسكين. «هذا الشعور بالأمان غير متاح البتة للمتشرّدين». كان ذاك تعبيراً آخر للجامعة المفتوحة سمعتُه في محاضرة على التلفاز موضوعها ديناميكيّة

العائلة. كانت الآنسة آشر قد نصحتني بأن ألمّ أكثر فأكثر باستخدام هذه الكلمات والتعبيرات وتطبيقها على حالات واقعية. «غير متاح»، ردّدتُ، بعد أن سمعتُ هذه الكلمة وأردتُ استذكارها. ذهبتُ إلى الواجهة الأمامية لطلب المزيد من الشاي. الفتاة المرهقة خلف الحاجز سألت: «هل لديك نقود «فراطة»؟»

«فراطة «غير متاحة»»، قلتُ.

«أنتِ ماذا!»

«لا نقود فراطة. آسفة جدّاً، جدّاً».

أمي تراقبني. أحملُ ثمارَ الدرّاق اليانعة بيدي وأغرز أسناني فيها. إنها حمراء ومخملية من الخارج، أرجوانية من الداخل. يسيلُ العصير على ذقني. وإذ أرى التعبير على وجه أمّي، أضحكُ، وأتابعُ القضم. «إنّكِ تشبهين الأرنب، تطحنين وتمضغين طوال الوقت». أهزُّ رأسي ذا العشرة أعوام، وأتناول حبّة درّاق أخرى. تضعُ أمّي العشبَ أرضاً وتمسحُ وجهي بكمّ فستانها. «جائعة كجرادة، ولكن يجب أن لا تأكلي كل ما تصادفينه في طريقكِ. ذات يوم يمكن أن تمضغي أفعى، وسوف تقرصكِ».

*

أفعى الجرس غرزت نابها في ذراعي، وأطلقت فيه سمّها، يا أمّاه. أجلسُ على المقعد في الكاتدرائية، أراقبُ الشمسَ عن كثب وهي تغربُ. مجموعة أطفال يتدحرجون على العشب، وشعورهم الشقر تلمع في ضياء الشمس الساطع. ضغطتُ بكلتا يدي على

مُعدتي لأوقفَ نوبات المغص. كان ذلك هو اليوم الثالث، منذ أن بدأتُ تناول الدواء، لكنّ معدتي الجبلية كانت ترفض التكيّف. بعد وقت قصير من لقائنا، فتحتُ قلبي لبارفين، وأخبرتُها أنّ محموداً يكمنُ لي في الظلام حيثما أذهبُ. جرّتني إلى الطبيب الذي وصف لي دواء يساعدني على النوم، ويجعلني أشعر بسعادة أكبر. وأعطاني بعض المراهم لمعالجة البثور. كانت أمّهات الأطفال يجلسن فوق العشب، يدخّنّ سجائرهنّ، ويراقبن أطفالهنّ وهم يلعبون. موجةٌ أخرى من الغثيان تجتاحني. ركضتُ باتجاه الحاوية وتقيّأت.

«أفرطتْ في شرب الكحول»، قالت إحداهنّ.

«ولكن ليس على مرأى من الأطفال»، قالت أخرى.

مسحتُ فمي وجبهتي، واستلقيتُ على العشب، وأنا ألهثُ.

مشيت أنا وبارفين، ملتصقتين عبر الممرّات الفرعية، خلف الكاتدرائية، وعبرنا الشارع المزدحم، ودفعنا باباً خشبياً أبيض اللون، وسألنا موظفة الاستقبال عن الدكتور تشارلز سبنسر. نظرَتْ إلينا وإحدانا ممسكة بيد الأخرى، وقالت، «اجلسا، من فضلكما». بعد بضع دقائق قالت: «غرفة الدكتور سبنسر في الطابق الأعلى، وهي الثانية إلى اليسار».

كانت بارفين تقرأ مجلّةً حين لوّحت لي بيدها وأنا أدخل.

صعدتُ الدرجَ وطرقت الباب.

«ادخل»، قال بنبرة إنكليزية أنيقة.

فتحتُ الباب، ثم أغلقته، ووقفتُ هناك في منتصف مكتبه.

رفع نظّارته إلى الأعلى ونظر إلي بارتياب.

«هل اسمكِ الآنسة سالي آشر؟ هذا محال!»

أومأتُ برأسي المحجّب.

«ماذا يمكن أن أفعل من أجلكِ، يا آنسة آشر؟» قال، وهيّأ قلَمه للكتابة.

«أنا مريضة يا دكتور. قلبي يخفق. لا نوم». قلتُ، ورفعتُ الشّالَ الأبيض عن جبهتي السّاخنة.

وقفَ، ثم تركَ قلمَه، وسوّى ربطة عنقه، وقال: «هل هناك أعراض بدنية؟»

«مريضة، نعم. انظر ذراعيّ وساقيّ». بسطتُ ذراعيّ لأتيحَ له فحصهما.

أمسَكَ ذراعي السوداء النحيلة بيده البيضاء البدينة، وتفحّص البثور. «صدف، لا أكثر ولا أقلّ. حالة جلدية. لا شيء خطير»، قال.

«تعرّق، دقّات قلب، لا نوم»، قلتُ.

تركَ يدي وقال: «إذا كان قلبكِ يخفق، فهذا يعني أنّه في حالة جيدة. هذا ما نتوقّع من القلب أن يفعل».

«لكن أنا مريضة. اليوم حيّة، غداً ميتة، أنا»، توسّلتُ إليه.

«قلتُ لكِ ليس ثمة خلَلَ تعانينه. من فضلكِ لا تضيّعي وقتي، وتهدري أموال الحكومة».

أدرتُ ظهري، وأمسكتُ قبضةَ الباب الباردة، ثم حرّكتها نحو الأسفل، وخرجت.

تعمّدتُ أن لا أمشي ببطء كبير أو بسرعة كبيرة، من أجل الآنسة آشر. كان طريقُ المتنزّه عتيقاً ومهجوراً، مغطىً بألواح إسمنتية وحائط واطئ. ثمة بضعة مبانٍ مبعثرة هنا وهناك، وكشك صغير يبيع المشروبات الغازيّة والسجائر والصحف باللغة القبرصية التي لا أفهمها. كلّما حصلنا على جريدة في السّجن، أقمنا احتفالاً. كنّا نكنسُ الأرض، ثم نمسحُها، ونفرش الجريدة عليها بعناية. كانت نورا تخطّطُ حاجبيها المقوّسين، وتضع شيئاً من أحمر الشّفاه، وتمشّطُ شعرَها الأسود البرّاق، وتعقدُ مدام لمعة وشاحها الوردي حول رأسها، محاولةً إخفاء شعرها الأشيب، وأنا، أصغرهنّ سناً، والسجينة الوحيدة التي تجيد القراءة، أكتفي بتغطية رأسي بالوشاح. أفتحُ صفحة الوفيات، وأقرأ الأسماء بصوت عالٍ، «نعلن وفاة الأم الغالية الحاجّة أميرة ريماوي. إنّا لله وإنّا إليه راجعون».

كانت مدام لمعة تقول: «إذا ماتت أختي، فلن يخبروني أبداً. لن أعرف شيئاً».

«منيرة الحمدان»، قرأتُ ثمّ توقّفتُ. «نورا، أخبرتُكِ عن صبحة، هل تذكرين؟ الفتاة التي أطلق أخوها عليها النار أثناء العرس؟ حسنٌ، هذه تكون أمّها».

«لم تنتظر أمّها طويلاً لتلحقَ بها»، قالت نورا.

بدت القلعةُ التركيةُ المهجورةُ على الشاطئ القبرصي معتمةً وكئيبةً. «بناها السلطان التركي في أيام الإمبراطورية العثمانية، عام

في الدخول؟»

«نعم»، قلت.

«قلعة»، قالت.

«قلعة»، ردّدتُ.

البوابات كبيرة، مصنوعة من خشب مزخرف متين. «عمارة إسلامية»، قالت. كانت رائحة الطحالب تملأ الجوّ. ثمة باحة داخلية مملوءة بالأشجار والنباتات العشوائية، لم يلمسها أو يشذّبها أحدٌ منذ سنين. شجرة كرمة التفّت حول عريشة كبيرة. أزاحت الآنسة آشر خصلةً من شعرها الأشيب القصير عن جبهتها اللامعة، وأشارت إلى غرفة الحارس الصغيرة. حين وصلنا إلى هناك، أشار الحارسُ إلى غطاء رأسي، وقال، «تركية؟»

«كلاّ»، قالت الآنسة آشر.

«هذا غير مسموح»، قال مشيراً إلى وشاحي الأبيض.

«من فضلكَ»، قالت الآنسة آشِر.

وأومأ إلينا أن ندخل، لكنّه بدا غير راضٍ.

صعدنا الأدراج إلى جناح السلطان، ومشينا مباشرة باتجاه قاعة كبيرة، إلى حيث اعتاد السلطان الجلوس على عرشه والاجتماع بحاشيته. الغرفة ملأى بالكراسي المخملية، والمقاعد الخشبية، والأرائك، وفي وسطها نهضت مجمرة اصطفت عليها دلة وفناجين نحاسية للقهوة. لا بدّ أن قبيلة السلطان اعتادت استقبال الكثير من الزوّار.

كان الظلام قد حلّ حين عدتُ أخيراً إلى النزل. بدت بارفين شاحبة من شدّة القلق. «أين كنتِ؟ بحثتُ عنكِ في كلّ مكان. حتى إنكِ تركتِ نايكِ وقلادتكِ خلفكِ».

«خرجتُ في نزهة قصيرة»، قلتُ.

«انظري، أعددت بعض الكاري»، قالت.

«لا أستطيع الأكل. كلّ ما أتناوله أتقيّأهُ»، قلتُ وجلستُ على حافّة السرير.

«حسنٌ، سأجلب لك بعض الحساء»، قالت، وأسرعت إلى الخارج.

استلقيتُ على السّرير، أصغي إلى حركة السير في الخارج. في زحمة الضوضاء، كنتُ أسمع سنونوةً تصدحُ، وزجاجاً يتكسّر، وكلاباً تنبحُ، ومن ثمّ ضجيج المواصلات من جديد.

فتحت بارفين قفل الباب، وأسرعت إلى الداخل، ثم خلعت جاكيتها، وشغّلت الغلاّية، وجلست على حافة السّرير. «حساء البطاطا والكرفس»، قالت، «طعامُكِ المفضّل».

ملأتْ دورقاً صغيراً بالماء الساخن، وأفرغت العلبة، وبدأت تحرّكها. «ستحبّين ذلك»، قالت، واضعة الدورق قرب أنفي.

«لا أستطيع»، قلتُ.

«يجب أن تأكلي. لا يمكن أن تتناولي الحبوب ومعدتك فارغة».

هززتُ برأسي.

مستلقيةً على السّرير، حاولتُ أن أحيط نفسي بدفئهم،

بأصواتهم الحزينة. كنتُ أحتاج إلى حبلٍ يرفعني من القاع، وفجأة بدأتُ أسمعُ غناءَهم.

«لو، لو، لو، لولالي»، بدأنا الغناء، وراحت أصواتُنا تتقافزُ فوق الحيطان الملوثة، وتنطلق إلى العالم الخارجي الذي لم نكن قد رأيناه منذ سنين. «غيابي طال»، رحنا نغنّي معاً. نهضت نورا، وربطت شالاً حول وركَيها العريضتين، وأخذت تتمايلُ مترنّحة على إيقاع ضربات الأواني المعدنية. رحنا نغني رافعات الصوت.

بدأ حارس الدورية المسائية يشتمنا. «أنتنّ جميعكنّ عاهرات! لا أحد يهتمّ بأمركنّ. أنتنّ مجرّد ساقطات رخيصات، فلماذا لا تخرسن؟»

«لو، لو، لو لولالي»، رحنا نغنيّ معاً.

«إذا أطلقتُ النار على إحداكنّ، ستشكرني عائلتها»، صرخ.

حين سمعت مدام لمعة هذا الكلام، أمسكت بنهديها الكبيرين، وتوقّفت عن الغناء، وبدأت تبكي. ضمّتها نورا بقوة وقالت لها: «ما الذي يعرفه؟ إنه مجرّد صبي فلاّح، غير مرتاح في بزته العسكرية».

«جامعُ قمامة مع وردةٍ في ياقة قميصه»، قالت مدام لمعة.

«قردٌ يقفز في الظلام»، قالت نورا.

«خارج قفصه، سيبدو سخيفاً»، قالت مدام لمعة.

«اليابانيون مقبلون»، قال ماكس، رئيسُ عملي، ذات صباح،

ومسحَ شعره الخفيف، محاولاً التأكّد أن تسريحته ثابتة. أطال شعره الخفيف، ورفعه إلى الأعلى، ثم لفّه حول رأسه، ليخفي صلعتَه. كانت خصلاته الرقيقة تنزاح دائماً من مكانها، فيبدأ باللعن، ويعيدها إلى مكانها. «متجر الجوارب وربطات العنق عاد إلى العمل، وربّما اشترته شركة يابانية». ثمّ لوّح لي بالجريدة وقال، «اليابانيون مقبلون، وسوف يشترون بنطلوني الذي أرتديه حتى دون أن أدري». في كل يوم، كان يتوقّع أن يأتيه ياباني ويعرض عليه سعراً «خيالياً» لشراء محلّه. وما الذي كان يقوله؟ كان الجواب يتبدّل كلّ يوم، بتبدّل مزاج ماكس. «ارفعوا أيديكم الأجنبية القذرة- لا أقصد الإهانة- عن متجري وعودوا إلى بلدكم، يا آكلي أدمغة القرود». كان ماكس قد سمع في مكان ما أن أدمغة القرود هي إحدى الوجبات المفضلة في الشرق الأقصى، فقرّر أن جميع الأسيويين هم أكلة أفاع وقرود وحمير. في صباح آخر يكون الجوابُ مختلفاً. «هذه الحكومة تلعب معنا لعبة كرة الطاولة بينغ بونغ. ذات يوم، يقولون إن علينا أن ندفع الضريبة المحليّة، ونقول إنّ عليهم ألاّ يفرضوا علينا الضرائب المحليّة وأن يربطوها بعملية الانتخابات. إذا عرض ياباني عليّ مليون جنيه مقابل هذه القمامة، فسأحزم أمتعتي وأغادرُ إلى جبل طارق».

«لماذا جبل طارق؟» سألتُ.

«إنّه تحت الحماية البريطانيّة، أليس كذلك؟»

زبدة وعسل وجوز هند

بدأ قلبي يخفق لدى صعود الدرج الأبيض الصغير للسفينة الكبيرة. قبل بضعة أيام زرتُ أنا والآنسة آشر كنيسةً صغيرةً. الراهبة التي استقبلتنا كانت حريصة على الاحتفاء بنا. أخذت تتحدّث بلا انقطاع، وتشير إلى بعض الآلات القديمة، وصناديق الكتب. قالت إنّ (هيلينا) هي سفينة شحن، وستنقل بعض أمتعة الدير من قبرص إلى ساوثمبتون. كان القبطان قد منح الآنسة آشر و«ابنتها» إذناً بالسفر على متن مركبِهِ. وها هي عائلات قبرصية تودّع أبناءَها، وأزواج إنكليز يقبّلون زوجاتهم وأطفالهم، مودّعين، وبحّارة يشدّون الحبال، وحمّالون يتأبّطون حقائب وصناديق خشبية. خجلتُ من دموعي لأنّني شعرتُ أنّه يجب أن أبدو سعيدة، على الأقل من أجل الآنسة آشر، المرأة التي أنقذت حياتي. حين رأيتُ دموعاً تنسكب على وجنات أناس آخرين، تمسّكتُ أكثر بدرابزين السفينة. كانت الآنسة آشر تقف على الدكّة، محاطة بالحقائب والصناديق. وضعتُ صرّتي النسيجية الملوّنة على الصندوق الخشبي للثياب. أطلقت السفينةُ صفّارتها، معلنةً الرحيل.

*

كنتُ ما زلتُ لا أتناولُ طعاماً. مغصُ المعدة القوي جداً كان يجعلني أتكور ساعات طويلة فوق فراش السّرير المعدني. وضعت بارفين كوبَ الحساء على حافّة الطاولة، وبدأت تبحثُ وتفتّش في حقيبة ظهرها. أخرجت مسجّلة فضّية صغيرة، ووضعتها على الطاولة، ثم بحثت عن فيش كهربائي، ووضعت السلك فيه. وأخرجت كيساً بلاستيكيّاً، ملآن بالأشرطة، واختارت واحداً منها، وفتحت غطاءه، ثم أدخلته وضغطت أحد الأزرار. ومثل عبق القهوة المطحونة، ملأت الموسيقى أرجاءَ الغرفة. كانت الأغاني الإنكليزية واضحة جداً، وكانت تلك المرّة الأولى التي أفهمها جيّداً. كان المطرب يغنيّ بصوت مبحوح عن رحلات صعبة الى أعلى التلال، وعن وجع القلب والمعاناة. حين بدأت بارفين بالدندنة، أدركتُ أنها تحفظُ الكلمات عن ظهر قلب. صوتُ المغني العميق وصوتُ بارفين الجميل حلّقا معاً في أرجاء النزل. كانت بارفين تتظاهر بأنّها تحمل ميكروفوناً. «دفعتُ ثمناً غالياً». أصبح صوتها عالياً وحادّاً الآن. «لكنّني أحتسي الشاي وأمضغُ البسكويت. أشربُ وآكلُ. أشربُ الحساءَ، وآكل الخبز، ثمّ أطيحُ كلّ شيء!»

حين ضغطت زرّ التوقّف، حملتُ الكوبَ الذي أصبح بارداً، وبدأتُ أشرب.

على متن السفينة (هيلينا)، نامت الآنسة آشر على سرير صغير، وأنا نمتُ أرضاً على فراش. كنا قد اعتدنا تناول الطعام البارد والخبز غير الطازج. غرفة الطعام صغيرة وتنبعث منها

الروائح. الصحون وسكاكين المائدة والمحارم الورقية وأكياس السكّر، وضعت جميعها على حافّة الطاولة. لم أكن متيقّنة من استخدام الشوكة والسكّين، فاخترت أن آكل الجبن والخبز وأشرب الشاي. امرأة، مع بناتها الثلاث، كانت تأتي أحياناً إلى غرفة الطعام. السيّدة هندرسون، التي تعمل ممرضة في مستشفى بريطاني في قبرص، تعود إلى إنجلترا لترى أسرتها. «لم أعد أطيق الحرارة والسّماء الصافية. أتوق إلى المطر وهو يهطل على وجهي»، قالت وابتسمت. لا بدّ أنها لاحظت شعوري بعدم الراحة، لذلك أتت ذات صباح إلى طاولتي، فيما كنتُ أتناول الخبز، وجلَسَت. «اسمي ربيكا، وهاتان هما ابنتاي مارغريت ولوسي».

نظرتُ إليهما وقلتُ: «أنا سعيدة بأني التقيتكما»، وهذه عبارة كانت قد علّمتني إياها الآنسة آشر في الدرس الثالث. كانت ابنتاها تتناولان الطعام بكل يسر وثقة.

قالت: «آمل أن لا تنزعجي من سؤالي، ولكن لماذا تأكلين الجبن والخبز طوال الوقت؟»

«لا أعرفُ كيفَ»، قلتُ، ثمّ حرّكتُ يدَيّ كما لو أنهما تحملان شوكة وسكّيناً.

«سأعلّمكِ»، قالت.

منذ ذلك الحين، بدأت تعلّمني آداب المائدة، واللغة الإنكليزية، فيما بناتها يضحكن في الخلفية.

«أخيراً، استحممت»، قالت بارفين ذات صباح. «لا بدّ أنكِ تشعرين ببعض التحسّن».

«نعم»، قلتُ، وعصبتُ شعري بالمنشفة.

«علينا أن نبحث عن عملٍ»، قالت بارفين، «لكن أريدُ أن أسألكِ عن هذا الحجاب الذي ترتدينه دائماً».

«الناسُ ينظرون إليّ طوال الوقت كما لو أني وباء»، قلتُ.

جلسَتْ بالقرب منّي على الفراش، وقالت: «سيكون الحصول على العمل أكثرَ صعوبةً إذا أصررتِ على ارتدائه. صديقي في مدينتي، واسمه آش، طرد من عمله بسبب عمامته، مع أنهم ادعوا بأنّه لم يحقّق أهدافه».

«الطبيب يقول ثمة الكثير من الماضي»، قلتُ.

«نعم، يا سلمى، ثمة الكثير من الماضي»، قالت، كأنها تتحدّثُ إلى نفسها.

«صعب جداً نزعه، برغم ذلك»، قلتُ.

«أجل، أعلم، أعلم». قالت.

نظرتُ إلى حذاء الساتان الوردي الناعم، المعلّق في الواجهة مثل هلال. الأحلام الناعمة للأطفال، والهالة القرنفلية، وأناشيد الأطفال الصغار، ونشيجهم. إنّ ليلى لا وجه لها، لكن قبل ثلاث سنوات، حاولت أن أمنحها وجهاً. ألبستها، ومشّطتُ شعرها، وحمّمتها وقبّلتها ألف مرّة، قبل أن أتمنّى لها نوماً هانئاً. «في فيلم (سينما براديسو)، يجمع الشخص الذي يشرف على جهاز تسليط

الصور على الشاشة القبلات التي منعها الكاهنُ، ويضعُها على شريطٍ واحد. حين عاد الصبي، الذي يحبّه كثيراً، إلى البلدة، أدار الشريطَ الذي يضمّ جميع القبلات، فقط من أجله». قالت بارفين. تكون ليلى في عزّ نومها، في فراشها الوردي، فأنحني وأقبّلها. ليلى ذات الأعوام الثلاثة تطارد الدجاجات، فأركض نحوها، أضمّها، وأقبّلها. ليلى تبكي، لأنها خائفة من الذهاب إلى المدرسة للمرّة الأولى، فأحملها، وأمسحُ دموعَها بمنديلي ثم أقبّلها. وليلى، المراهقة، تروي لي قصّةً عن صبيّ، مثل حمدان، التقته في المدرسة، فأربّتُ على ظهرها، وأقبّلها. « تغرورق عينا الشاب بالدموع وهو يشاهد القبلات»، لكنّني أعودُ أدراجي وظهري مستقيم، ووجهي جافّ، وعضلاتي مشدودة، مرتديةً معطفاً مطرياً.

على متن (هيلينا) أستند إلى الدرابزين، وأراقب، بعينين ناشفتين، البحر وهو يرغي ويعلو. كانت السفينةُ تنطلق إلى الأمام، وتشقّ المياه الرمادية، مخلّفةً وراءها خطوطاً من الزّبد الأبيض. وعلى مرأى من الآنسة آشر، أتلقّى تعليمات ريبكا اللّطيفة، في شأن آداب المائدة واللغة الإنكليزية. هذا هو صحن الخبز، هاتان هما الشوكة والسكين للوجبة الرئيسية، وهذه ملعقة الحساء، وهذه ملعقة الحلويات. تعلّمتُ كيف ألاحق الخسّ الأخضر، ثم أمسكة وأقطعُه بالسكّين، وأضعه في فمي، وآكله من دون تسرّع، كأنني شبعى. تعلّمتُ كيف أضع الزبدة على كسرة الخبز، ثم أمسكها بإصبعين، وأتناولها مع الحساء. يجب أن أتعلّم

الصبر، وأنتظر الآخرين للبدء بالأكل، ومن ثمّ أبدأ بعدهم. تعلّمتُ كيف أنتظر الآخرين أن يتوقّفوا عن الكلام، قبل أن أبدأ أنا. وتعلّمتُ أن أبدأ كلّ محادثةٍ بالكلام على الطقس.

*

«صباح الخير، يا صادق. الطقس جميل اليوم»، قلتُ.

أشار إليّ بإصبعه، ثم أمالَ ذقنه كأنه يبحث عن الكلمات، وقال، «سلمى، سلمى، إنك تتحولين إلى سيّدة أجنبية. قريباً ستصبحين إنكليزية أيضاً».

«توقّف عن السخرية»، قلتُ، ممسكةً بأكياس أمتعتي.

«حسنٌ، ولكن نسيتِ حتّى كيف تصلّين لله»، قال.

«وماذا عنكَ أنت؟ أنت تصلّي طوال الوقت، وتبيعُ الكحولَ إلى الكفّار».

«أقومُ بعملي فحسب».

«ما الذي تفعله لتحافظ على بريقِ شعرك؟» سألتُهُ لكي أغيّر الموضوع.

«زيتٌ هندي يدعى (Sexy)»، قال، ومرّر يدَه على شعره الزَلِق، مبتسماً.

«أعطنا بعضاً منه، إذاً»، قلتُ.

«هل تعرفين، يا سلمى، كان بودّي أن آخذك زوجة ثانية لو لم تكوني مثل جوزة الهند، سوداء من الخارج وبيضاء من الداخل».

«زوجة ثانية، لا بدّ أنكَ تمزح»، قلتُ وابتسمت.

«كل ما نحتاج إليه هو أن نرسل إلى زوجتي الأولى مئتَي جنيه في الشهر، إليها وإلى الأولاد. إذا ساعدتني في الدفع، أتزوجُكِ».

«ينبغي أن أدفعَ لك كي تقبل بي زوجةً ثانية؟ من تظنّ نفسك؟ كازانوفا؟» قلتُ، وابتسمتُ ثانيةً.

«شو، شو، اذهبي والحسي قدمَي صاحبة منزلكِ إذاً».

في المساء، حوالى الغروب، كنت أمشي إلى الخارج، وأصعدُ إلى أقرب درج يؤدي إلى الدكة، لأشاهد البحرَ الأبيض المتوسط يطبقُ علينا بمياهه من كلّ اتجاه. أتوقّف مطولاً هناك، أراقب السماءَ تبدّلُ ألوانَها، من ذهبي ساطع، إلى رمادي معتم، إلى أزرق نيلي، إلى أسود متلألئ. أقفُ هناك فحسب، وأضم نفسي، لأبقى دافئة. يا للألوان كيف تتبدّل وتتبعثر وتنزاح. إنه تبدّل الألوان، ولون المستقبل سيكون مثل مروج خضر كنت قد رأيتها في مجلّة (المرأة) الإنكليزية، التي وجدتها على أحد الكراسي على الدكّة. كانت تضمّ صوراً لنباتات وحدائق ملأى بالأزهار الملوّنة. «هنغلاند حلوة. هنغلاند جميلة»، قلتُ لربيكا.

لونُ الهضاب أخضر فاتح. مرّة قالت لي بارفين إنّ المزارعين يستخدمون المبيدات لقتل الأعشاب الضارّة، مما يجعل المحاصيل تبدو أكثر اخضراراً. منذ ذلك الحين، اعتدتُ النظر إلى الهضاب الخضر من نافذة غرفة نومي، والتفكير في طبقات السمّ المترسّبة

أسفل التربة. أنظرُ إلى العشبِ الأخضر الغامق للكاتدرائية، والذي لا بدّ أنّه رُشّ ببعض السماد، وأتذكّر أنّ ليز طلبت منّي أن أشتري لها بعض الخبز. ألفظ الكلمات ببطء قلتُ للبائعة، «خبز قمح، من فضلكِ».

«قولي هذا ثانيةً؟» قالت.

«خبز قمح»، قلتُ.

«هذا»، وأشارت إلى رغيف أسمر.

خجلتُ أن أقول لها لا، إنّه الرغيف الأول على اليسار، وأومأت برأسي موافقة. كنتُ دائماً أشعر أن ثمة صفّاً طويلاً من النسوة الإنكليزيات يقفن خلفي، وهنّ يزفرن ويتشاكين. بالطبع أنا أجنبية. يجب أن يكون هذا بادياً من الطريقة التي ألفظُ بها الأحرفَ الصوتية وخصوصاً حرف (o)، والطريقة التي أتعاملُ بها مع النقود، وطريقة لباسي. عدا أنّ كاحليّ النحيلين يفضحانني أيضاً. خرجت من الصفّ حتى قبل أن أضع بقية النقود المستردّة في جزداني. لا بدّ أن ليز ستصلبني لأنها طلبت منيّ خبزاً مصنوعاً من القمح.

لاحظتُ بعد ليال من المحاضرات عن يسوع المخلّص والثالوث المقدس، أنّ الآنسة آشر توقّفت عن إقامة خطبتها الليلية. كنتُ أجلسُ على أرض القمرة الضيّقة، وأحضنُ ركبتَيّ، وأستمع إلى الآنسة آشر تقرأ لي قصصاً من الإنجيل. «زوجة رجلٍ من تلاميذ الرسل صرخت مستنجدةً بإليشا قائلةً: خادمكَ،

زوجي، مات، لكنّ دائنه أتى لأخذ ولدَيّ الاثنين عبدين». كنتُ أصغي كأنني أستمعُ إلى جدعان، حكواتي قريتنا، الذي كان يرافق حكاياته عن بلدان نائية، وبطولاتها، العزف على الربابة. كان كلّما لامست الريشةُ الأوتارَ، صدر صوتٌ عنّي كثيف وملأ الباحةَ مثل الصرخات المكتومة لامرأة. كانت الآنسة آشر تترجم بعض الكلمات إلى العربية، ثم تقرأ القصّة بالإنكليزية. ومع أنني كنتُ أفهم قليلاً مما تقول، استمتعت حقّاً بالإصغاء إلى ألحان لغات مختلفة. ذات مساء، قلت للآنسة آشر، كأنني أبوح لها بسرّ عظيم: «إنّي أجيدُ العزف على ناي القصب. هل لي أن أعزف وأنتِ تقرئين؟»

بعد أن تأكّدت الآنسة آشر أن زرّ قبّتها العالية في عروته الصحيحة، وضعت إنجيلها على السرير، وقالت: «لا. إنني أقرأ نصّاً مقدّساً. يجب أن تصغي ملياً وتتعلّمي شيئاً ما». رسمت علامة الصليب، ثم بدأت تخلع ملابسها. أدرتُ ظهري وتمددتُ على الفراش على أرض السفينة. كنتُ أشعرُ بالسفينة تهتزّ هنا وهناك، عبر النافذة الدائرية الصغيرة، أسمعُ الهديرَ ذا الوقع المنتظم للمياه.

رأيته يمشي في الطريق الفرعية، باتجاه الكاتدرائية القريبة.

«مرحبا»، قلتُ لجيم.

«يا يسوع! أخفتِني»، قال.

نظرتُ إلى عينيه الرماديتين، وبشرته الشمعية، وجديلة شعره،

وشعرتُ أن ليلة السبت بعيدة جداً، ومحفوظة في إحدى غرف عقله. رحتُ أعبثُ بحزام حقيبتي.

«أنا على عجلة من أمري»، قال.

«نعم، بالطبع»، قلتُ. كنتُ متوتّرة حقّاً، وأنقّل ثقل جسدي من قدم إلى أخرى. «فنجان قهوة ذات يوم؟» سألتُ.

«أنا مشغول حقّاً هذه الأيام. أراكِ هنا أو هناك». قال، ومضى مسرعاً في الطريق الفرعي المرصوف بالحصى.

لوّحتُ له بتردد، مودّعة، ثم أكملتُ سيري. التفتّ إلى الوراء، ورأيتُ ظهرَ قميصه الرمادي، وحذاءه العملي، وذراعيه النحيلتين الطويلتين، وأصابعه الرقيقة، كلّها تختفي خلف المنعطف.

كانت بارفين قد أخبرتني عن جملة «أراكِ هنا وهناك». «إنها تعني لا أريدُ أن أراكِ ثانيةً أبداً، وداعاً، هل تفهمين؟».

*

نظرتُ إلى صورتي في المرآة الوحيدة للنزل الصغير. لقد خسرتُ بعضاً من وزني، وبدت عيناي وأنفي أكبر، وبشرتي أكثر سواداً. كنتُ نحيلةً جدّاً حتى أن بنطلوني كان ينزلق عن خصري. «إنها رحلة، وعبور إلى سنّ الرشد»، قالت بارفين. «الصينيون يسمّونها الموت الصغير الذي يهيّئنا للموت الكبير، للانفجار». كنتُ مستعدة للخروج في نزهة قصيرة. أرتدي جينزاً أزرق، وقميص تي شيرت، وأربط وشاحي بإحكام تحت ذقني. نظرتُ ثانيةً إلى صورتي، وبدأتُ أحلّ ببطء عقدة وشاحي الأبيض.

خلعتُهُ، وطويتُهُ، ثم وضعتُه على الفراش. حرّرت شعري من الدبابيس البلاستيكية، ثم مشّطته، ورفعته إلى الخلف. كنت نحيلة جداً حتى أن شعري الأسود الكثّ انسكب فوق وجهي، وكاد يغطّيه تماماً. نظرتُ ثانيةً إلى الوشاح الذي كان والدي قد طلب مني ارتداءه، والذي اشترته لي والدتي، ورأيته مطوياً على الفراش. مسحتُ جبهتي وأسرعت نحو الخارج. شعرتُ كأنّ رأسي مغطىً بالندوب، وقد نزعتُ عنه الآن ضماداته. شعرتُ بالقذارة، كأنني عاهرة، بلا اسم أو عائلة، أو مذنبة لن ترى الجنة أبداً، ولن تشربَ من أنهارِ العسل والحليب. حين مرّ بي رجلٌ ونظرُ إلى شعري، شعرتُ بقشرة رأسي تنتفض. جلستُ على قارعة الرّصيف، وأمسكتُ برأسي، ورحت أبكي وأبكي ساعات طويلة.

ينفطرُ نهر الإكس إلى فرعين، مكوّناً جزيرة صغيرة. إنّه فضاء يعمّه السلام ومغطّى بأعشاب برّية، وتنمو على ضفافه أشجار البلوط والكستناء والصفصاف والغبيراء والبتولا. جلستُ على سترتي مصغيةً إلى خرير المياه التي تسير نحو البحر، خائفةً من أن أعود إلى المنزل، وأقابل ليز. يمكن أن تسألني عن جيم. قال: «أراكِ هنا أو هناك»، وهذا يمكن أن يعني « أنتِ تنامين مع أي كان». هل كنتُ سهلةً إلى هذا الحدّ؟ هل قدمت نفسي له بسرعة؟ ربما كانت بشرتي سوداء أكثر من اللازم، وأبدو أجنبية أكثر من اللازم، بشعري الكثّ، وشاي المريمية. هل كنتُ جلفةً وغير مرحّبة؟ يمكن أن تكون تجاربي ناقصة كثيراً. ربما كان هوسي بالنظافة قد نفّره، وأبعده عنّي. أخرجتُ مكعّب جبن وبعض الخبز

من كيس بلاستيكي، وقسمت الرغيف بيدي. ثم بدأتُ آكلُ. كنتُ قد استعرتُ كتاب (اليونان غير المرئي) من المكتبة، فأخرجتُهُ وبدأتُ أنظر إلى الصور: عرائش عنب، وبيوت عتيقة، وأديرة بيض باردة، ونسوة بثياب حداد أزلية، وينابيع جبلية باردة.

بدأت ريبكا، الابنة الكبرى لمارغريت، تبحث عنّي على متن السفينة. كانت تلقي سلامَها الذي علّمتُها إياه، وتمسك بيدي وتحثّني على الذهاب إلى القمرة كي أعزف لها بعض الموسيقى. كنتُ أنفخُ اسمها في الناي حرفاً، حرفاً: «م-ا-ر-غ-ا-ر-ي-ت». كانت تضحك، وتهزّ جدائلها الذهبية. تعلمتُ الإنكليزية منها أكثر مما تعلّمته من الآنسة آشِر، طوال كل تلك الدروس في الظّهيرة. «ليس woord، بل world».

وفيما كنت أعزف ذات صباح، اقترب مني رجل طويل، سَمح الهيئة، ومدّ يده. «اسمي ماهوني، أنا كاهن هذه السفينة. أصغيت إليكِ مرّات عدّة وأنتِ تعزفين الناي، وأحببتُ أن أعرّفكِ بنفسي».

لطالما تساءلتُ من يكون هذا الرجل السمح الذي ينظر دائماً إلى البحر. «أنا سلمى، وهذه صديقتي مارغريت».

رفع حاجبيه متسائلاً. كانت مارغريت في الحادية عشرة من عمرها، وأنا في الخامسة والعشرين. «سعيد بلقائكِ». صافحها.

«من أيّ بلد أنتِ؟» سأل.

لم أكن أعرف ماذا أقول، لكن الآنسة آشر كانت قد علّمتني أن أقول إنني ابنتها. «إنكليزية»، قلت.

«أنا إيرلندي». قال.

«أين؟»

«خلف البحر، أيتها الحمقاء»، قالت مارغريت.

نظر إلى وجهي بتمعّن شديد. شعرت بالحرارة تحت وشاحي الأبيض، فأمسكتُ بيد مارغريت وقلتُ، «تأخّرتِ في الذهاب إلى فراشك».

لوّحنا له مودّعتين ونزلنا الدرج مسرعتين.

أغلقت الآنسة آشر كتاب العهد الجديد وقالت: «أنتما الاثنتين رجعتما في وقت مبكر».

جلستُ، أحمل فنجان الشاي، وأشاهدُ برنامجاً تلفزيونياً. كانت المذيعة ترتدي بزّة خضراء لامعة، ويبدو أنّها غيّرت لونَ شعرها. يبدو بنيّاً دافئاً، هذه المرّة. ارتشفتُ الشاي البارد وشاهدتُ عائلات، بعثرها الزمن، تعود وتجتمع بفضل البرنامج. أخت أماندا الصغرى، واسمها موللي، فُقدت أثناء الحرب، وتبيّن لاحقاً أن زوجين أستراليين تبنّياها، وهي تعيش الآن في سيدني. قبل عشر سنوات، بدأت البحث عن أختها. ابتسمت المذيعة وقالت: «أماندا، أختك الصغيرة، موللي، معنا اليوم. هيا، تعالي، يا موللي!». تبادلت أماندا وموللي النظرات، غير مصدّقتين، وأسرعت كلّ منهما نحو الأخرى، وتعانقتا. أطفأتُ جهاز التلفزيون ونظرتُ إلى الحيطان الرّطبة، والطاولة الصغيرة، والمرآة الهندية، والنافذة المظلمة. وقبل إسدال الستائر، رأيتُ ظلاً

قائماً يقف عند سكّة الحديد. لم يكن يُسمح لأحد بالاقتراب من السكّة. أسدلتُ الستائر وأطفأتُ الأضواء. الماءُ يسقط نقطة نقطة من اللمبة الكهربائية على السرير. لففتُ غطاء الوسادة حول السلك وأسرعتُ إلى أسفل الدرج لأخبر ليز.

كانت ليز تتمايل على الكنبة وبيدها رسالة. دفتر مذكّراتها مرميّ أرضاً. على السجّادة القذرة زجاجة نبيذ فارغة وكأس. «ليز»، قلتُ وهززتُها من كتفها.

فتحت عينيها وقالت، «لا؟»

«ليز، استيقظي».

فركت عينيها وقالت: «أين أنا؟»

«في بيتكِ في إكستر»، قلتُ.

وسوت جلستها وبدأت تبكي. «لا أرتدي نظّارة القراءة. اقرئي لي من فضلك هذه الرسالة». كان لسانها يتلعثم. إنها ثملة وتعبة.

وبدأتُ أقرأ: «*عزيزتي، أسميتك أُوبه لأن بشرتك بيضاء متلألئة تسطع في ضوء القمر. أردتُ أن أحتفل بكِ، أعبدكِ، وأحتفظَ بك مثل كنز غال*».

«توقّفي»، قالت وخطفت الرسالة من يدي. «ما الذي تظنّين أنّكِ فاعلة؟ ماذا، وفي مثل هذه الساعة؟» كان العرق يتصبّب من وجهها، والشرايين الناعمة تحت بشرتها تتوهّج بالدماء.

«دعيني أساعدكِ على صعود الدّرج وأضعكِ في الفراش»، قلتُ.

«لا، أنا قادرة تماماً على الاعتناء بنفسي»، قالت وهي تتمسكُ بذراعي.

سحبتُها، ووضعتُ ذراعها حول كتفي، وقدتُها نحو الدّرج. حين دخلتُ غرفة نومها، شعرتُ كأنني أطأُ أرضاً محرّمة. كانت الغرفة في حالةٍ يُرثى لها. أغطية مقلوبة، وثياب قذرة، مرمية على الأرض، وقطعة بيتزا باردة متروكة في الصحن، وبقع سوداء تلطّخ السجادة البيج، حيث كان قد أُريقَ النبيذ. كانت تفوح منها رائحة الغبار وصابون الخزامى، ومنظّف طقم الأسنان. و«السرير الفيكتوري الكبير من نوع ميرسر ورثتُهُ عن جدّي» كان رائعاً. إنه مصنوع من معدن الفضّة، مع لمسة بنّية، وقاعدتاه عند الرأس والقدمين، تطرّزهما ميداليات ضخمة، مصبوبة على شكل حروف ثلاثة هي (V. R. I) وتعني «نائب الملك في الهند»، تحيط بهما مرصّعات صغيرة، نصف دائرية، مع زخارف تشبه الورود في النهاية. على الطاولة الأثرية بجانب السرير العتيق، رأيتُ صرّةَ رسائل حُزمت بحلقة مطاطية، ووضِعت داخل صندوق ساتان قرمزي مفتوح. رأتني ليز أنظر إليها فأطبقت غطاء الصندوق. «هذا كلّ شيء. شكراً». قالت.

أخرَجتُ طقمَ أسنانِها، ووضعتُه في كأسٍ على طاولة السّرير، وفرّدَت شعرَها، واندسّت بكامل ثيابِها، تحت اللّحاف الأبيض ذي الأطراف المهدبة المغطّى ببقع صفراء وحمراء. كانت الرسالة لا تزال في يدها، حين أطفأتُ المصباحَ العتيق المجاور للسرير المكسو بالغبار.

في الصباحِ التالي، نظرتُ عبر نافذتي، إلى الهضاب الخضر وقطعان الخراف البيض والأبقار السود. كان نهاراً مشمساً، والنهر الذي أراه خلف قاطرات السكّة، يومض بمياهه الفضّية. هل كانت هي هناك؟ أسرعت باتجاه الدرج السفلي البارد، نحو المطبخ، وأعددت بعض القهوة الثقيلة لكي أتنشط. تناولت الفطور، وشربتُ بعض الماء، ثم ارتديتُ ملابسي. أدركتُ أنني كنتُ أخسرُ بعض الوزن أيضاً. بنطلون الجينز الأزرق الضيّق الذي لم أكن قد لبسته منذ أشهر، لاءمني على نحو جيّد. كان يوم الاثنين أكثر الأيام قسوةً، بسبب مزاج ماكس العَكِر. رشَشتُ بعضَ العطر لإزالةِ الرّوائح الكريهة للعرق. ووضعتُ كنزة صوفيّة، وكتاب (فهم الشعر)، والناي، في حقيبتي الكبيرة. هذا اليوم أنا مصرّة على أن آخذَ استراحة غداء، كي أتمكّن من أن أقرأ قليلاً. حشرتُ أيضاً قميص تي شيرت، وعقدتُ خفّي، وأخرجتُ سندويش التونا الملفوف بورق مصقول من الثلاّجة، ثم وضعته في الحقيبة، مع ترمس القهوة الصغير. فتحتُ الباب الأمامي، وملأتُ رئتيّ بالهواء الصباحي.

«صباح الخير، يا سلمى»، قال ساعي البريد جاك.

«أخيراً تذكرت اسمي ولفظتَه على نحو صحيح»، قلتُ وابتسمتُ.

«أنا لستُ أكثر الآلات حدة في الصندوق»، قال غامزاً.

الوقتُ منتصفُ الصباح في الحمى الآن. لا بدّ أنّ أمّي تمشي

عبر التلال، وتكدّسُ الحطب والأعواد اليابسة، وتربطها فوق ظهرها. كنتُ أستيقظُ وأفتحُ النافذة وأستمعُ إلى صياح الديك وهديل الحمام. ذات مرّة أخبرتني أمي أنّ ما يقوله الحمام في الواقع هو «سبحان الله!» أُسرِعُ إلى البئر، وأجلب بعض الماء، وأغسل وجهي. الجمر مشتعل في الكانون، وأمّي تدعك العجين بأصابعها الخشنة والمنتفخة.

«صباح الخير، يا أمّي»، أقولُ وأقبّلُ جبهتَها. تبتسمُ وتناولني الرّغيف الأوّل، الذي يسيل منه العسل والزبدة. أبدأ بالأكل، فيما هي ترمي العجين في الهواء، حتى يستدير الرغيف الرقيق، ويغطّي ذراعيها المبسوطتين. ما إن ترميه على الصفيح الساخن، الموضوع بعناية فوق النار المكشوفة، حتى يبدأ الرغيف بالانكماش حالاً، قبل أن ينتفخَ مثل قمرٍ مدوّر أسمر، مالئاً هواء الصباح القارص بعبقه.

أمضيتُ أسابيع لا أمضغُ فيها سوى الخبز اليابس، وأشربُ الحساء، وأتناولُ حبّات الدواء، وأستمعُ إلى أشرطة بارفين. سمعتُها واحداً، واحداً. «استرخي»، و« مثل عذراء» و«استشفاء جنسي»، و«الرقص في الحي الوطني»، وسواها. كنتُ أكتبُ الأغاني على ورقة، وأبحثُ عن معاني بعض الكلمات في القاموس، ثم أديرُ الشريط ثانية، وأحفظ الأغاني عن ظهر قلب.

دخلت بارفين يوماً عليّ وأنا أغنّي. «احفظي الأغاني جيّداً، يا سلمى!» وضعت كيس مشترياتها على الطاولة وقالت: «ليس هنالك حظّ!»

تعبةً جلستُ على السّرير، وقلتُ، «استرخي، لا بدّ أن يتمخّضَ شيءٌ ما».

«علينا أن نغيّر الإستراتيجية. ماذا عنكِ؟ ماذا يمكنكِ أن تفعلي؟»

«يمكن أن أزرع، وآخذ القطعان إلى المرعى، وأعتني بالخيول والأبقار».

أرجعت غرتها الى الخلف، وقالت: «مهاراتٌ ريفية». ثم نظرت إليّ وقالت، «ذاك الفستان الذي تخبّئينه تحت وسادتك. من خاطه؟»

«كيف رأيته؟ هل تفتّشين الغرفة حين أخرج؟»

«لا، كنتُ أنزع الأغطيةَ عن السّرير لآخذها إلى الغسّالة، أيّتها الغبية».

«هل أحببتِ الفستان؟»

«نعم، إنّه جميل جداً».

«لستُ غبية. أنا خطتُه. لا تقولي غبيّة أبداً».

أمسكَتْ يدي وقالتْ: «أنا آسفة. كنتُ أمزح. لم أكن جادّة على الإطلاق».

«أنا لستُ غبية. أنا ابنة عائلة وقبيلة».

«أنا آسفة».

«أنا لستُ غبيّة، إنيّ أفكّر في الله».

خرساء ومضربة عن الطعام، أنظرُ إلى صورة القمر خلف

قضبان النافذة، وأفكّر في الله. حارس النوبة الليلية يحيّي الضابط سليم، مدير السجن، ويغلق البوابة خلف سيارته المسرعة. أسمعُ صريرَ البوابة الرئيسية، وهي توصَدُ في اللّيل. النملُ حشراتٌ صغيرة تزحف على هذه الأرض، طلباً للمأوى والغذاء. إنّها عاجزة أمام الفيضانات، والشمس الحارقة، والمجاعات، وبعضها تجاه بعض. إنّها عُرضة لغضب العناصر. نحن أيضاً عُرضة لغضب العناصر، مثل جرح مفتوح. يضعوننا في السجن، ويسلبون منا أطفالنا، ويقتلوننا، ومع هذا يجب أن نقول إن الله يمتحن المؤمنين الحقيقيين. ولكن هذا القلب، القلب القرمزي القاني، القلب الجائع جداً بحيث لا يستطيع أن يخفق بانتظام، هو لي، لأنّني أنا التي حرمته من الغذاء.

توقّفت السفينةُ (هيلينا) بضع ساعات في مدينة مرسيليا الفرنسية. كان الميناء القديم يغصّ بالناس والبضائع. شاهدتُ المسافرين يسرعون نحو البوابة لملاقاة أحبّتهم، وكنتُ أسمع صيحات الفرح تنطلق من عائلاتٍ اجتمع شملُها: قبلاتٌ وعناقٌ، ودفقٌ من الكلمات الفرنسية والإنكليزية. شددتُ قميصي الأبيض لإخفاء وركَيّ، وثبتّ وشاحي، وشجعت نفسي قليلاً، ثمّ أمسكتُ بدرابزين السفينة، فيما كانت فرنسا تتوارى خلف الأفق البعيد. مقهى الرصيف البحري، بمظلاته الزرقاء والخضراء، كان يختفي شيئاً فشيئاً. انضممتُ إلى الآنسة آشر على الدكّة المشمسة.

بدت عيناها الزرقاوان تعبتين وهي تقول: «يجب أن أتحدّث إليكِ، يا ابنتي». جلستُ على أحد الكراسي البيض، وهيأتُ نفسي

لسماع إحدى محاضراتها. كانت الشمسُ تغرق وتغيبُ على مهل، مضرمةً النارَ في الأمواج. «لاحظتُ أنّكِ لا تفكّرين البتة في الدّين. انظري حولكِ. لا بدّ أنّ قوةً عظيمةً خلقت هذا البحرَ الشاسع».

نظرتُ إلى البحر، وزبده المتكسّر، والشمس الغاربة، وقلتُ: «لم أفكّر في الله من قبل».

لاحقاً، داخل قمرة السفينة، وفيما كنتُ أنظرُ عبر النافذة المستديرة، والناي يتدلّى على صدري، مع رسالة أمّي، وخصلة شعرها، شعرتُ ببعض التحسّن. على الدكّة، ثمة شيء ما في الطريقة التي يتحدث بها الأثرياء ويحتسون القهوة، رحابة المنظر، وسطوع البحر، الذي قد يؤذي العينين. في قمرة السفينة، كان المنظر-الصغير والمؤطّر- أقلّ وطأةً. «يا ربّ اجعل العواقب سليمة»، كانت أمّي تقول. أرى وجهها السمح، وعينيها المبتسمتين أبداً، وأسمعُ تمتمةَ شفتيها الموثنبتين. بل إنني أشمّ رائحةَ حبوب الهال، العالقة على لفّة رأسِها، فيما كانت تطحنُ حبّات البنّ في الهاون. كانت تمسحُ وجهي بأصابعها الخشنة. أصابع خشنة بسبب أعمال التعشيب والحصاد والطحن في المجارش.

قرابة الحادية عشرة صباحاً، هدأ ماكس تجاه اليابانيين، وبدأ يعمل، متحدّثاً حديثاً طويلاً مع زبونٍ على الهاتف، ويمصّ عقبَ سيجارته. حين بدأ النيكوتين الأصفر يسيل على واجهة النافذة، أدركتُ أنّ معلّمي في مزاجٍ جيّد، ومستعد للحديث.

وضعتُ تنّورةَ الحرير على الكرسي، ومشيتُ نحو ماكس. يجب أن أطلبَ منه علاوة «تتلاءم مع التضخّم المالي». ظننتُ أنّ عشرة في المئة مناسبة ولم أحسب كم ستكون شهرياً. «ماكس، أريدُ أن أتحدّثَ إليك».

دفع نظارته المعدنية فوق أنفه ثمّ قال: «ليس الآن. أعطني المكواة!»

أمسكتُ مكواةَ البخار وسلّمتها إلى ماكس.

كان ماكس لطيفاً جدّاً معي. أمّن لي عملاً حين لم يفعل هذا أحدٌ آخر، وقدم لي هدايا وبطاقات عيد الميلاد، وساعدني على خياطة سراويلي وتنانيري. كان يعرف أيضاً عندما كنت أمرّ بفترات طويلة من الصّمت، فيسمعني نكاتاً بالإنكليزية باللكنة الباكستانية. «هل زوجتك في الثلاثين من العمر؟ زوجتي وسخة أيضاً». لم أكن أعرف هل أضحك أم أبكي لسماع نكاتٍ كهذه. أتمالكُ نفسي وأقول: «من الأفضل أن نعود إلى العمل، وإلاّ فسيبدأ زبائننا بالشكوى والتذمّر».

«ماكس، يجب أن أتحدّثَ إليك الآن».

«ما العاجل في الأمر؟»

شددتُ معدتي، وأخذت نفساً عميقاً، وقلتُ بصوتٍ مرتجف، «أريدُ علاوة».

«ماذا؟ قولي هذا ثانيةً».

«أريدُ زيادة، يا ماكس»، توسّلتُ إليه.

ضغط مكواة البخار على القبّة البنية، وبصق جميعَ الإبر

أرضاً، ثمّ قال: «بسبب الوضع الذي نحن فيه لا يمكن أن أعطيك أية علاوة».

«لكنّ الشغل جيّد».

«نعم، ولكن هناك مشكلة في السيولة النقدية».

«لكنّكَ تطلبُ دائماً الدّفع نقداً، ولا تأخذ أبداً الشيكّات، بسبب الضرائب وغير ذلك».

«انظري سلمى، ثمة الكثير من الشبّان البريطانيين عاطلون عن العمل. وسوف يقفزون لملء أيّ مكان شاغر. احمدي ربّكِ، يا عزيزتي».

قفلتُ راجعةً إلى كرسيّي. وضعتُ تنّورة الحرير على حضني، واستأنفتُ رتقَ حاشيتها. عليّ فعلاً أن أحصي النعم. أربع سنوات من العمل، من دون علاوة في الأجر. أتقاضى خمسمئة جنيه شهرياً. لكن الإيجار ارتفع إلى خمسة وأربعين جنيهاً في الأسبوع، مضافة إليه الفواتير. قرابة ستين جنيهاً في الشهر، إذا أضيفت الفواتير والضرائب، تصل النفقات إلى أربعمئة جنيه شهرياً. يبقى لي مئة جنيه للطعام ونفقات المواصلات وشراء الكتب ودفع أقساط الجامعة. لو أنّ ماكس يعطيني خمسين جنيهاً إضافياً، لكانت الأشياء أكثر سهولة. انتبهتُ إلى أنّني توقّفتُ عن الرّتق فجأةً، إذ كنت أنظرُ إلى خيوط حذائي، التي استطالت أكثر، ربّما لأنّ قدمَيّ كانتا تزدادان نحولاً، أو لأنّ الحذاء نفسه كان قد بدأ يتمدد ويرتخي.

كان ماكس منهمكاً بالحديث مع زوجته عبر الهاتف.

«عزيزتي، لقد وضعتُ النقودَ على الطاولة قبل أن أخرج». ثم أحكم ربطَ شريط القياس حول رقبته. «من أخذ النقود؟ الكلب؟» لاحظتُ أن بقعاً رطبة بدأت تظهر على التنّورة البنفسجية. شعرتُ بالذعر. كنتُ قد أقسمتُ أن لا أبكي في العلن. هبطتُ الدرجَ سريعاً وهرعتُ باتجاه الحمّام، ثم أغلقتُ غطاء المرحاض، وشددتُ ذراعَ المياه، وجلستُ، واضعةً رأسي بين يدي مثل قردة غير حكيمة. ملأ هدير المياه التي تعيد تعبئة الخزّان، الفضاء البارد والخاوي للحمّام. عدتُ، شيئاً فشيئاً، إلى وضعي الطبيعي، وغسلتُ وجهي ويدَيّ بالماء البارد، وربطتُ شعري بحلقة مطّاطية، ثم تنفّست نَفَساً عميقاً، وصعدت الدرج. يجب أن أبحثَ عن عمل مسائي.

أغمضتُ عينَيّ، وتخيّلتُ يد أمّي المتفسّخة تمسحُ وجهي، وتمحو عنه الغضبَ والخوفَ. «إنّها بنت»، أعلنت القابلة، وبصقت أرضاً. إنّها لا تتوقّع بخشيشاً كبيراً إذا كان المولود بنتاً. «همُّ النساء من المهد إلى اللحد»، قال أبي. أخبرتني والدتي أنّها نسيت آلام المخاض، حين قالوا لها إنها بنت. قالت لي إنّها حين نظرت إلى عينَيّ المغلقتين المتورّمتين، وهما تتفتّحان للمرّة الأولى، تبدّلت دقّات قلبها، مرةً واحدة وإلى الأبد. أجلستني، وسرّحت جدائلي، وسكبت بعض زيت الزيتون في يديها، ثم فركته بشعري ومشّطته. «بسم الله الرّحمن الرّحيم»، قالت وسكبت الماء البارد على رأسي، وفركت شعري بالصابون، محاولةً صنع الرغوة. نظّفت بشرتي خلف الأذنين، وتحت إبطي،

وبين ساقَيّ ومؤخّرتي. «حمّامكَ بارد يا شيخ، بارد ومبرد يا شيخ»، كانت تغنيّ. «غسلتكِ من الذنوب الصغيرة والكبيرة»، قالت، وسكبت المزيد من الماء على رأسي، ثمّ جفّفت جسدي بمناشف كان أبي قد أهداها إليها في يوم عرسها.

حين ارتديتُ ملابسي، ناداني أبي قائلاً: «سلمى، نعيماً. أين هي قبلة الحمّام؟» قبّلتُ يدَه، ثم عانقني، وحملني ثم وضعني في حضنه الدافئ.

«استراحةُ الغداء لي، وأستطيع أن أفعل ما أريد»، أسرعتُ بالقول لماكس. استمرّ يدخّن سيجارته، ولم يقل شيئاً. كانت تلك بمنزلة نعم. وضعتُ حقيبتي على كتفي وغادرتُ المتجر إلى الكاتدرائية القريبة. كانت السماءُ ملبّدةً، والشمس متوارية خلف الغيوم، والضباب يملأ الهواء. مقهى يقع في منتصف مكان مجهول، مع مناضد وبعض الكراسي البيضاء، على الرّصيف، من دون أشعة شمس، ولا يطلّ على شارعٍ مزدحم، مع أنّه يتظاهر بأنه بقعة قارية زاخرة. لكنه لم يكن يشبه البتة المقهى الفرنسي الذي رأيته في ميناء مرسيليا. الكثير من رجال الأعمال، ببزّاتهم الرمادية والزرقاء (التي لم تتم خياطتها في محلنا حتماً) مع جرائدهم وغدائهم، يسيرون باتجاه المقهى. أولئك الذين يملكون نقوداً يتوجّهون إلى بار الفندق، أما الذين لا يملكون شيئاً، فيتوجّهون مباشرة إلى الحديقة العامة، يجلسون على العشب، ويتناولون سندويشات التون. رجل يرتدي سترة رسمية سوداء ذات ذيل، بدأ يرقص على إيقاع أغنية قديمة.

إذا نظرتُ إلى الوراء فماذا أرى؟
أشجاراً خضراء ومروجاً طرية
إذا نظرتُ إلى الأمام فماذا أرى؟
أوراقاً متساقطةً، ترتعش في الرّيح
إذا نظرتُ إليكَ فماذا أرى؟
أرى الرجلَ الذي كنتُهُ يوماً.

كانت النسوة العجائز ينظرن إليه بحسرة، ويقهقهن حين يرقص أو يقفز قفزة صعبة.

طلبت بارفين من نادل النزل أن يحضر لها شيئاً اسمه «دليل الأوراق الصفراء»، فأعطاها كتاباً ضخماً سميكاً أصفر. راحت تقلّب صفحاته بحثاً عن خيّاطين. وبدأت تقرأ: «كينغز، لوردز تيلر، إكستر، ميك آند ميند، مي، دونالد، ويبل، جي كو، خدمات خياطة كاملة. محال لورد تقع في نهاية الشارع الرئيسي. ما رأيكِ، يا سلمى؟»

هززتُ كتفيّ. جرعات الدواء جعلت كلّ شيء يبدو أكثر سهولة. «ولمَ لا؟» قلتُ، «ولكن يجب أن تأتي معي».

«بالطبع، غداً في الصباح الباكر». قالت وابتسمت.

أستطيع أن أرى أعالي شجرة بلّوط عتيقة، مبللة ومتوهّجة، تتلألأ في الأفق البعيد، تحت أشعة الشّمس الضعيفة. لطالما تساءلتُ كيف ينمو كلّ شيءٍ أخضر هنا من دون حرارة الشّمس.

لا بدّ أنّ الأمر يعود إلى الماء وسموم السماد، التي أخبرتني عنها بارفين. تركنا الكتاب الأصفر مفتوحاً على صفحة الخياطة على الطاولة. كانت الغرفة نظيفة ومرتّبة، غير أنّ رائحة عفنة ظلّت عالقة هناك. غطاء السرير، الذي ابتعته بالنقود القليلة التي أعطاني إياها القسّ ماهوني، (يمضي جلّ وقته بزيارة المهاجرين في السجن) كان أرجواني اللون، ذا زهورٍ مرسومة باللّون الفضّي على حوافّه. غطاء بارفين كان برتقالياً ، تسوّره خطوط ذهبية. لقد بدأت تبكي في اللّيل من جديد، ولأنها لم تُظهر لي دموعها، لم أستطع أن أقول لها كم بدت المروج خضراء، حين أشرقت الشمسُ عليها، وكم ناصعة هي الغيوم، وكم شاسعة السّماء الزرقاء. لم أستطع أن أعزف لها على آلتي الموسيقية. لم أستطع أن أمسح وجهها بأصابعي. ظللتُ قابعةً هناك، مسمّرة تحت اللحاف، أستمعُ إلى نحيبها المتقطّع.

عابراً نهراً مجهولاً، بعيداً من وطنك، راقبْ خفقانَ السّطح، وتمعّنْ في صفاءِ الماء. راقبْ حركةَ الخيول. واحذرْ من كمين جماعي.

قرب سبخة مألوفة قرب بيتك، انظرْ عميقاً إلى الظلال، على الضفّة البعيدة، وراقبْ حركةَ العشب الطويل. أصغِ إلى تنفس أقرب أصحابكَ. واحذرْ من قاتلٍ وحيد.

أستمرّ في القراءة. «هذه المقطوعة لسيزوم نوكومو تُعتبر مثالاً

للشعر الياباني الذي يتميّز عادةً بالإيجاز والتكثيف، ويركّز على بضع صور قليلة».

انتهت استراحة غدائي، فاحتسيت قهوتي الباردة، ثم أحكمتُ غطاء الدّورقِ، ووضعتُ العلبةَ في مكانها، وأخفيتُ الكتاب في الحقيبة، وقفلتُ راجعةً إلى العمل. حين كنتُ أستمع إلى أنفاس حمدان، لم أكن ألتفتُ إلى تصرفاته، فما كان منه إلاّ أن خانني، ووقعتُ في الكمين. أما القاتل الوحيد، فكان يتبعني إلى عملي. صندله الجلدي قد تهرّأ، وقدماه معفّرتان بغبار الصحراء، وأظفار قدميه الصفراء طويلة، وملأى بالأوساخ، وبندقيته تتأرجح على كتفه اليمنى. راح يتبعني ويقتفي أثري حتى وصلتُ إلى محل «لورد» للخياطة.

شاي إنكليزي

بدت الهضاب مظلمة، بعيداً عن أضواء الطاحونة البعيدة، لكنني كنتُ أستطيع رؤية قطعان الأبقار المحتشدة على جانبَي الهضبة. النهر ينساب بهدوء الآن، والقطارات تمرّ في فترات متباعدة. كل شيء نائم، ما عدا سيارة أو أخرى في البعيد. انزلقت السفينة (هيلينا) بلطف نحو يابسة مُنارة جيّداً، اسمها ميناء ساوثامبتون. بدت إنكلترا مثل شجرة من ضوء. ضحكت الآنسة آشر، وأحكمت زرّ قبتها، أغلقت جاكيتها فوق ثدييها الضخمين. أعمدةٌ معدنية، مربوطة إلى حاوية شحن، ترتفع يميناً، ثم يساراً، وفي المنتصف. رجال في سيّارات صغيرة يحملون صناديق من مكان إلى آخر. أكوام من الخشب والصناديق والآلات تنتظر شحنها. شعرتُ أنّني هبطتُ على كوكب آخر، حيث الرجال يعملون كآلات، وثمة رافعات أثقال ضخمة تملأ الهواء. أمسكتُ بيد الآنسة آشر. ابتسمت وقالت: «سنخرج من هنا، بعد قليل». كانت مخطئة في ذلك. أمضت ليلةً كاملةً في الميناء، وذهبت في الصباح التالي طلباً لبعض المساعدة. أما أنا فأمضيتُ شهرين كاملين في سجن الميناء.

أمشي على الجسر الحديدي، وأرى الكاتدرائية، ثمّ المروج العشبية لمدينة ديفون. إنّها حقّاً بطاقة بريدية. ومع أنني لا أملك عنوانهما، فقد ظللتُ أبعث بالبطاقات والرسائل إلى ليلى ونورا. ربّما يشعر ساعي بريد عربي بالشفقة عليّ، ويذهبُ في مهمّة للعثور عليهما. قبل أيام أرسلتُ إلى نورا بطاقة بريدية أخبرتُها فيها عن غرفتي الجديدة، التي استأجرتها في «قصر البجع»، وعن رئيس عملي اللطيف، ووصفتُ لها الأبقار على الهضاب التي أراها من نافذتي. «من الأبقار إلى الأبقار»، أسمعُ صوتها يأتي من بعيد. لكنّني لم أخبرها بأنني أتقاضى أجراً زهيداً، وأنفق كلّ شيء مع نهاية الشّهر، وبأنّ جيم لا يريد أن يراني ثانيةً، وأنني ما زلتُ أعيش وحدي، وأنّ سكّة الحديد تبعد قرابة مئة ياردة عن غرفة نومي، التي كانت تهتزّ أركانها مع كلّ قطار قادم أو مغادر من المحطة.

كان الطقس بارداً، والجو يميل إلى الصّحو، حين دخلتُ أنا وبارفين محلّ الخياطة. على الباب عُلّقت لوحة توضّح أسعار أعمال الرّتق وإصلاح الملابس. حين فتحنا الباب الزجاجي، رنّ جرسٌ غير مرئي. ذكّرني صوته بالجرس النحاسي الذي كانت تستعمله الآنسة نايلة في المدرسة لتعلن بدء الدروس وانتهاءها. رجل بدين ببزّة زرقاء قاتمة مخططة، ونظارتين ذهبيّتين، وشعر خفيف، هبط الدرج الضيّق، خلف منصة الاستقبال. «صباح الخير، يا سيّدَتي»، قال وهو يحمل الدبابيس في فمه.

«صباح الخير»، قالت بارفين.

«ماذا يمكنني أن أفعل من أجلكما؟» سأل وهو يغرز الدبابيس في علبة إسفنجية.

بدأتُ أنقّلُ ثقلَ جسدي من ساق إلى أخرى، محافظةً على ابتسامة خفيفة، على وجهي.

«صديقتي سلمى خيّاطة، وهي تبحث عن عمل»، قالت بارفين على عجل.

«أنتما لستما زبونتين، إذاً». قال، دافعاً نظارتيه فوق أنفه.

«لا، لكن أنا عاملة جيّدة»، قلتُ وابتسمتُ.

«هذه المرأة لا تتقنُ الإنكليزية، بحقّ يسوع»، قال.

«لغتها الإنكليزية ليست عائقاً. هي تستطيع أن ترتق وترفو وتصلح الثياب». قالت بارفين، وانتشلت الثوب الأبيض من حقيبتها البلاستيكية، ووضعته على طاولة الاستقبال. حمله بين يديه، وقرّبه من نظّارتيه، وراح يتفحّص الجيوب والكمّين، وأعاده على الفور. «ليس لدي أماكن شاغرة».

«لماذا لا تجرّبها شهراً واحداً فقط، من دون أجر؟ ويمكن أن تقيّم عملها بنفسكَ».

لاحظتُ أنّ بنطلونه عريض جداً حول الركبتين، مع طيّة عريضة في الأسفل.

«أنتِ تضيّعين وقتي، يا آنسة». قال.

أعادت الثوب الأبيض إلى الحقيبة البلاستكية، وقالت: «هذا لأنّنا سوداوات البشرة، أليس كذلك؟ لأنها ليست زهرة الإنكليزية»، قالت.

تورّد وجهه واحمرّ قبل أن يقول: «هيّا، اخرجا من متجري!»
«خنزير عنصري وكاره للنساء وجنسويّ»، قالت.

استمرّ ضابط الهجرة في مركز التوقيف في ميناء ساوثامبتون، يسأل: «ما اسمكِ المسيحي؟ اسم العائلة؟»

نظرتُ إليه، والدهشة تلفّني. «أنا مسلمة»، قلتُ. وضع أصابعَه على ياقته، كأنّه يريد أن يحلّ أزرارها. كان المهاجرون الآخرون يمرّون عبر حواجز الضبط، والابتسامات تعلو وجوهَهم.

«اسمكِ؟» قال.

«نعم. سلمى ابراهيم». أومأت برأسي، لأظهرَ له أنّني فهمتُ سؤالَه.

اعترضت الآنسة آشر بسرعة، وقالت إنّ اسمي هو سالي آشر. ثم تبادلا الكلام بالإنكليزية، وعرض أوراق. ذكَرَتْ كلمة «تبنّي»، التي كانت قد علّمتني إياها. أغلق الضابط كتابه، واتصل هاتفياً بأحدهم، فظهر رجل بوليس عبر الباب الزجاجي المتحرّك. كنتُ أقفُ هناك، أتلمّسُ بأصابعي النباتات البلاستيكية. دفعني رجل البوليس إلى أحد الجانبين، وفتّشني بسرعة، ووضع أصفاداً في يدي. شعرتُ ببرودة الأصفاد المعدنية وهي تحيط برسغيّ. نظرت الآنسة آشر إليّ نظرات مطمئنة، لكنّني أدركتُ أنّها تشعر ببعض الضيق. «لا تقلقي»، قالت فيما كنتُ أُقادُ عبر الباب الزجاجي. أشاروا عليّ بالمرور عبر ردهة مضاءة جيداً، ثمّ فتحوا باباً ثقيلاً مقفلاً. طلبوا مني الدخول، ثم فكّوا الأصفاد، وأغلقوا

الباب، وأحكموا إغلاقه. الغرفة صغيرة لكنّها نظيفة، مع سرير وحيد في الزاوية. جلستُ هناك، وانتظرتُ الآنسة آشر أن تدقّ الباب. لم تكن ثمة نوافذ، وظلّت المروحة اللامرئية تهدر طوال اللّيل. بعد مضي ساعات، تمددتُ على السّرير، وحاولتُ أن أغطّي جسدي بالشّرشف كلّه، لكنّ الشرشف كان قصيراً جداً، وشعرتُ أنّ قدمَيّ المكشوفتين على وشك التجمّد. كان ثمة فرق كبير بين سجن الميناء، والسجن الذي تركته خلفي: هذه الغرفة نظيفة، ولا تفوح منها رائحة البول، والجدران مغطاة بصفائح معدنية برّاقة، وليس لها نوافذ ذات قضبان، وكانت حقّاً هادئة، باستثناء صوت المروحة، لكنّني كنتُ في زنزانة انفرادية.

أعطاني ماكس كمّي قميصين لأرتقهما كي يعوّض عن السّاعة التي أنفقتها أثناء الغداء. أخذتُ الكمّين وخطتهما بخفّة وأناقة، ووضعتهما على الطاولة، وجمعتُ أشيائي، وأسرعت خارجةً، فيما كان ماكس لا يزال يتحدّث عبر الهاتف. كانت نصف ساعة من التأخير. ذهبت إلى فندق رويال ومشيتُ عبر الأبواب القديمة السميكة باتجاه غرفة الاستقبال. رجل متوسّط العمر أسرع نحوي وقال: «كيف يمكن أن أساعدكِ؟»

كان للجملة وقع آخر في أذنَيّ الحساستين، وكأنّه كان يقول لي: «هل يمكن أن أرميكِ خارج هذا المكان؟»

«نعم، من فضلك، أريد أن أرى مدير البار».

«من هذا الممر»، دلّوني على مدخل مغطّى بالسجاجيد، يؤدّي إلى غرفة صغيرة، غير مرتّبة.

«سيكون هنا بعد لحظة».

رجل آخر متوسّط العمر، شعره مغطّس بالزّيت، ومسرّح إلى الخلف، أظهر لي ابتسامة ميكانيكية أخرى وذكّرني بالرجل الذى انتحل شخصية «فرِدْ» وراح يرقص أمام النسوة العجائز.

«كيف لي أن أساعدَكِ؟» قال بنبرة إنكليزية صافية.

بدأ ذقني يرتعش، وبصعوبة قلتُ: «اسمي سلمى».

«نعم؟»

«أبحثُ عن عملٍ مسائي».

«هل أنتِ مسجّلة لدى وكالة عمل، مركز عمل؟» سأل.

هززتُ رأسي بالنفي.

كان على وشك طردي، لكنّه غير رأيه.

«لا يبدو أنكِ إنكليزية».

«أنا بريطانية من أصول عربية».

«هاه!»

تذكرتُ الصّور التي رأيتها في كتاب (اليونان غير المرئي)، حيث بإمكاني أن أقف على جرف شاهق وربّما أرى، وطني. حاولتُ معه ثانيةً. «أعمل في متجر للخياطة. كل ما أريده هو المزيد من النقود. هذا كلّ ما في الأمر».

«صحيح»، قال، ومسّد شعرَه الزَلِق.

ابتسمتُ، وفتحتُ فمي الكبير على وسعه.

تناولَ سيجاراً كبيراً، ونقره على الطاولة السوداء، ثم قال:

«تجمعين وتغسلين الكؤوس بين السابعة والحادية عشرة والنصف، أيام الجمعة والسّبت، وربما، في أمسيات الخميس».

«شكراً. شكراً جزيلاً» قلتُ ونهضتُ، مستعدّةً للمغادرة قبل أن يبدّل رأيه.

«ارتدي ثياباً لائقة»، قال، «قميصاً أبيض وتنّورةً سوداء».

«ليس ثمة مشكلة».

«أراكِ يوم الجمعة»، قال، وأشعلَ سيجارَه.

حين خرجتُ من الفندق، لفحَ وجهي المشتعل نسيمٌ لطيفٌ بارد. كانت هناك، تجهش بالبكاء، باحثةً عن موطئ قدم. كنتُ أعرف ذاك الجرح. قشعريرة مفاجئة سرت في عروقي، فانحنيتُ متلويّة وحضنت حلمتَيّ المنتصبتين. العضلات، حيث تلتقي أضلاعي، انتفخت ثمّ ضمرت، كأنّني غرقتُ باتجاه الداخل. وقبل أن أنظر إلى وجهها، أخذتها الحارسةُ إلى إحدى دور الأطفال غير الشرعيين. استلقيتُ أرضاً، أنزفُ مثل حَمَل ذُبحَ في احتفال العيد الكبير. نورا، ومدام لمعة، ونعيمة، وأخريات، أمسكن بي، وسكبن الماءَ الباردَ على رأسي، لإجباري على التنفّس. بدأن يصلّين ويغسلن بدني: «ليرحم اللهُ سلمى، ارفع عنها كربها، يا ربّ، وخفّف وزرها واشرح صدرها! امنحها نعمة النسيان!» بدأن ينشدن ويغنّين معاً. فركن بالصابون شعري، وكتفَيّ، وذراعَيّ، وظهري، وساقَيّ، حتى اختفيت تحت رغوة الصابون. «بؤس صلواتكن! إنها ما زالت لا تتنفّس». حين كنتُ على بعد شهقتين من الموت، سمعتُ طلقةً في البعيد. فتاة أخرى، أطلقت سلطات

السّجن سراحها، فأطلق أخوها عليها الرّصاص وقتلها. فتحتُ فمي وتنفّستُ، ملء رئتَيّ المشدودتين.

ذهبتُ على الفور إلى منزل غوين وطرقتُ بابَها. كان بمقدوري أن أسمعَ وقعَ قدميها على الأرض. «من الطارق؟» سألت.

«أنا، سلمى، افتحي الباب».

نزعت السلسلة، وفتحت البابَ قائلةً: «أوه! مرحبا، سلمى!»

ضممتُها بقوة، وسرتُ معها، عبر الردهة المظلمة.

«ما الذي جرى معكِ؟»

«أنا آسفة، نسيتُ التهابَ مفاصلكِ. حصلتُ على عمل جزئي في فندق رويال».

«ما الذي ستفعلينه بالضبط؟»

«أجمع وأنظّف الكؤوسَ الفارغة».

«هذا جيّد إذا توقّف الأمر عند هذا الحدّ». قالت وضغطت زرّ الغلاّية.

«غوين، أريدُ أن أذهب في عطلة إلى اليونان، وألقي نظرةً على البحر الأبيض المتوسط».

«كنتُ أعتقد أنّكِ تخلّيتِ عن هذا الحلم منذ وقت طويل». قالت وجلست. على طاولة المطبخ، علبة مفتوحة من الفاصولياء المطبوخة وشريحتان من الخبز المقمّر وفنجان من الشاي.

«لا بدّ أنّني أفسدتُ عليكِ عشاءكِ، أنا آسفة».

«لا بأس. أنا لا أسخّن الفاصولياء إطلاقاً. أعدّي لنفسكِ فنجاناً، من فضلك».

أعددتُ لنفسي فنجاناً من الشاي وجلست. «أنتِ تعرفين الإنكليز. هذا يجوز وهذا لا يجوز، من فضلك».

«يجب أن ترتدي ملابس محتشمة، وتبدين راقية، وأن تتجنّبي ارتداء التنانير الضيّقة القصيرة. لا تخبري ماكس. لا تتحدّثي إلى الزبائن، ولا تتدخّلي في ما لا يعنيكِ. آملُ من الله أن لا تكسري كؤوساً في يومِكِ الأول».

ألبومٌ يحتوي على صور بالأبيض والأسود تُرِكَ مفتوحاً على الطاولة.

«ألقي نظرة!»

شرعتُ أقلّبُ ألبومَ غوين، وأرى نتفاً من ذكرياتها. أشارت إلى صورة باهتة لرجل وسيم وقالت: «والدي. كان رجلاً عظيماً». رجل نحيل وطويل، عيناه ذكيتان، يقف قرب طائرة.

شربتُ فنجان الشاي، وقبّلت خدّها، وأسرعت إلى الخارج.

حين خرجتُ من منزل غوين، رأيتُ إليزابيث تمشي خلسةً في الشارع، نحو متجر الكحول ، كأنّ أحداً ما يطاردها.

«مرحباً، ليز»، صرختُ.

«كنتِ تزورين غوين؟» قالت.

«نعم»، أجبتُ.

«الرّعاعُ يحبّون الرّعاع »، قالت، وكانت على وشك التعثّر، وهي تصعدُ حافة الرّصيف.

السّاعة لم تتجاوز السابعة، ومع ذلك كانت ليز ثملة. ترنّحت وهي تدخل المتجر، وعبر الزجاج، كان بإمكاني أن أرى ابتسامة صادق الخبيثة ترحّب بها.

بعد ليلةٍ في مركز الاحتجاز في الميناء، لم أذق فيها طعمَ النوم، نادوني للحضور ثانيةً إلى مكتب ملآن بالشاشات المضيئة، وآلات المراقبة. بدا ضابطُ الهجرة خلف مكتبه أبيض جداً، وتعباً. عيناه متورّمتان وحمراوان، وقبّته متّسخة، وشعره الزيتي التصق برأسه. أبقى يديه معقودتين، وظهره مشدوداً، فيما كان يتفحّصني وأنا أحاول أن أبقى صاحيةً، بعد ليلةٍ بلا نوم.

«سلمى، لماذا أتيتِ إلى بريطانيا؟»

لم أفهم جملة «لماذا أتيتِ»، فأومأتُ برأسي.

«هل تبحثين عن اللّجوء السياسي؟»

حاولت أن أتذكّر ما كانت قد علّمتني قوله الآنسة آشر. كلّ العبارات التافهة من مثل «صباح الخير» و«استمتع بغدائك»، مرّت في خاطري، لكنني لم أستطع أن أتذكّر الكلمة التي كانت قد طلبت منّي استخدامها. «متكيفة»، قلتُ أخيراً.

« تقصدين متبنّاة؟» قال وهو يقلّب في كومة من الأوراق.

«نعم، نعم، متبنّاة، الآنسة آشر».

متأمّلة الأضواء الزرقاء المنعكسة على النوافذ خلف القضبان، قالت نورا إنّ كلّ شيء بدأ في محلّ للكباب، حيث اعتادت أن تراقبَ الأضواء المحتضرة للعاصمة، فيما كانت تغسل الأطباق

طوال الليل. أمرَهَا المالكُ بأن تستخدم الكاز والليمون لإزالة بقع الدهن العالقة على الأواني. في سحابةٍ من الكاز واللّيمون، كانت تمضي لياليها، تراقبُ مزقاً من السّماء تتسلّل من بين البيوت القديمة، المغبرّة. وحين كان أولُ خيطٍ من الضّوء ينير قبّةَ السّماء، كانت تطوي فستانَ عملِها، وتغسلُ يديها، وتستعدّ للذهاب إلى المنزل. يجب أن تعود بسرعة، لتصحب رامي وريما إلى المدرسة. لم تكن هنالك باصات في ذلك الوقت، فكان عليها أن تركض ثلاثة أميال للوصول إلى منزلها.

عزيزتي نورا،

قبل سبعة عشر عاماً، التقينا في السّجن. اتُهمتِ بالبغاء، وأنا بممارسة الجنس خارج شرعية الزواج. هل تتذكّرينني؟ أضربتِ عن الطعام، لكنّهم أجبروكِ على الأكل بالقوة. ابتسمتِ حين أوقفتُ أنا إضرابي. أعطيتني المشط المفضّل لديك وزجاجةَ عطرك. ما زلتُ أحتفظ بهما. وضعتهما داخل صندوق صيني صغير، مع خصلة شعرِها ورسالة أمّي. لا بدّ أن عمر ابنتكِ الآن، أربعة وعشرون عاماً، وابنكِ في السادسة والعشرين. ابنتي ليلى في السادسة عشرة. بعد سنتين، ستدخلُ الجامعة. قرّرتْ أن تدرس الطّب، وأنا قلتُ لمَ لا؟ آمل أن تكون الحياة لطيفة معك بعد كلّ هذه السنوات، وأنّ يعتني أولادكِ بكِ، وأن لا تحتاجي إلى ممارسة عملك ثانيةً. سوف نلتقي في يوم ما.

محبّتي

سلمى

بللت المظروف بلعابي، وختمتُه، وكتبتُ عنوانَ نورا الذي في حوزتي: البلد القديم. قبل أن أتناولَ عشائي، توجّهتُ إلى صندوقِ البريد، وبعثتُ بالرّسالة. حين ابتلعَ الفمُ الأحمر المفتوحُ لصندوقِ البريد المظروفَ الأزرقَ الجوّي، توقّفتْ يدي عن الارتعاش. يمكنني أن أغادر وأتناول عشائي الآن.

في مستهل المساء، يكون المنزل مظلماً وبارداً. ذهبتُ إلى غرفة نومي، وأدرتُ جهازَ التلفاز. كان برنامج (إيست إندرز) يُبثّ مباشرة على الهواء، وناسُهُ يعودون من جديد إلى الشّجارِ مع أهلهم، وزوجاتهم، وأصدقائهم، وينامون مع شقيقات زوجاتهم، ثمّ يتوبون كأنّ شيئاً لم يكن. المساءُ ينبسطُ طويلاً ورقيقاً، حتى نهايةِ الأفق، حيث بإمكاني أن أرى البقرات تنامُ في المروجِ المفتوحة. كانت النهارات تزدادُ طولاً، والألقُ الأزرق الأدكن لا يغادر قبّةَ السّماء ويضيءُ حوافّها بلهبٍ محتضر. أتناولُ عشائي، المؤلف من معكرونة مع صلصة الطماطم والثوم، وأنا أشاهدُ التلفاز. ثمة برنامج لتمضية عطلة في جزيرة يونانية. أستُتاحُ لي الفرصة يوماً بأن أكحّل عينَيّ برؤية اليونان غير المرئي؟ شعرتُ بحماسة منقطعة النظير، وأنا أفكّر في أن أستقلّ الطائرةَ، للمرّة الأولى في حياتي. «سأطيرُ إلى إسبانيا يوم الأحد»، هذا ما كان يقولُهُ ماكس، مرةً واحدة، كلّ عام، حين يكون على وشك اصطحاب عائلته إلى إيبيزا. سأقومُ بعملي المسائي على أكمل وجه. سأرتدي أحسن ملابسي، وأبقي فمي مقفلاً، وأضع ماكياجاً خفيفاً، وأربطُ شعري الأجعد جيّداً، وإذا تحدثتُ، فسأتكلّمُ ببطءٍ وحذرٍ، لأبدو إنكليزية قدر الإمكان. سأقول: «هل انتهيت من

هذا، يا سيّدي؟ شكراً جزيلاً، جزيلاً، يا سيّدي».

أخبرتُ ماكس عن مقابلة العمل التي تنوي بارفين إجراءها، فوافق على إعطائي فترة ما بعد الظهر إجازة قصيرة. كانت قد تقدّمت إلى عشرات الأعمال، لكنّها لم توفّق. قلتُ لها ربّما كان عليها أن تتأنّق بعضَ الشيء، ثمّ فتحتُ الحقيبةَ البلاستيكية الكبيرة: «طقم من أجلكِ! ماكس أعطاني بعض فضلات الملابس، فخطتُ لكِ هذا. أخذتُ قياسَكِ من ملابسك المتّسخة».

كانت تقرأ الجريدة، لكنها نفخت غرّتها، ونظرت إليّ هنيهةً، ثم عادت إلى الجريدة. شعرُها باهتٌ، وبشرتها جافّةٌ، وأظفارها غير مقلّمة، وظهرها محنيٌّ.

«أخذتُ إجازة من أجل مقابلتكِ. من فضلكِ، بارفين، دعيني أرافقكِ».

توقّفت أخيراً عن القراءة وقالت: «يجب أن أجهّزَ نفسي»،

«هل يمكن أن أساعدكِ؟»

خرجت لتستحمّ في الحمّام العمومي، ووضعتُ أنا شريطاً في المسجّلة، وضغطت زرّ التشغيل. ملأت الموسيقى أجواء الغرفة. غنّت الفرقة عن مراقبة الآخرين، وعن الوعود التي نكثت.

عادت إلى الغرفة، ترتدي بيجاما، وتحزم شعرها بمنشفة. أجلستُها، وفتحتُ علبة ماكياجها الزهرية، ووضعتها بالقرب منها على السّرير. أخرَجَتْ علبةَ كريم، ثم أعادتها إلى مكانها، لتعود وتأخذها مجدّداً، ثم بدأت تضعُ الكْرِيمَ على وجهِها. أعددت لها فنجاناً من القهوة، وشرعتُ أرتّب الغرفة.

نظرت إليّ وقالت: «هذه الأغنية هي قبل أن يغادر ستينغ البوليس».

«غادر قوّةَ الشّرطة»، قلتُ.

«كلاّ، البوليس غادر الفرقة»، قالت وابتسمت.

كان قطارُ لندن يمهر حياتي بصفيرِه كلّما مرّ في الوادي، مذكّراً إياي بما يجثم في نهاية الخطّ. إنّها محطّة واسعة، فيها كشك لبيع الزّهور، ومقهى صغير. كنتُ، حين أشعرُ بالتعب، أذهبُ إلى المحطّة، وأجلسُ هادئةً في المقهى، أصغي إلى جلبةِ الوافدين والمغادرين. ثمة رجلٌ أسود يمسحُ الأرضَ المسطّحة على نحو إيقاعي، ويضعُ الممسحةَ في السّطل الملآن بالماءِ والمنظّفات. كان صوتُ مكبّرات الصّوت، الذي يقولُ لنا ماذا نفعلُ، وأين نذهبُ، مريحاً للأعصاب. كنتُ أجلسُ، وأحتسي الشاي، وأصغي إلى رفرفة أجنحة الحمام، التي وقعت في شباك السقوف، وإلى تحيّات المسافرين المرحِّبة والمودِّعة، وصفير الحارس، وجلبة القطارات. في المحطة، حيث المسافرون والأصدقاء والعائلات، ينتظرون، كنت أشعر بالرّاحة. صندوق البريد في الزاوية البعيدة هو بداية الخيط الذي يربطني بأحبّتي، خلف البحار. كان ضجيج الحشد والهرج والمرج والصفير، يساعد على طرد الأشباح التي تلاحقني. في الأمكنة العامة، أو أمكنة الترانزيت، مثل غرف الاستقبال أو الضيافة أو الانتظار، كنتُ أشعرُ بالسّعادة، معلّقةً هناك بين الحاضر والمستقبل.

حين سمعتُ أزيزَ الرصاصة المتجهة إلى رأس إحدى السجينات اللواتي أطلق سراحهنّ، وصرختها الرهيبة، «آه، يا الله!» توقّفتُ عن البحث عن الموت. جفّفتُ وجهي وقلتُ للجدران القذرة: «ليلى، سأسمّيها ليلى». أخرجتُ الناي من صرّة ملابسي، وبدأت أعزفُ لحنَ موسم الحصاد. سلمى، بيديها وقدميها الناعمتين، أنجبت ليلى، في ليلة مضيئة لطيفة. منذ تلك اللحظة، لم أنبس ببنت شفة، أو أشم رائحة النوم. كنتُ أكتفي بالجلوس في غرفة السّجن المظلمة، وأتكئ على الحائط، وأتأمّل السّماء، من النافذة العالية، المحاطة بالقضبان. إذا كان ثمة من ضياء فوقها، أعرف أنّ هذا هو الخامس عشر من الشّهر العربي، حين تتحوّل النسوة إلى غيلان يلتهمن المسافرين، وتبدأ دورتي الشهرية، وأروح أبحث عن قطع نظيفة من النسيج. كنتُ أبقى متكورةً هناك في الظلام، حتى أنّ السجينات كنّ ينسين أنّني ما زلتُ مستيقظة، ومازلت أعاني. في إحدى الليالي، سمعتُ نورا تقول لمدام لمعة: «هل تعتقدين أنه سيأتي يوم وتسامحني سلمى؟»

«نيّتك سليمة»، قالت مدام لمعة.

«أمران أحلاهما مرّ مثل العلقم».

«سوف تعتادُ المذاق»، قالت مدام لمعة.

«قلتُ في نفسي لو أنّ شفتَي طفلتها لمستا حلمتيها، لما كان بمقدورها أن تنساها البتّة. إذا رضعت منها سنةً واحدة، فلن تستطيع أن تتركها وتذهب». قالت نورا.

«لكنها كانت ستجد متعة كبيرة في العناية بطفلتها لبعض الوقت»، قالت مدام لمعة.

«ليسامحني الله، دفعتُ نقوداً لنعيمة كي تأخذَها على الفور».

نهضتُ ورميتُ نفسي على نورا.

«ما المشكلة؟» قال جرّاح التجميل.

بعد أن استأجرتُ عند ليز، ذهبتُ إلى الطبيب للحصول على موعد مع اختصاصي. استغرق الأمر خمسة أشهر لأحظى بموعد، وقد ربط هذا الانتظار لساني. استلّ قلمه الفضّي من جيب مريوله الأبيض، وفتحه سريعاً: «ما اسمكِ؟»

«سلمى الموسى»، قلت.

أشعل مصباح مكتبه وقال: «ماذا يمكن أن أفعل من أجلك؟»

ضممتُ ثديي.

«هل تريدين تصغير حجم الثديين؟» قال.

كلما كنت تحت الضّغط، تراجعت إنكليزيتي. «كلاّ، تصغير الحلمتين»، قلتُ.

«هل تعنين تصغير الحلمتين»، قال، وأشار على الممرضة أن تقف بالقرب منّي. «دعيني ألقي نظرة».

فككتُ أزرارَ قميصي، لكنّني لم أخلعه، ثم حللتُ أربطة حاملة النهدين، وسحبتها عبر كمّي القميص، حتى حرّرتها. وقفت حلمتاي منتصبتين، سوداوين وطويلتين وسط دائرة من شعر أسود طويل.

وجّه المصباح باتجاه النهدين، ثم لمس الحلمتين بإصبعه الباردة، وشرع يقيسُهما. نظر إلى الممرضة، ثم إليّ وقال: «ليس

ثمة خلل في حلمتيكِ. صحيح أنّهما أطول بسنتيمتر ونصف من المعتاد، لكنهما تبدوان عاديتين بالنسبة إليّ».

«أريد تصغيرهما، بترهما، من فضلك، دكتور»، قلتُ بصوت مرتعش.

«لماذا؟» سألَ، موجّهاً المصباحَ إلى وجهي.

«ألا ترى حلمات النسوة الأخريات. حلمتاي دائماً نافرتان وسوداوان. اشطرهما. هذا أفضل بكثير»، قلتُ، وعيناي تغرورقان بالدموع.

متحدّثاً إلى الممرضة، قال: «أريدُ أن أحيلها مباشرةً إلى المعالجة النفسية»، وأطفأ المصباح.

زرّرتُ قميصي، قبل أن أعقد حزام حمّالة الصدر وأعيدها إلى مكانها. حين نظرتُ إلى الأعلى، كان الطبيب والممرضة كلاهما ينظران إليّ بتمعّن كبير.

«أنا لستُ مجنونة»، قلتُ، محاولةً أن أسوّي حمالة الصدر، وأغطّي نهدَيّ.

في اليوم التالي، أنجزتُ، بسرعة وهدوء، كلّ ما مرّره ماكس لي، حرصاً على الاحتفاظ ببعض الطاقة من أجل عملي المقبل. كان ذلك صعباً، لأنّ ماكس كان ميّالاً إلى الكلام. شرع يمجّد سيارة روز رويس عتيقة رآها مركونة في موقف السّيارات. «أوه! إنّ آباءنا وأجدادنا أكثر مهارة. إذا نظرتِ إلى داخل تلك السيارة، فلن تجدي أثراً لقطبة واحدة، وثمة صندوق خاص لفرشاة،

واسفنجة الحذاء، موضوعة بأناقة تحت لوح. أوه! لقد كنّا سادة ولوردات. انظري إلينا الآن. انظري الآن».

«كنتم تحكمون العالم»، قلتُ مقلدةً بارفين.

«نعم، لم تكن الشمسُ تغربُ عن الإمبراطورية البريطانية»، قال، معدّلاً حاشيةَ بنطلونٍ على المقاسِ الصحيح.

«بارفين تقول إنكم حكمتم أشجارَ البلح والصنوبر وجوز الهند»، قلت.

«نعم، جوز هند مثلكم»، قال، ناخراً.

«أنا لستُ جوزة هند»، قلتُ.

«نحكم الآن فيلةً بيضاء ومباني يكسوها اللبلابُ».

بصحبة القسّ ماهوني، لم أكن أشعر بأنني غريبة البتة. أتذكّرهُ بنظّارته الصغيرة، وابتسامته العريضة، وحكاياته الطريفة، وحنانه اللانهائي. ومع أنّه كان رجل دين، فقد كان لطيفاً ومتفهّماً. قال إنني بدوتُ مثل جروٍ خائف، في ذلك الصباح، فابتسمت.

«جرو أسود»، قلت.

«نعم، ثمة بعض الجِراء السوداء حولنا». أمسك بيدي الباردة وقال: «لا تقلقي. سوف نُخرجكِ من مركز الاحتجاز هذا قريباً». استرددت يدي وشكرتُهُ. لاحقاً، علمتُ أن الآنسة آشر، مع الراهبات والقس ماهوني، رفعوا باسمي دعوى على الحكومة البريطانية. كانت أوراق التبنّي قانونية، لكنّ سلطات الهجرة

شكّكت في أن تكون مزوّرة. أخبرتني الآنسة آشر أن القسّ ماهوني دافع عن قضيّتي على نحو جميل، وأعطتني نصّ خطبته. بحثتُ عن معاني كلماته في (قاموس اكسفورد عربي-إنكليزيي) وقرأتُها، وأعدتُ قراءتَها، حتى بدأت تتبلّور وتصبح مفهومة. «حتى إذا كنتم تشكّكون في التبنّي، وهذا في ذاته أمر سخيف، يجب أن تُمنح حقّ اللجوء الاجتماعي والسياسي أو الدّيني- سمّوه ما شئتم. نعم، ستؤسسون لسابقة، ولكن مئات، بل آلاف من النسوة يُقتَلْن كلّ يوم. يجب أن تمنحوها ملاذاً، لأنّكم إذا أعدتموها، فسيطلقون عليها النار، حالما يرونها».

أسرعت إلى التواليت، وغيّرتُ ملابسي، مرتديةً تنورة سوداء طويلة، وقميصاً أبيض مطرّزاً، وحذاء مسطّحاً. ثمّ ربطتُ شعري، ولففتُه على شكل كعكة، ووضعتُ ماكياجاً خفيفاً. بدوتُ مثل صورتي القديمة، تلك الراعية من الحمى. الاختلاف الوحيد هو التجاعيد، كأنّ ديكاً داسَ وجهي، في طريقه إلى قفصه، فترك شبكةً من الخطوط خلفه. دلّلتُ نفسي بسندويش تشيز برغر وقنينة كوكاكولا، وفكّرتُ في العمل المسائي، وحضرت نفسي نفسياً، كما تقول بارفين، ثمّ توجّهتُ إلى الفندق. استجمعتُ بعض الشجاعة وفتحتُ الباب الثقيل القديم. استقبلتني موظّفة الاستقبال بإحدى ابتساماتها الآلية، وقالت: «يجب أن تقابلي السيد رايت، مدير البار». أومأت برأسي. «في المرّة المقبلة، استخدمي الباب الجانبي إلى البار». فتحت البابَ على مكتبٍ عتيق مغبر، ملآن بصناديق النبيذ، والكؤوس البلاستيكية، والحصر، وفي وسطه

يجلس السيد رايت، متأنقاً ومزيّناً، مرتدياً طقماً أسود صرفاً، ورباط عنق قصيراً فراشيّ الشكل. كان يتحدّثُ عبر الهاتف مثل الأرستقراطي القديم في دعاية تلفزيونية، الذي يوصي على سجاجيد فارسية، ويطلب شحنها جواً، من آخرِ حدود المعمورة. بدا السيد رايت مثل مرافق أحد السادة النبلاء، لكنه كان يتصرّف كأنّه خارج دوام الخدمة. وضعَ السمّاعةَ في مكانها ونظر إليّ، أقف في منتصف المكتب الصغير، وأمسكُ بيدي حقيبتي السوداء الرخيصة. عيناه الرماديتان أطلقتا عليّ سهامَ عدم الرضى.

«صباح الخير، يا سلمى»، قال ببطء، حذراً من أن لا يُخطِئ في لفظِ اسمي.

«مساء الخير، سيّد رايت»، قلتُ.

«ناديني آلن، من فضلك». وبكلتا يديه مسحَ شعره المرطّب بمثبت الجِلّ، وفركَ أنفَه وقال: «أنتِ مبكّرة اليوم. اذهبي وانفضي الغبارَ عن الكؤوس والقناني في البار. سأدفعُ لكِ نقداً ثلاثة جنيهات في السّاعة».

«شكراً»، قلتُ. كنتُ على وشكِ التعثّر، والسقوط.

بحرٌ من القناني والكؤوس يمتدّ أمام ناظريّ. ارتديتُ القفّازين المطّاطيين اللذين سلّمهما إليّ، وبدأت أمسحُ الكؤوس. «لا تلبسيهما وأنتِ تجمعين الكؤوس، فقط البسيهما خلف البار من فضلكِ». قال. بعد نصف ساعة، بدأ الزبائن بالوصول. كان السيّد رايت مع شخص آخر اسمه باري يخدمان الزبائن خلف البار، أما أنا فتابعتُ مسحَ الغبار والتلميع. رجالٌ، ببزّات رمادية، وقمصان

وردية، وياقات مخطّطة، ووجوه تعبة، يشربون ويبتسمون. إنّهم يمصّون سيجارهم، مالئين المكان الضيّق برائحة التبغ. في سحابة من دخان، وبين وقع الكؤوس والثرثرة، أصبحت غير مرئية بين الزبائن. كانوا يرون يداً سوداء صغيرة تأخذ الكؤوسَ الفارغة لتفسح مساحةً أوسع على الطاولة لأيديهم ومرافقهم.

«السماءُ تمطرُ بغزارة»، قلتُ للقسّ ماهوني ذات صباح. كان يجلس بالقرب من المدفأة. المنزل الذي ورثه عن والدته في برانسكوم رحبٌ وعتيق، ويحتوي على «مدفأة من العصر الفكتوري. كانت مغرمة بهذه المدفأة». خلع معطفه المطري وحذاءه، وبسط ساقيه النحيلتين باتجاه ألسنة اللهب. «أنتِ تصرّين على المغادرة»، قال، فاركاً يديه، وناظراً إلى الجمر. «اشتريتُ لكِ بطاقة عودة إلى إكستر كما وعدت»، قال. أعطاني سبعين جنيهاً مصروف جيب، وقاموس أكسفورد للإنكليزية الراهنة، وعنواناً لنزل رخيص تديره سلطة محلية. «لقد كتبتُ لهم، وهم يتوقّعون وصولكِ»، قال من دون أن ينظر إليّ. «وبطاقة عودة تسمحُ لكِ بالعودة إذا واجهتكِ مشكلة ما».

البطاقة، ذات اللّون الأصفر على الحوافّ، لا تزال في صندوقي الصيني الحريري- الذي أهدته بارفين إليّ في عيد ميلادي- مع رسالة أمّي، وخصلة الشّعر، وأمشاط نورا الصدفية، وقارورة العطر، وقلم حمرة من ماركة ماري كوانت، وقلادة فرانسوا الفضيّة من الفيروز. ارتديتُ ملابسي، وحزمتُ أشيائي في حقيبة صغيرة أعطاني إياها. نقلني بسيّارته إلى أقرب محطة

للقطار. كانت السّماء تمطر بغزارة، حين وصلنا إلى هناك، ففتح معطفه المطري، ودعاني إلى المزيد من الاقتراب، وغطّى رأسي وجزءاً من جسدي، وهرع باتجاه الرّصيف. كانت تفوح منه رائحة الكتب والنيران المفتوحة والخزامى والعسل والنبيذ. حين أطلق الحارس صفّارته، ابتعدتُ عنه ثم عانقته، وقفزتُ إلى القطار. «اعتني بنفسكِ»، كانت كلماته الأخيرة لي.

لم يسبق أن سافرتُ في قطارٍ. لحقتُ بسيّدة عجوز وجلستُ قربها. «التواليت، من فضلكِ»، قلتُ، فأشارت إلى بابٍ زجاجي أوتماتيكي. وجدتُ العلامة، وفتحتُ الباب، ثم أغلقتُهُ، وطويتُ غطاء كرسي المرحاض، وجلست عليه وبكيت.

حليب وعسل

مع الملء المتواصل لغسّالةِ الصّحون خلف طاولة البار، بدأتُ أرى لمعان الكؤوس، وليس الكؤوس ذاتها. كانت رائحة المنظّفات والبيرة والنيكوتين والأنفاس تملأ فضاء البار الصغير. تمطيتُ وشددتُ ظهري وأعطيت نفسي بعض التعليمات: لا تعبري البحر! لا ترحلي! غير مسموح لكِ أن تفعلي الليلة. تجاهل عقلي الضحكَ والصراخَ والدخانَ والرائحةَ العفنة وسافر إلى السّجن الذي كنتُ أنظّفه مع نورا كل يّوم خميس. بمكنسة وسطلين من الماء وممسحة وبعض المعقّمات، كانت نورا تكنسُ الغرف، وأنا أركع وأمسحُ الأرض. ترمي نورا حمّالةَ صدر مدام لمعة في الهواء، وتضحك بصوتٍ عال، وأنا أُبقي رأسي منخفضاً، وأحاول أن أزيلَ الوسخَ من شقوق الإسمنت. جالسةً على الأرض، تلكزني الحارسةُ بقضيب في يدها وتقول: «هل تتركين الزوايا للعناكب؟»

«لا شيء، لا شيء يخيفني مثل العناكب»، قالت نورا.

«جيّد، سأجلب لكِ سطلاً مملوءاً بها»، قالت الحارسة.

كانت بارفين تقرأ مجلةً ذات ورق مصقول حين أخبرتهُا ما

قاله لي الدكتور تشارلز. عاملة التنظيف في النزل الصغير قالت إن المهاجرين يعيشون على حساب هذا البلد، وإنّ «الطبيب قال إنني أجنبية وأهدر المال العام». نفخت غرّتها عن جبهتِها، وطوت المجلّة بأناقة، ووضعتها في مكانها على الرفّ، مرّرت يدها على الكساء الهندي الذي ترتديه، ومضت تصعدُ الدرجَ، ممسكةً بيدي. دفعت الباب وفتحته، ودخلت إلى غرفة الطبيب. تجاهلنا وتابعَ كتابتَه.

«انظر إليّ!» قالت بهدوء. «فقط انظر إليّ!»

نزع نظّارته ونظر نحو الأعلى.

«قالت لك إنها تعاني سرعة خفقان القلب، وتعرّقاً ليلياً، ونوماً قليلاً، أليس كذلك؟»

«نعم، . . .»

لم تدعهُ يقاطعها. «تسمّي نفسَكَ طبيباً! هذه المرأة مريضة، وأنتَ أرجعتَها من دون دواء، خائفاً أن تنفق من ميزانيتِكَ الثمينة».

بدا صغيرَ الحجم خلف كرسيه، بسبب جسمِهِ الممتلئ وقامته المشدودة، لكنّه حين انتصب واقفاً، بدا أكثر طولاً من بارفين.

«اجلسْ واسمعْ»، قالت بهدوء، فعاد إلى كرسيّه.

«الآنسة آشر تتخيّل أن رجالاً يحملون البنادق يتبعونها في إكستر»، قالت.

«ليس في أكستر، في النُزْل فقط»، قلتُ.

«لا بأس، هل تودّ أن تتصرف على نحو لائق، وتصف دواءً كافياً لها، على مدى ثلاثة أشهر مقبلة؟»

بدأ الطبيبُ يكتبُ على ورقة صغيرة.

«هذه هي! هّيا، اخرجا من هنا!» قال، مسلّماً الورقة إلى بارفين.

«هل تظنّ أننا نحن الباكستانيين الأوغاد نهدر المال العام أيضاً. حسنٌ، أحمل لك بعض الأخبار. نحن مواطنتان بريطانيتان، ولن يطول الوقت حتى ترانا نجلس في مقعدكَ هذا».

شعرتُ ببعض الحماسة وقلتُ لبارفين: «هل يجوز أن أدرس الطب؟»

«تريدنا أن ندفع ضرائب. سندفعُ لك الزّبالة، لأنّ هذا ما نتقاضاه الآن». نفخت غرّتها عن جبهتها، وسحبتني، ومشت.

وسمعتُ الدكتور يصيح: «خذوا كل شيء! أهلاً وسهلاً بكما هنا... معجزات... لا مال... شفاء... نوبة قلبية... أفضل العيش في الباكستان».

«أهلاً وسهلاً بكَ أنت إلى هذه الزبالة»، صرختْ بارفين.

موظفة الاستقبال المذهولة أمرتنا بالخروج وأوصدت الباب.

عينا بارفين العسلّيتان كانتا تغرورقان بالدمع عندما وصلنا إلى الصيدلاني. ناولتْهُ الوصفةَ واختبأتُ خلف رفّ مرصوف بالمراهم للحماية من أشعة الشّمس.

«أنا أريدُ سمّ فئران». قلتُ.

«أوه! اخرسي من فضلِك!» قالت من خلف بعض الرفوف المكتّظة.

«فلوكستين عشرون ملغ وكريم ماركة (E45)»، قال

الصيدلاني، وهو من طائفة السّيخ، وابتسم.

*

نظَرَ آلن إليّ وقال: «يبدو عليكِ التعب. ربما من الأفضل أن تعودي إلى المنزل. إنّه يومكِ الأوّل، على أيّة حال».

قلتُ إنّني على ما يُرام، لكنني أريدُ الذّهاب إلى الحمّام. حين وصلتُ إلى هناك، نظرتُ إلى وجهي في المرآة: خصلات شعر تساقطت على جبهتي المندّاة عرقاً، وعيناي غارتا في محجريهما، وشحب وجهي. رفعتُ شعري إلى الوراء، وغسلتُ وجهي بالماء البارد، وجفّفتُه بالمنشفة. صعدتُ وبدأتُ أجمعُ الكؤوس ثانيةً. حين غادر آخر زبون في البار، أشار إلي آلن والكأس في يده. «جرّبي هذا النبيذ». قال.

«شراب عادي من فضلك». قلتُ.

رفع حاجبيه وقال: «لا تشربين؟»

«أنا تعبة، هذا كلّ ما في الأمر». كذبتُ.

سكب بعض المياه المعدنية في كأس رقيقة، ووضع فيها قطعة جليد، وبعض الليمون، وناولني إياها. جلستُ على المقعد الصغير وشربتُها دفعة واحدة.

«خذي، هذا اثنا عشر جنيهاً»، قال، وناولني النقود.

أدركتُ أنه التزم بالاتفاق الأصلي وأنه لم يحسب الوقت الزائد الذي قضيته.

«شكراً، آلن»، قلتُ، «هل هناك من شيء تريديني أن أقوم به قبل أن أذهب إلى المنزل؟»

«نعم»، قال، «من فضلكِ، افرزي جانباً الكؤوسَ النظيفة وضعيها فوق الرف».

موجة وراء موجة، خوفٌ مثل تيّار كهربائي اعتاد السريان في جسدي كلما استلقيتُ في السرير المعدني، محولاً إياي إلى كومة من العظام واللحم، وإلى دجاجة مذبوحة، تنتفض وتتمرّغُ. أعانق نهدَيّ، وأهزّ نفسي، مرددةً رسالةَ أمّي، حتى يرفعَ الذعرُ قبضتَه عن داخلي، ويندفعَ الهواءُ النقيُ إلى الغرفة، وأطفو من جديد، وأبدأ بالتنفّس. كنتُ أعرف كيف تشعر الدجاجة حين تحشرج قبل أن تموت.

عدتُ إلى النزل تعبةً، منهكةً، كأنّني تسلّقتُ جميعَ الجبال المحيطة بالحمى. في اللّيل، لم أكن أفكّرُ في احتمال مغادرة غرفتي. كنتُ أستلقي في فراشي وأفكّر. ماذا لو اكتشفت عائلتي مكاني؟ ماذا لو أنّني أخرجُ للبحث عن عمل؟ ماذا لو كنت مريضة، مريضة جدّاً؟ كنتُ أحكم قبضتي على رسالة أمّي، وآلة الناي، وخصلة شّعر ليلى التي قصّتها لي نورا، وأتقلّبُ في فراشي. كانت النافذةُ صغيرةً جدّاً، والسّريرُ صغيراً جدّاً، والعالم صغيراً جدّاً، وحين أموتُ، سيطبِقُ قبري عليّ لأنّني مذنبة.

كانت الساعةُ ما بعد منتصفِ اللّيل، حين عدتُ إلى المنزل، ينتابني ألم فظيع في الكتفين والظهر والذراعين. «كل مامني يوجعني»، كانت أمّي تقول، وتشربُ لسان الثور المغلي. أقفُ عند أعلى نقطة في الممشى الذي كان الطريق الرئيسية منذ وقتٍ طويل، وأتكئ على الدرابزين الأخضر، وأحدّد موقعي. هذا البلد محقّ في

رفضي، ومحقّ في رفض حضني، لأنّ ثمة شيئاً ما في داخلي يرفضُه، ولن ينتمي إليه أبداً. أن أتعرّف في البدء على أربعة جدرانٍ مغطاة بصفائح معدنية، لم يساعدني على الشعور بالانتماء. لو أنّني هبطتُ بالمظلّة في برانسكوم، حيث يعيش القسّ ماهوني، في ذاك الوادي الدائم الخضرة، والمؤدّي إلى البحر، لأحببتُ إنكلترا. أصبحنا مثل صديقين قديمين الآن، اعتادا غضب أحدهما على الآخر. يجب أن أغفرَ لإنكلترا تحويلي إلى طحلبٍ ينمو في الشقوق، ولمنحي حريّة التسكّع في مدنها، بين الخامسة والسابعة مساءً فقط، ولحبسي في فضاء ضيّق لا يتعدّى المسافة بين الكعب وأصابع القدم، ولكن يجب أن تغفر لي إنكلترا مساندتي لإيطاليا في كأس العالم، أقرب بلدٍ وجدتُهُ إلى بلادي القديمة.

مشتْ بارفين عبر الباب الزّجاجي، ومشيتُ خلفها مباشرةً. «لدي مقابلة بعد الظهر»، قالت للفتاة الشابّة التي تديرُ قسمَ خدمة الزبائن.

قاستها الفتاةُ من الأسفل إلى الأعلى وقالت: «انتظري هنا من فضلك».

شابٌ يرتدي بزّة سوداء، وقميصاً أسود، وربطة عنق رمادية، مشى باتجاهنا. البزّة التي خطتُها لبارفين بدت فضفاضةً ورثةً بعض الشيء، ولكن، بظهرها المشدود وذقنها المرفوع، جعلتها بارفين تبدو ثمينةً وأنيقةً.

«مارك باركس، مساعد المدير»، قال ومدّ يدَه اليسرى.

صافحته بارفين وقالت: «بارفين خان».

«آنسة خان، من هنا، من فضلك»، قال، وأشار باتجاه ردهة طويلة.

لم أكن أعلم ماذا علي أن أفعل هل أذهب معها، أو أنتظرها في الخارج؟

وضعت يدها خلف ظهرها، ولوّحت لي بالذهاب.

وقفتُ هناك، أنظر نحو الردهة، وأتساءل إذا كانت بارفين على ما يرام. كنتُ بأمسّ الحاجة للذهاب إلى الحمّام، لكنني لم أكن أجرؤ على التحرّك من مكاني، خشية أن لا أراها وهي خارجة. «هل بإمكاني مساعدتكِ؟» سألت موظّفة خدمة الزبائن.

«نعم. إذا خرجت صديقتي، قولي لها، من فضلكِ، إنني ذهبتُ لأبول».

«سأقول لها إنّك ذهبتِ إلى حمّام السيّدات»، قالت، وكبست زرّ آلة النقود. تحرّك جارورٌ صغير واندفع إلى الخارج.

فيما كنتُ أشاهدُ (آمال كبيرة) التي كتبها دكينز على التلفاز، فتحت قاموس أكسفورد وقرأت إهداء القسّ ماهوني: إلى سلمى، لتمنحكِ هذه البلاد السعادة، ثم فتحتُ على الحرف (E) وقرأت: «Expectation» وهي كلمة تعني أن تظنّ أو تعتقد بأنّ شيئاً ما سيحدث، أو تشعر بالثقة أو الرغبة في تلقّي أمرٍ ما. كانت ليز تتوقّعُ أنّ هذه البلاد لن تتغيّر، وأنّ ثروتها لن تنقص، وأن الشّمس لن تغرب عن قصر البجع. كانت ترغب في أن لا يُباع منزلها

الفخم، وأحصنتها وأن يكون خدمها أجانب ومطيعون. كانت غوين تريد أن تثقّفَ الأطفال جيّداً، من أجل أن يحبّوا أمّهاتهم، ويتّصلوا بهنّ، ويزوروهنّ مراراً، ويضمّوهنّ. أنا توقّعتُ أن أجد حليباً وعسلاً متدفّقين في الشّوارع، والسعادة تكمن خلف كلّ زاوية، ومفاجأة سعيدة، بزواجٍ سعيد، وثلاثة أطفال يسعدون قلبي. بارفين توقّعت الحصولَ على عمل وزواج واستقرارٍ وعائلةٍ تقبلها كما هي. قبل أن تقرّر الهرب، كانت بارفين تتلقّى تعليماً جيداً، درست في مدرسة حكومية ونجحت في الامتحانات النهائية، وتفوّقت في صفوفها، وكانت تكمل درجة في علم الاجتماع، في كلية متوسّطة. كانت تقول دائماً: «في البدء، بدا كل شيء ممكناً في هذه البلاد، بيد أنّ الهزة اللعينة لا تستمرّ وقتاً طويلاً».

كنتُ أقرأُ منشوراً عن بطاقة للاستلاف والدين، حين خرجت بارفين. رفعت لي إصبعها، وغمزت. عرفتُ أنّها حصلت على العمل. حين خرجنا عبر الأبواب الزجاجية، صرخت: «نعم! اللعنة! نعم!» وقفزَتْ في الهواء. «صديقتي البدوية، هذه مناسبة للاحتفال».

«عظيم، عظيم»، قلتُ وعانقتُها.

مشينا معاً، يداً بيد، إلى أفضل المقاهي، في المدينة. جلسنا على مقعدين، حيث بإمكاننا أن نرى الشّارع الرئيسي، عبر الواجهة الزجاجية العالية. بارفين قالت للنادل: «أريدُ شكولاته ساخنة مع كْرِيم، وحلوى الخطميّ ورقائق شوكولاتة».

خفض صينيتَه وقال «وأنتِ، مدام؟»

«أنا أرغبُ في حليبٍ مع العسل والزبدة».

«لا نعدّ ذلك، مدام».

شدّت بارفين تنّورتَها القصيرة نحو الأسفل وقالت: «حتماً لديكم حليب مع نكهة خاصّة».

«أجل، هذا صحيح. أيّ نكهة؟»

«اجعلها نكهة الكَرَاميل». قالت وابتسمت.

أمسكتُ يدها وقلتُ: «أنا سعيدة من أجلك».

سحبت يدها بعيداً وقالت: «لا تمسكي يدي أو تلمسيني في العلن. قد يظنون أننا من كوكبِ السّحاق».

حين وصلت الشوكولاته الساخنة، بدت ضخمة جداً، مع رغوة الكريم البيضاء في الأعلى، وقطع هلامية وردية صغيرة، مثل ندف قطنية، تطفو في الكأس الطويلة، مع شوكولاته موضوعة في إناء خاص. تناولتْ لوح الشوكولاته وبدأتْ تأكلُ، وتفتتت فوراً على الكريم الأبيض، ومنديل المائدة.

كان المقهى دافئاً، وساطعاً، ونظيفاً وأنيقاً ومكتظاً بالزبائن. أمّا أشعّة الشّمس فتسلّلت إلى الطاولة، وأضاءت المياهَ في الأباريق. عبقُ القهوة وأريج الكراميل، والبندق، والجوز والحليب السّاخن، ملأ الجوّ. أخذتُ رشفةً من فنجاني المملوء بالحليب والعسل، وكان له طعم الجنّة. كنا ننظرُ إلى المارّة ونبتسم، حتى أن بياض أسناننا بدا ناصعاً وأبرزته بشرتنا البنّية، والغَسَقية اللّون. قبل كلّ رشفة، كانت بارفين ترفعُ كأسَها، وتحيّي مستمعاً متخيّلاً،

ولم أجد بدّاً من مشاطرتها ذلك. هكذا، جلسنا هناك معاً، سوداوين، موظّفتين، بشاربين أبيضين من الكريم، نغمزُ ونلوّح للمارّة.

في ذلك الصباح، رمى ماكس نظرةً باتجاهي وقال: «تبدين منهكةً هذا الصباح، يا بنت. ماذا دهاكِ؟»

«سهرت البارحة»، قلتُ، ودسستُ خصلةً من شعري، خلف أذنَيّ.

«من هو؟ أحد هؤلاء العرب؟»

هززتُ برأسي.

«هل تعرفين ما الذي يزعجني فيهم. يأتون إلى هنا كالجيش، يشترون المنازل والسيارات ثم يبيعون سياراتهم ومنازلهم، من دون أن نستفيد نحن الإنكليز الذين نعمل بجدّ، فلساً واحداً. لا يذهبون إلى وكلاء أو تجّار عقارات، كلاّ، إن عمليات البيع و الشراء محصورة في ما بينهم».

«لا أعرفُ أحداً من العرب هنا»، قلتُ، وجلستُ.

«هذا غريب. ولِمَ لا؟»

كنتُ أضيق فستان سهرة راقصة من المخمل المغضن. لونه أرجواني، ولكن حين يسقطُ عليه الضوءُ، يصيرُ لونه أخضر فاتحاً، ثم غامقاً كريش الطاووس. يمكنني أن أتخيّل مالكتَه: شقراء طويلة، بقامة متناسقة، وساقين طويلتين، تنتعل خفّ باليه مسطّحاً من الساتان، شعرُها ملفوف بربطة مخملية، وشفتاها قرمزيتان،

وأقراطها شلالٌ من اللؤلؤ. إنها تتكئ على كنبة أثرية في بيت ريفي فخم، ترتشف الشمبانيا، محاطة بأشهر عازبي أوروبا، الذين يقبّلون يدَها سمعاً وطاعةً. خدّاها المتورّدان هما الإشارة الوحيدة إلى شعورها بالغبطة. إنها تبتسمُ مثل إلهة مصنوعة من بورسلان وردي، غائم وناعم وثمين.

«أنتِ لا تستمعين إليّ، أليس كذلك؟»

كان ماكس يحمل إبرة بين شفتيه الغليظتين. عيناه تبدوان تعبتين ومتورّمتين تحت نظّارته السّميكة، وشعره الأبيض يخفّ. صورةٌ لعائلته ملصقةٌ بالحائط. قدمُهُ على دوّاسة آلة الخياطة، وغداؤه المؤلّف من سندويش السّردين والبرتقال موضوعٌ في كيس بنيّ ورقي، على الأرض خلفه. الرائحة الحادّة للسردين المحفوظ بالزيت كانت تملأ أنفي. يقولُ بكلّ كبرياء: «السردين المحفوظ بالماء المالح ليس لي. أفضل المحفوظ بالزيت». أحياناً، وفيما أكوي بالبخار فردتي بنطلون، كانت تفوح رائحة سردين ماكس.

«لقد انتهيتُ من هذا الثوب، هل أعلّقه؟»

«نعم، مع الماركة، يا بنت. اكتبي «شارون» عليه».

اسم الإلهة هو شارون. ليس صوفيا، أو ألكسيا، أو نادين، أو ناتشا. الإلهة يجب أن لا تكون سالي، سلمى، شارون أو تريسي، فهؤلاء عصافير لهنّ ريش مختلف، ريشٌ تم تحديده بطول وعرض معينين. الثوب لشارون! لا أصدق هذا!

قرّرتُ أن أنفقَ جنيهين على غدائي اليوم، فذهبتُ إلى مقهى في أحد أقسام متجر كبير، وطلبتُ حساءً، وقطعتين من الخبز،

وكأساً من عصير البرتقال. هذا كلّه بلغ سعره جنيهين وسبعين سنتاً. أخذتُ صينيّتي وجلستُ في الطابق الأعلى المطلّ على المدخل. تلقّفت مجلّتي (ماري كلير) ذات الأطراف المتأكلة، وبدأتُ أقرأ نصّاً عن وقاية البشرة في الصّيف، حين يكون المرء على الشّاطئ. شعرُ عارضةِ الأزياء طويلٌ، طويلٌ جداً وأشقر جدّاً، وقد شعّ تحت أشعة الشّمس مثل ذهب ذائب. بشرتُها ملساء، مشدودة، وقد لفحتها الشمس، وحلمتاها مخفيتان. أيّ شاطئ تقفُ عليه. لون الرّمل أبيض كالسكّر، والبحرُ فيروزي فاتح. إنه البحر الأبيض المتوسط حتماً. شربتُ حسائي المصنوع من الجزَر، ونظرتُ إلى الأعلى ورأيتهما. الدكتور جون روبسون، معلّمي في الجامعة، دخل بصحبة امرأة صغيرة الجسم، شعرها أشقر قصير، وعيناها زرقاوان كبيرتان، وقوامها نحيل، مختبئ تحت قميص فضفاض، فوق جينز أزرق. كانت تتمسّك به فيما كان يختار الطعام عن المنصّة. كنتُ قد قابلته مرّة واحدة فقط عندما ذهبتُ إلى الجامعة للتسجيل كطالبة بنصف دوام. ركّزتُ على حسائي، وتابعتُ رشفه. جلسا معاً، كلّ يحمل صينيةً مزيّنةً بالفواكه والسَلَطة. تابعتُ النظر إلى العارضة التي التُقِطَت صورتها في منتصف الهواء، ويداها وساقاها منبسطة كأنّها عصفورٌ معلّق. تظاهرتُ بأنّني أقرأ. بطرف عيني رأيتُ أنهما جلسا وبدآ بالأكل. حزمتُ ما تبقّى من الخبز في منديل ورقي، ووضعته مع المجلّة داخل حقيبتي وأسرعت خارجة من الباب الزجاجي. كانت السماء تمطرُ رذاذاً خفيفاً. الكاتدرائية هادئة تماماً، لا يُسمع فيها سوى صوت الأرغن الحزين. استجمعتُ أجزاء نفسي المبعثرة ونظرتُ

إلى الألوان الباهرة للنافذة حيث الدّم يسيل على جبهة يسوع المرسوم بالأحمر والأزرق. مشيتُ باتجاه المذبح، ووضعتُ وسادةً على الأرض، وركعتُ مردّدةً: «ليرحم الله سلمى! أَزِلْ كربَها يا الله، وخفّفْ حملَها، واشرحْ صدرَها! وامنحْها نعمةَ النسيان!»

تمخطتُ ثم خرجت من الكاتدرائية الباردة. كان الرذاذُ الناعمُ لا يزالُ ينهمر في الخارج، ولأننا نتجاهله عادةً، ينتهي بنا المطاف وقد تبلّلنا تماماً. الأرصفةُ أيضاً مبلّلةٌ، وكذا الشوارعُ والنوافذُ. أحدّق في الضّياء الدافئ لأنوار الطاولات، خلف نوافذ الفندق المغبّشة على قارعة الشارع، وأهيّئ نفسي معنوياً لاستقبال غضب ماكس. تأخّرتُ أكثر من نصف ساعة. في اللحظة التي دخلتُ فيها، وأزلتُ الماءَ عن شعري، فاجأني ماكس بقوله: «كنتِ تبكين، أليس كذلك؟» لا كلمات غضب، أو تهديدات برميي خارج هذه المؤسسة الفخمة، وهذا البلد العظيم، لا مفردات من مثل أنتِ لا تحترمين ربّ عملكِ، ولا تلميحات بأنّ مئات الشبان الإنكليز سيفعلون كلّ شيء للحصول على عملكِ. بل اكتفى بالقول: «هلاّ ترتقين هذا الثوب، من فضلكِ». لم أستطعْ أن أنظرَ إلى وجه ماكس. أنا أستطيعُ تحمّلَ الكلماتِ الغاضبة، لكنّني لا أتحمّل اللطفَ. اللّطفُ لا أستحقّه. كان يجب أن يصرخَ في وجهي، وينعتني بالأجنبية السّافلة، ويرفسَ معدتي حتّى يسودّ جسدي وأفقد الوعي. اللطفُ لا أستحقّه.

عدتُ أدراجي إلى المنزل، واستحممت، وحلقتُ ساقيّ،

وغسلتُ شعري، وفركتُ جسدي بالمراهم المطرّية، ورششتُ مزيلَ الرّوائح، وأغرقتُ نفسي بالعطر. جفّفتُ شعري، وسرّحتُهُ، وارتديتُ الجوارب الطويلة السوداء، والتنّورة السوداء القصيرة، وانتعلت الحذاءَ ذا الكعب العالي، مع قميصٍ أبيضَ مهذّبٍ، ورسمتُ قوسَ قزح حول عينيّ. نظرتُ إلى المرآة فرأيتُ مهرّجاً ينظر إليّ. من الممكن أن يهاجمني أحدهم اللّيلة. قد أتعرّض لمحاولة اغتصاب جماعية، تنفّذها عصابة، وأُقتَل. يمكن أن يعثروا على جثّتي تحت شجرة الصفصاف قرب النهر. حين رأتني إليزابيث قالت لي: «سالي، تعملين كمومس هذه الأيام، أليس كذلك؟»

مرّر آلن يده على شعره الدّبق. «سلمى!» ثم تنحنح، «تبدين حلوةً جداً». في اللّيلة الماضية، استدعاني إلى مكتبهِ وألقى محاضرة عن موضوع المظهر. «زبائنُنا يحبّون أن يكونوا محاطين بنسوة جميلات. جميعهم يذهبون إلى السينما ويشاهدون فتيات مشروب الباكاردي الجميلات. يجب أن تحاولي تحسين مظهركِ، مثل . . . مثل مضيفة الطيران. كلّما أستقلّ طائرة، تتولّى خدمتي فتياتٌ عيونهن مكحّلة، وتنانيرهن قصيرة، وشفاههن حمراء مكتنزة».

كيف يمكنني أن أتحوّلَ إلى ساندي، إلى دمية بيضاء جميلة؟ أنا مجرّد شاندي، أو دمية سوداء، مومس سوداء، مكياجها ثقيل، ومستعدة لفكّ أحزمة حمالة صدرها وألبستها الداخلية. ألم أنمْ مع جيم؟ بيد أنّ غوين نصحتني بأن أبدو بمظهر السيّدة المحترمة.

«هكذا إذاً».

«آلن. ناديني آلن، من فضلك».

«نعم، آلن».

كان آلن يحبّ الشعرَ الأجعدَ والتنّورةَ القصيرةَ. إنّه يراني في مخيلته الخصبة، الآن، مضيفة طيران، تغازلُ وتتودّدُ، وتغطي جسده بالبطانية، وتقدّم له المشروبَ، وتقبّله بفمٍ مطلي بأحمر الشفاه. أدركتُ، من الطريقة التي كان يتابعني فيها بعينيه، أنّني لم أعد مجرّد أجنبيةٍ لا يمكن فهمها، بل امرأة، بجسدٍ ليس أبيض ولا زيتونياً ولا أسود. كأنّ لوني قد خَفَتَ واختفى، واستُبدِلَ بمنحنيات ولحم بضّ ووعودٍ.

منذ أن بدأتْ بارفين عملَها، لم أعد أراها إلاّ لماماً. كانت ساعةُ المنبّه المشتركة بيننا قد وضِعَت على السّادسة والنصف صباحاً. نستيقظُ ونتوجّهُ تباعاً إلى الحمّام العمومي، وننضمّ إلى الناس الواقفين في الصفّ، وننتظرُ خارج الباب. نرتدي ملابسَنا على جناح السرعة ونتناولُ دقيقَ الذّرة بالحليب، ننظّفُ أسنانَنا، ونسرّح شعرَنا، ونحضّرُ سندويشاً، ونضعه في الحقيبة. بارفين تحبّ الاستماعَ إلى أخبار الصّباح، وأسمعُها تعلّقُ بين الحين والآخر قائلةً: «يا له من متخلف! إنّه مجرّد غبي. يا لها من سخافات!» لم أكن أفهم الكثير، لذا كنتُ أكتفي بمطاردة رقائق الذرة في صحني وأستمعُ إليها وهي تزدادُ حنقاً وغضباً. كان وزنها قد بدأ يزداد قليلاً، مما جعل الطقم الذي خطته لها يبدو مناسباً

الآن. وقبل أن أخرج من الغرفة بثوان، كانت تنظرُ إليّ وتقول: «هل رأيت رجالاً يحملون بنادق في المدّة الأخيرة؟»

«لا»، أكذب.

«هل تأخذين دواءك بانتظام؟»

«نعم»، أقول.

تقول: «جيّد»، وتخطف حقيبتها وتخرج.

جلست مدام لمعة على فراش مطاطي، وأسندت ظهرها إلى الحائط، ناظرةً إلى قضبان النافذة. لا بدّ أن الوقت صيفٌ الآن، لأنّ الطقس حارّ تلك الليلة، والنداءات الحادّة لزيزان الحصاد تملأ الهواء.

«مدام لمعة، هل أنتِ عطشى؟ خذي، هذا بعض الماء»، قالت نورا، وقدّمت لها فنجاناً صغيراً من الماء الصافي، المأخوذ مباشرةً من جرّة فخّارية، مغطّاة بقطعة قماش رطبة.

«شكراً، باركك الله»، قالت، وشربت، ثم مسحت فمَها بطرف كمّها. رفعت جسدَها قليلاً، وعدّلت وشاحهَا الذي يغطّي شعرَها الأشيب، وقالت: «قياسُ حمالتي الصدرية غير متوافر في السّوق. إحدى صديقاتي حاكت واحدة لي. رأيتك ذاك اليوم ترمينها في الهواء».

«كنا نعبثُ بالأشياء فحسب. نكنّ لكِ كلّ الاحترام»، قالت نورا.

«وجدوني أقفُ عاريةً تحت ضوء عمود الكهرباء، في الشّارع الرئيسي. ظنّوا أنّي عاهرة. أنا لستُ عاهرة».

«نعرف ذلك. تبدين مثل سيّدة حقيقية محترمة. ولكن لماذا كنتِ تقفين في الشارع عاريةً؟» سألت نورا.

«أنجبتُ له خمسة أولاد، وكنتُ أنظّفُ بيته، وأطهو له وجبة جديدة كلّ يوم. كلّما تقلّب في فراشه، أفتحُ له قلبي. كلّ هذا لم يكن كافياً»، قالت، ومسحت العرق عن جبهتها.

«الرجالُ لا يشبعون، أليس كذلك؟» قالت نورا.

«بعد بضع سنوات، بدأ وزني يزداد. صار لي معدة في البدء، ثم بدأ الدّهن يتجمّع في أنحاء جسدي. بدأتُ أفقدُ شعري، والبريقَ في عينَيّ، والخفّةَ في خطوتي».

«ما كان هذا؟ سنّ اليأس؟»

«قال الطبيب، نعم، إنّه سنّ اليأس. انقطاع الطمث، وفقدان النوم، والأرق، والتعرّق الليلي، والشعر الأسود في كلّ مكان، فوق شفتي العليا، وحول حلمتَيّ، وعلى بطني».

«وماذا بعد؟»

«لم يعدْ ينام معي. صار يقول أنتِ مقرفة، ولم يرجع عن قراره البتّة. سمعتُ الألسنة العتيقة تلوك كلاماً على أنّه بدأ يبحثُ عن زوجة ثانية».

«خذي، هذا مزيد من الماء»، قدّمت إليها نورا.

شربت مدام لمعة، ومسحت فمَها ووجهَها بمنديل. أمسكت ثدييها الضخمين وقالت: «ماذا لو طَرَدتني من المنزل؟ ماذا لو أتت لتعيش معنا تحت سقف واحد؟ ماذا لو أنّه جعلني خادمةً لها، بعد كلّ هذه السنوات؟ ماذا لو أنّ أولادي أحبّوها؟ هكذا، بدأ الخوف

يجتاحني، وكنتُ أمضي الليل كلّه باحثةً عن حجارة ورمل في الأرز، وعن عصافير مهاجرة في السّماء، طلباً للأجوبة».

«زيزان الحصاد اللعينة تلك!» قالت نورا، ثمّ أضافت، «يهدّدوننا بزوجة ثانية، لنبقَ في أمكنتنا الدونية».

«في إحدى الليالي ذهبتُ إلى غرفة المخزن، وفتحتُ الأكياسَ واحداً واحداً، وبعثرتُ الأرزّ والطحينَ والسكّرَ، والعدسَ، والفاكهةَ المجفّفةَ، في كلّ مكان. خلعتُ ملابسي، وخرجتُ من المنزل، كما خلقني الله، ووقفتُ تحت سمائه الرّحبة، أنظر إلى النجوم. قال القاضي إن هذا فعل فاسق، وها أنذا، بلا صديق أو حبيب أو رفيق»، قالت، وأشاحت بوجهها.

«أتمنّى لو كنتُ أكثر سمنةً مثلكِ»، قلتُ.

غطّت وجهَها بكلتا يديها.

«الزيزان اللعينة!» صرخت نورا.

حين كان شعري الأسود يلامسُ مشروبَ الزبائن، كانوا ينظرون إلى الأعلى، بعيونهم المنتفخة، ويتلمّظون بشفاههم، ويبتسمون. كنتُ أردّ على ابتساماتهم بابتسامة مماثلة، وأجمعُ الكؤوسَ. كان ثمّة قلّة من النسوة يرتدن المكان، وكنّ محتشمات، أكثر منيّ. تعال وألقِ نظرةً على صدري، ومؤخّرتي المستديرة، وشعري الأسود الطويل، وكاحلَيّ النحيلين! ولمَ لا؟ رآني آلن أُبعد يدَ أحد العواجز بعيداً عن قفاي. لم تعجبه الحرية

التي أخذها الرجل العجوز. حين عدتُ إلى داخل البار لأملأ من جديد غسّالةَ الصحون، قال آلن: «ظلّي خلف طاولة البار. باري سيجمع الكؤوس». نظرتُ إليه شاكرة. خلف تلك الهيئة المرتبة، والشّعر الدّبق، ورباط العنق الذي على شكل فراشة، بدا آلن جنتلماناً حقيقياً. في نهاية الدوام، كنتُ أعدّ لنفسي فنجاناً من القهوة، وأجلس على أحد الكراسي العالية، وأخلعُ حذائي، ثمّ أضعُ قدمي على الكرسي. يوصد آلن الباب الخشبي الثقيل، ويفركُ يديه، ثمّ يجلب كرسياً آخر ويجلس.

«ليس من الضروري أن تنتعلي كعباً عالياً».

«أشكر الله!»

ابتسم وقال: «لو كان الأمر متعلّقاً بي، لسمحتُ لك بأن تنتعلي ما تشائين. إنّه مدير الفندق، السيد برايتويل. يهمّه كثيراً الصّورة التي نظهر فيها».

«لا يبدو هذا مناسباً جدّاً حين أجول بين أناسٍ سكارى. أحبّ ارتداء ملابس أكثر احتشاماً».

«إذا أتى السيد برايتويل إلى البار ورآكِ في هيئة مزرية، فلن يعجبه ذلك».

شربتُ ثفل الفنجان وأخرجت خفّي الرياضة من الحقيبة. كانت عودتي إلى المنزل تستغرقُ نصف ساعة مشياً. وكنتُ عادةً أستمتع بالرّحلة، لكنّها الليلة بدت مثل مهمّة شاقّة. لففتُ شال أمّي حول كتفيّ، وأقفلتُ سحّاب حقيبتي، ووضعتُ يدي على ذراع آلن. كنتُ شاكرةً له منحي هذا العمل، وإبقائي خلف طاولة

البار، بعيداً عن العيون والأيدي الثملة. «ليلة سعيدة، باري. ليلة سعيدة، آلن».

جلسنا في المقهى، نحتسي الشاي ونتجادل. بعد أن تركنا النزل الصغير، لم أعد أرى بارفين كثيراً. كانت مشغولة بعملها الجديد. كنتُ أراقب وجهها المشرق فيما كانت تمضغ نهاية قلمها البلاستيكي.

نظرت في عينَيّ وقالت: «لماذا الأدب؟»

«لأنني أحتاجُ إلى أن أعرفَ الإنكليزية. اللغة الإنكليزية».

«يمكنكِ أن تدرسي اللغة، من دون أن تقرئي الأدب».

«كلاّ، القصص جيّدة. تعلّمكِ اللغةَ وكيف تتصرفين كآنسة إنكليزية».

نفخت بعض الهواء نحو غرّتها وقالت: «لكن، سلمى، شهادة الإجازة في الأدب، لن تكون في اللغة الإنكليزية. لن تعلّمكِ الإنكليزية. إنّها عن ييتس، وجويس، والنسويّة، وشكسبير، قسماً بيسوع!»

ارتشفتُ بعضَ القهوة. «أريدُ أن أعرفَ شيئاً عن شكسبير. أريدُ أن أعرف عن الأشياء»، قلتُ، وشددتُ شحمةَ أذني.

«على مسؤوليتكِ. حسنٌ. دعينا نملأُ الاستمارةَ. اسمكِ؟ سالي آشر».

«لا. سلمى إبراهيم الموسى».

«هل هذا هو المكتوب في جواز سفركِ البريطاني؟ يجب أن

تكوني دقيقة، وإلا فستدفعين أقساطاً كما تدفع طالبة أجنبية». قالت وأوقفت رأس القلم فوق الخطّ، بعد خانة الاسم.

«لا، لكن أريد اسمي العربيّ».

«لا تستطيعين. سيرحّلونك»، قالت، وبدأت تكتبُ سالي آشر.

كنتُ أعرف أنّها تكذب، لكنني أبقيتُ فمي مقفلاً، إذ إنّها هي التي تملأ الاستمارة.

«إذاً، تريدين التسجيل للحصول على إجازة في الأدب الإنكليزي؟»

«نعم»، قلتُ ونظرتُ عبر النافذة إلى الغيوم البيضاء وهي تبدّل أشكالَها. كانت الريحُ القويةُ قد جمعتْها ثم بعثرتْها كلّها خلال دقائق.

«تحتاجين إلى عنوانٍ محترم. النزل العمومي ليس مناسباً».

نظرتُ إلى وجه بارفين، ورموشها المعقوفة، المسدلة، التي تخبئ عينيها العسليتين وفمها المكتنز، وجبهتها العريضة. الغيوم أضحت ملبدة وكثيفةً. بدا المقهى مظلماً بعض الشيء من دون شعاع الشّمس. ارتديتُ سترتي وقلتُ: «يجب أن أبحثَ عن مكانٍ آخر أعيش فيه».

«أريدُ أن أنتقل إلى مكانٍ يكون أقرب إلى عملي»، قالت ثم نفخت نحو غرّتها الطويلة المنسدلة.

«نحصل على بيت معاً؟» قلتُ.

«هذا سيكون غالياً جداً». قالت، وراحت تمضغُ نهايةَ القلم.

«هيا بنا»، قلت، «لا أريدُ أن ينهرني ماكس».

«سيكون مارك في حيرة من أمره وسيتساءل أين أنا»، قالت، ونظرت إلى مزقة ضيّقة من السماء الزرقاء بين الغيوم المندفعة.

كانت قدماي مملوءتين بالقروح، ولهذا كان من الصّعب عليّ أن أستمتع بالمشي اللّيلي إلى المنزل. أفكّرُ في الهضاب الخضر، والبقر والغنم النائم، وفي الرّجل العجوز، وقميصه من جزر هاواي وقبّعة صيده السفاري، وبطاقته البلاستيكية، وهو يحضّنا جميعاً على التعبير عن أنفسنا وصرف النقود. وبرغم أنّ الطقسَ عاصفٌ قليلاً، فالسّماء صافية، كأنّ الظلامَ يرتفعُ بدلاً من أن يهبط. قممُ التلال مضاءةٌ بخطوط منارة، والظلامُ محبوسٌ تماماً وسط السماء. الستائرُ مسدلة، والأباجورات مقفلة بإحكام، والمدينة بأسرها تتنفّس على إيقاع واحد. إنها نائمة. المنزل، على شارع (الشّمال الجديد)، الذي لطالما نظرتُ إليه بحسرة، كلما مررتُ بالقرب منه، شهد جداراً جديداً من الآجرّ الأحمر، يحيطُ بحديقته. أغمضُ عينَيّ، وأتنشّقُ رائحةَ العشب المقصوص، وأحلمُ أنني أعيش في الداخل، إمّا كابنة المالك وإما كزوجته؛ أولادي الشّقر الثلاثة ينامون بسلام في أسرّتهم، وزوجي يرتشف البراندي، ويشاهدُ فيلمَ رعب في آخر السّهرة. ثمّ أنتهي توّاً من حمام ساخن ذي رغوة كثيفة، وأبدّلُ ملابسي، وأرتدي ثيابَ نوم قطنية، وأستعد للذهابِ إلى فراش الزوجية، الواسع، الآمن، بين أغطيةٍ تفوحُ منها رائحةُ زنبق الوديان، حين يدخلُ زوجي وخنجره في يده، وينحني لكي يطعنني.

حين وصلتُ إلى شارعنا، رأيتُ جسداً ممدّداً على الرّصيف. إنها ليز، مكوّمة أمام بابها الأمامي، وتفوح منها رائحةُ نبيذٍ رخيص. سترتُها الزرقاء الغامقة وسخةٌ جدّاً، وتنورتُها المرفوعةُ أبرزت فخذيها وسروالها الداخلي القطني الأبيض. كانت بدون حذاء وجواربها ممزقة. وجهُها شاحبٌ، وعيناها المغمضتان غائرتان في محجريهما الأدكنين. حين تتنفّسُ، كان صوت تنفّسها يراوح بين الشخير والنخير. جثوت، وبدأتُ أصفعُها بلطف على خدّيها. «ليز، استيقظي»، همستُ. «لا تريدين أن يشاهدكِ أحدٌ على هذه الحالة». أخيراً، بدأت تتململ، ثمّ استيقظت. وضعتُ ذراعيّ حول كتفيها، ورفعتُها، ثم قدتُها إلى الدّاخل. «شكراً، يا حبّي»، غمغمت. وضعتُها في فراشها، وغطّيتها بشراشفها المطرّزة الوسخة، وأملْتُ رأسَها إلى جانب واحد، كي لا تختنق إذا تقيّأت. الصندوق القرمزي على طاولة السّرير ملآن بالرسائل القديمة، المربوطة معاً بحلقة مطّاطية، مع دفتر مذكّرات يحمل اسمَ إليزابيث المطبوع على الغلاف الحريري الأخضر. وضعتُ كلّ شيء في الصندوق، وأحكمتُ إغلاقَه.

أستلقي في فراشي مستيقظةً، وأشعرُ بذبذبة القطارات وهي تعبرُ مسرعةً. عبر الستائر نصف المفتوحة، أشاهد السّماء، بلا قمر، رحبة وصافية. لماذا نمتُ مع جيم؟ لماذا فعلت هذا؟ لم يعترف حتى بوجودي. هل السبب هو شاي المريمية؟ هل هو الجسد الذي يتلوّى ويبتعد خوفاً؟ لا بدّ أن السبب يعود إلى شعري الأجعد الفاحم وأنفي المعوجّ. نظرتُ إلى خزانة الثياب ورأيتُ

وجه حمدان المألوف، توأم روحي. كان طويلاً، قوياً وأسمر. بسطتُ ذراعيّ له. مشى باتجاهي وقال: «كيف حال غانيتي الصغيرة، خليلتي، وعاهرتي؟» جسدي رحّب بثقله، وبيديه الخشنتين، واستعجاله. أستنشقُ عبيرَ المسك الذي يغطّي وجهَه، وشعرَه المطليّ بالزّيت، وشاربيه الشمعيين. مثل صحراء جافّة كعظم، استقبلتُ المطر. عدتُ بذاكرتي نحو البئر الطويلة، لأملأَ دلوي بالماء البارد، وأسكبهُ على رأسي، ثم أصارع لاستنشاق الهواء. حمدان يضمّني بقوّة. حين بدأ ضوء الصباح السّاطع بالبزوغ، طبقةً إثر طبقة، غطّيتُ عضلاتي المتشنّجة بالشرشف، وسبحت في بحر النوم.

*

كانت غرفة العشاء في السفينة (هيلينا) فارغة، حين دخلتُ أنا والآنسة آشر. إنّهم يقدّمون البطاطا ولحمَ الخنزير في نهار الأحد، إضافة إلى النبيذ. إننا في منتصف الطريق إلى ساوثامتون. سكَبَت الآنسة آشر بعضَ النبيذ في كأسها، من الدورق، ثم أخذت رشفةً وقالت: «إنه نبيذ جيّد. يجب أن تجرّبيه».

«إنه محرّم في الإسلام. تفقدين سيطرتك وتقترفين كل أنواعَ الذنوب»، قلتُ.

«اجلسي يا طفلتي! ما رأيكِ أن تأكلي شيئاً؟»

«لا آكل لحم الخنزير. إنّه حيوان قذر».

«يسوع يقول لا شيء يأكله الإنسان من الخارج يمكن أن

يجعلَهُ غير نظيف. ولكن يمكن أن أطمئنكِ أنه لا يوجد لحم خنزير في هذا الطعام، هنالك اللّحم فحسب».

«لا أستطيعُ أكلَ اللّحم، أنا مسلمة. آكلُ لحماً حلالاً فقط. مذبوحاً على الطريقة الإسلامية».

بدأت الآنسة آشر تُظهِرُ بعضَ الانزعاج. «كلي إذاً البطاطا!»

«كلاّ إنها مطبوخة مع لحم الخنزير».

«لا يوجد شيء آخر تأكلينه».

«لا أستطيع الأكل. أفتقدُ أسرتي».

«أعرف يا صغيرتي، ولكن يجب أن تأكلي، كي تبقي قويّة، قويّة من أجل ابنتكِ».

«لا أستطيعُ أن أمد يدي وآكل هذا الطعام. أنا مسلمة»، قلت بتردّد.

«الله محبّة. إنه يحبّكِ يا صغيرتي. سوف يسامحك مهما يكن الأمر».

«الله يعاقبني. يحرقني في نار جهنّم. ويطبقُ القبرَ على صدري».

«ليس بالنسبة إلى الله المسيحي. إنّه المحبّة. إنه يحبّ ويغفر. يسوع مات على الصليب لكي يمسح ذنوب البشرية جمعاء».

«هل يحبّني الله؟ لا أظنّ ذلك».

«يسوع المسيح يحبّكِ يا ابنتي. إنه يقول ذلك في الإنجيل. خذي هذه النسخة. اطّلعي عليها ذات يوم».

أخذتُ الإنجيل، ووضعته على الطاولة بسرعة، خائفة من ملامسة النص المسيحيّ.

«هل يجب أن ترتدي هذا النقاب؟ لقد خلقكِ الله في أكمل صورة، وهو يحبّ كلّ جزء فيكِ، بما في ذلك شَعرك».

«شعري عورةٌ. يجب أن أخفيه مثل كل أعضائي الخاصة».

«وُضِع يسوع على الصليب بسبب ذنوب الإنسانية. لقد مات باسمِنا. جميعُ ذنوبنا ستُغفَر».

«يسوع لم يُصلب. بل شُبّه لهم. المسيحيون يظنّون ذلك. هذا ليس صحيحاً».

«أيّ هراء هذا؟ كيف يمكنني أن أنظف عقلَك من هذا الخَرَف».

«هل أنتِ غاضبة؟» قلتُ.

«كلاّ. حسناً، أنت أيضاً تفكّرين في أشياء كثيرة ليست بالضرورة صحيحة. ذات يوم سترين النور. ذات يوم، ستجعلُكِ الحقيقةُ حرةً».

«لا أستطيع أن أنزع الحجاب، أيتها الراهبة! بلدي، لغتي، ابنتي. ليس الحجابُ مجرّد قطعةِ نسيج. أشعرُ أنني عارية».

«المسيح وضِع على الصّليب. إنّه يحبّكِ». قالت.

«لم يصلب، ولا يحبني»، قلتُ.

نهضت الآنسة آشر، وصفعتني على وجهي. وضعتُ يدي على خدّي، وأسرعت إلى القمرة.

كانت الشمسُ تشرقُ على الهضاب الخضر، التي ذكّرتني بهضاب الحمى. اعتدتُ مداعبة التربة كلّ يوم، لكنّني الآن أعيش سجينةً فقاعات الهواء، بعيداً عن الأرض والشّجر. كنتُ أكتفي بالنظر إلى المنظر الذي يشبه بطاقةً بريديةً، وأفكّر كم النهر بعيد، مع أنه يبعد عنّي بضع ياردات فقط. لقد طلّقتُ نصفي المزارع، ولكن في صباح كهذا، شعرتُ أن راحة كفّي تتحرّق شوقاً إلى المنجل، ولمس التراب والكروم. كنتُ أرتدي فستان الحمّام، مع شبشبٍ صغير، حين دخلتُ على رؤوس أصابعي غرفة نوم ليز، وفتحتُ البابَ على مصراعيه. كانت لا تزالُ نائمةً، وتتنفّسُ بانتظام. حظي جيد! عدتُ إلى الحمّام، وفيما كنتُ أجلسُ على المرحاض، تذكّرتُ أنّ ورقة بحثي عن شقيقة شكسبير موعدها اليوم. وباستثناء بعض الخربشات، ليس لديّ ما أقدّمه. تلك العلاقة مع جيم سبّبت لي التراجع. كان يجب أن أشرح لجون هذا التأخير. تناولت فطوري، وشربتُ قهوتي بسرعة، حارقةً طرف لساني، وأسرعت إلى خارج المنزل.

«صباح الخير، يا ماكس».

رفع رأسه المدفون بين صفحات جريدة (صَن)، وأجابني شارداً. ليس ربّ عملي في مزاجٍ سيئ هذا الصّباح. بدأتُ أعملُ وأفكّرُ كيف أقولُ آسفة لمعلّمي. كان طويلاً وبشرته سمراء من كثرة التعرض إلى أشعة الشمس، وهذا غير مألوف هنا، لكن بارفين قالت لي إنّهم يرسلونهم إلى قبرص مرّتين في السنة للتدريس في الجامعة هناك. شعرُهُ أسود خفيف، ويطلق لحيةَ

العنزة، ويرتدي نظّارة صغيرة على شكل نصفي هلال، معلّقة دوماً على أرنبةِ أنفه. حين كان يقولُ، «تقعُ على عاتق الجامعة المفتوحة مهمّة جعل التعليم العالي متاحاً للأمّة بأسرها»، كنتُ أراقبُ نظّارته التي ظهرت كأنّها على وشك السقوط في أية لحظة. خفض رأسَه، محدّقاً إليّ بعينيه الرّماديتين مباشرةً، من فوق نظّارة القراءة، وقال: «من أي بلدٍ أنتِ؟»

بصوتٍ متوتّر قلتُ: «أنا إنكليزية».

«أنا إنكليزي أيضاً»، قال، وابتسم، ثمّ ذهبَ بعيداً.

كانت إثنيتي لعنة فوق رأسي؛ إنّها قدري: لكْنتي ولونُ بشرتي. أكادُ أسمعها تُغنّي في كلّ مكان: في الكاتدرائية، «من أين أنتِ؟» في سوق المزارعين، «هل تعرفين من أي بلدٍ هذه الخضار؟» وأحياناً الأبقار في أعلى التلّ، تقفُ صفّاً واحداً، وترفس بقوائمها في تناغم وتغنّي: «من أيّ بلدٍ أنتِ؟ عودي إلى وطنكِ!»

توجّهتُ إلى المكواة البخارية، وبدأتُ أضغطُ حواشي وياقاتٍ وأكماماً متمرّدة. في تلك الغرفة الصغيرة، المطلّة على مركز المدينة، المحاطة تماماً بالبخار، والتي تفوح منها رائحة النيكوتين والنشا، لم أعد أحدّد موقع ذاتي. لم أعد سلمى ولا سال، ولا سالي، لا عربية ولا إنكليزية. نفخة صغيرة - ومثل السّحرِ - أتحوّلُ إلى سحابةٍ بيضاء.

حلمتاي منتصبتان، فأفركهما بلطف براحة يدي. لا بدّ أنها

تبكي من أجلي. هي تريدني. تلك الرّيح مألوفة بالنسبة إليّ. لا بدّ أنّها هناك تناديني. كانت نورا تقول إن الأرواح جنود سليمان، وإنّ لها نظاماً معقّداً للتواصل. بعد موت والده، أصبح سليمان ملكاً. توسّل إلى اللّه أن يمنحه مملكةً لا يضاهيها شيء، فلبّى الله أمنيته. كان بإمكانه أن يتحكّم في الرّيح، ويتحدّث إلى العصافير والطيور. أوصاه الله أن يعلّم الجنّ والإنس كيف تحفر الأرض وتستخرج منها المواد المعدنية لصنع الأدوات والأسلحة. وحباهُ منجماً من النحاس، الذي كان معدناً نادراً في تلك الأيام. بل إنّ النبي سليمان فهم على النملة حين صاحت: «أسرعوا إلى منازلكم، واختبئوا، سليمان وجيشه آتيان نحونا وقد نسحق!». ابتسم لأنه عرف أنّ الله ارتأى أن ينقذَ النمل. فجأة توقّفت نورا عن الكلام، ونظرت إلى النافذة خلف القضبان.

«هل هذا كلّ شيء؟» سألتُ.

تنحنحت وقالت: «النبيّ سليمان مات فجأةً متكئاً على عصاه. لم يعرف الناس أنّه ميت حتّى أكل النملُ عصاه، فتهاوى جسده».

الطعام الهندي دال وأشجارُ الصفصاف

خطيبُ بارفين هو مساعدُ مدير جناح المخزن، حيث تعمل. إنّه ممتلىء، لكنه ليس بديناً. شعره أشقر كثّ، وعيناه كبيرتان زرقاوان، وفمه رقيق وعريض، كأنّه بلا شفتين، وفكّه عريض. عرّفتني به بصوت ملؤه الكبرياء: «أقدّم إليك مارك، خطيبي!»

منذ أن رحلتُ من النزل، لم أقابل بارفين. مرّت شهورٌ لم نتبادل خلالها حتى مكالمة هاتفية. أنا بدوية، وربّما لا تريد أن تمشي معي لأنّها أصبحت عاملة محترفة ذات مكانة اجتماعية.

«سعيدة بلقائك»، قلتُ ومددتُ يدي.

شمّرَ كمّ سترته، وقدّمَ إليّ سيخاً معدنياً بدلاً من يد مصنوعة من لحمٍ ودم. رفعت بارفين حاجبيها، تحثّني على مصافحتها. أمسكتُ العقيفة المعدنية الباردة بيدي وانحنيت.

ذهب إلى طاولة المطعم، وطلب بعضاً من السلطة والعصير. غمزت بارفين وسألت: «أليس وسيماً؟»

«نعم، لكنّه أبيض».

«يعني؟»

«و... و»، همستُ.

«كان يعاني السّرطان، فبتروا يده. إنّه قد تعافى الآن»، قالت.

«عظيم، جيّد، مبروك»، قلتُ.

«إنه مديرٌ جيّد. يعرفُ كلّ شيء له علاقة بملابس الرّياضة وأدواتها. لن يتعرّض للإفلاس أبداً، لأنّ الإنكليز يحبّون الرّياضة»، قالت.

أومأتُ برأسي. لم تكن تضع الكثير من الماكياج، وكان وجهُها نضراً تحت أشعة شمس الظهيرة. عاد مارك يحمل صينية تعجّ بالطعام لثلاثتنا، «بارفين قالت لي إنكِ تحبّين السَلَطة»، قال وجلس. نظر إلى بارفين، وحين رفعت رموشها المعقوفة، ونظرتْ إليه، كانت عيناها تومئان بالموافقة التامّة.

«ليس بهذه السرعة، يا آنسة» قال، حين بدأت تتناولُ السَلَطة.

قالت وفمها ممتلئ: « أنا جائعة».

سألني عن عملي، وحين ذكرتُ له (لورد تيلرز)، قال إنه سيأتي إلى محلّنا ويوصي على بزّة استعداداً لليوم الكبير.

«يسعدنا أن نلبي طلبكَ»، قلتُ وابتسمتُ.

حين انتهينا من الطعام، سكت كلاهما، وراحا ينظران إليّ.

شربتُ بعض الماء وقلتُ: «ماذا؟ هل هناك عنكبوت يتسلّق رأسي؟»

«لا»، قال، «ولكن نريد أن نطلب منكِ شيئاً».

دسستُ خصلةَ شعري خلف أذني.

«هل تشرّفيننا بأن تكوني وصيفة العروس؟»

«وصيفة؟ وماذا أفعل؟» قلتُ.

«لا، ليس الأمر كذلك. ستكونين وصيفة الشّرف، المرأة المفضّلة، يعني، المسؤولة الثانية»، قالت.

«لا أنصحكما بي. الأفضل أن تأتيا بامرأة إنكليزية ذات وجهٍ حَسَن»، قلتُ.

وقفت بارفين وعانقتني. «لا أريدُ أحداً آخر سواكِ، أيّتها البدوية المعتوهة».

لم أكن أذهب إلى الجامعة كثيراً، لأنّني كنتُ أشعرُ بأنّ الجميع يعرفُ كلّ شيء عن جميع المواضيع. هم يقرأون كتباً لا أستطيع فهمها، ويتحدّثون لغةً لا أتقنُها، وينظرون باستعلاء إليّ لأنّ إنكليزيتي سيئة. في اللحظة التي كنتُ أبدأ فيها بالسّير باتجاه الجامعة، عبر التلال، كان قلبي يبدأ بالخفقان مثل مطحنة بنّ تطحنُ حبّات القهوة في هاون مهباش بدوي. كنتُ أشعرُ بصغري قبالة البناء الضخم العتيق، بأبراجه وسقوفه العالية. حين دخلتُ المبنى أخيراً، بدأتُ أرتعش. وبيدين مرتجفتين أظهرتُ إرشاداتي لموظّف الاستعلامات. قادني عبر غرفة واسعة، مزدحمة بالمنحوتات النصفية، والملصقات، والطلبة المنهمكين بأحاديث جانبية، إلى درج ضيّق. «فوق تلك الدرجات، إلى اليمين»، قال.

في الوقت الذي عثرتُ فيه على مكتب الدكتور روبسون، كنتُ في حالة يُرثى لها: قلبي يخفق بقوّة، وكتفاي تؤلمانني،

والقهوة تتسرّب من دورقي الترمس. شعرتُ بارتفاع الحرارة، والعرق المتصبّب، وقبل أن أجهشَ بالبكاء، طرقتُ البابَ.

«ادخل»، أتى جوابُ أستاذي على عجل.

«لا بدّ أنّ دورقي الترمس قد انكسر»، قلتُ لأستاذي ذي الشَّعر الخفيف الذّاهبِ في التّراجع.

نظر إلى الأعلى، ورأى القهوة تنقّط على السجّادة. نهض وأعطاني منشفة من حقيبة رياضية، وقال: «استخدمي هذه!»

بسطت المنشفةَ على الأرض، ووضعت عليها حقيبتي بكلّ حذر.

«أخرجي أشياءَكِ من الحقيبة».

تردّدتُ في أن أسمح لهذا الغريب برؤية حاجاتي الخاصّة. كل شيء في حقيبتي رخيص وبالٍ، وسيبدو أكثر سوءاً بعد أن تبلّل بالقهوة. بدأتُ أسحبُ كنزتي، وتنّورتي القصيرة، وبلوزتي الشفّافة، وحقيبة المكياج، ومجلّة ماري كلير، والملف الذي سجّلتُ فيه اعتذاري. كتبتُهُ كي لا أنسى منه شيئاً: «في الأسبوع الماضي بدأتُ عملاً جديداً وكنتُ مشغولةً إلى أبعد حدّ. لم أستطع إنهاء البحث. اقبلْ من فضلكَ اعتذاري الصّادق». كانت غوين قد أضافت عبارة «إلى أبعد حدّ»، ووضعت الفعل «بدأَتُ» في صيغة الماضي. على مضض سحبتُ بعض الملابس الداخلية، وأخيراً الدورق الترمس المكسور.

أمسك إطارَ نظّارته وقال: «تحتاجين إلى دورق جديد».

«نعم أحتاج». قلتُ.

ملصقٌ لامرأةٍ عارية تديرُ ظهرَها للعالم كان معلّقاً على الحائط خلفه. رأسُ المرأة محنيّ نحو جسدها المكوّر، ويمكن رؤية خطوط ظهرها بوضوح.

«لا بأس»، قال، «دعيني أرى ورقة بحثكِ».

خانتني الكلماتُ وأنا أنظرُ إلى أشيائي المبعثرة على الأرض. لأتكلّم إذاً. «لم أكتبه». لقد نطقتُ الجملة.

«لماذا؟» قال بلطف.

«أنا مشغولة»، قلتُ.

«هل السبب متعلّق بالعائلة أم بالعمل؟»

«العائلة»، كذبتُ. «ابنتي تذهبُ إلى الجامعة. إنها تدرسُ الطبّ، ويجب أن أطهوَ لها وأعتني بها... كما أنني أعملُ في المساء».

«الاثنين المقبل أريدُ الورقة على مكتبي»، قال.

«نعم»، قلتُ وأنا أجمعُ ملابسي، وأحشرُها في الحقيبة المبتلّة. «نعم»، قلتُ وأنا أقدّم إليه دورق الترمس المكسور. «نعم»، قلتُ وأنا أمشي إلى الخلف باتجاه الباب. «نعم»، قلتُ، وأوصدتُ الباب.

«سالي، انتظري»، ناداني.

لم أجبْ. ليس اسمي سالي.

ذات مساءٍ، وبعد أن أكلنا «المجدّرة»، وهي الأرز مع بصلٍ وعدس، قالت نورا، وهي تنظر إلى قضبان النافذة، «ذات يوم

مرض ابني رامي، فأخذتُهُ إلى المستشفى. ظلّ فاقداً الوعي أربعة أيام. كنتُ أذهبُ ليلاً إلى محلّ الكباب لغسل الصحون، وصباحاً أسرع إلى المستشفى. لم يسبق أن صلّيت، لكنني في تلك الليلة ركعتُ وصلّيت للمرّة الأولى. قلتُ: يا ربّ الكون، يا ربّ الجنّ والإنس، يا ربّ الأرض والسماوات اللامتناهية، اعطف برحمتِكَ على هذا الصبيّ ونجّه. رجاءً، يا ربّ، إذا شفيته، فسأرتدي الحجابَ، وأصلّي خمس مرّاتٍ في اليوم، وأصومُ، وأزكّي الفقراء، وأحجّ إلى مكة. وفي الصباح التالي تحسّنت حالة رامي، لكنني فقدتُ عملي. وتبيّن أنّ رامي مُصاب بمرض السكّري، ويحتاج إلى حقنتَي بنسلين كلّ يوم. أحدهم دلّني إلى بيت العطر، فذهبتُ، وبدلاً من أن أرتدي الحجاب، كما أقسمتُ، بدأتُ أخلع ملابسي. تعرفين لماذا أنا هنا يا سلمى، لأنني حنثتُ بكل وعدٍ قطعته لله. زوجي قرّر أن يأخذ الأولاد ليعيشوا معه، ومع زوجته الثانية. وها أنا هنا، في قصر يلديز».

«قصر يلديز؟»

«إنّه قصر السلطان على شواطئ بحيرة في تركيا».

«سجن الإصلاح وقصر يلديز متشابهان. أليس كذلك؟» ابتسمتُ.

«خاصّةً أسرّة ريش النعام، وأباريق الذّهب»، قالت وضحكت. كان صوتُ ضحكتها مزيجاً من الفرح والبكاء.

بينما كنتُ أضعُ الكؤوسَ في الدّرج الواسع لغسّالة الصحون،

قال آلن: «يجب أن أعلّمكِ بعضَ الحيلِ الاجتماعية. حين أنتهي، سوف لا يعرفك الناس، ويظنّون أنّكِ أميرة».

«هل أنت متأكّد؟» كان جوابي بالضبط لمعلّمي الأوّل القسّ ماهوني، الكاهن الصاحبيّ اللطيف. بعد أن أنهيتُ فطوري، الذي كان له طعم نشارة الخشب، شربتُ القهوة الباردة، ونظّفتُ أسناني، وربطتُ شعري نحو الوراء. ثم سمعتُ طرقاً على الباب السميك لمركز الاحتجاز. لا بدّ أنها الآنسة آشر، كما خمّنتُ وأنا أنفضُ الشراشفَ المبعثرة. دخل رجلٌ طويل، عيناه زرقاوان، وابتسامته عريضة، وشعره أشيب. حين قال باللغة العربية، «الجو بارد هنا»، عرفته على الفور. إنّه كاهن السّفينة. كان للغته العربية وقعٌ جاف وأكاديمي على الأذن، مثل كتاب النصوص للآنسة نايلة، فضحكتُ.

«هيّا بنا يا سلمى»، قال.

«معكَ؟» سألتُ.

«نعم، معي»، قالَ وفتح الباب.

راعية بدوية تتحول إلى أميرة، ملأى بالابتسامات والضياء، وبظهر مستقيم، ومعدة مسطّحة، هذا غير ممكن.

«إنكِ، من حيث المبدأ، مهذّبة، لكنكِ خشنة عند الحوافّ»، قال آلن.

ابتسمتُ في وجه آلن، وأنا أفكّر في سجن الإصلاح، حيث كنتُ أقبعُ في القذارة، وأستحمّ مرّةً واحدة كلّ أسبوعين، وأغسلُ فوطي التي أستعملها خلال دورتي الشهرية، في سطل مملوء بالماء

والصابون، وآكل بيدي، وأحلمُ بنبعٍ من الماء الصّافي، مثل ذاك الذي اعتادت أمي أخذي إليه، على ظهر الحمار، حين كنتُ حقّاً صغيرة. كان النبعُ صافياً جدّاً، وبالإمكان رؤية كلّ حصاة، كبيرة أو صغيرة، مستوية أو غير مستوية، في قعره. كان الماءُ يندفقُ من أطراف هضبة مكسوة بعرائش العنب. بطيخٌ أحمر، مقسوم نصفين، يطفو على الماء المثلّج، مع زهور الدّفلى التي تفتّحت على طول المجرى، الممتدّ إلى الطاحونة، في قعر الوادي. «قبيلتنا أعطت قبيلة العريس هذا النبع هدية عرس. يا حسرة، إنّه لم يعد لنا». قالت.

«لا أعرف كيف أتحدّثُ إلى النّاس»، قلتُ لآلن فيما كنا نحتسي قهوةَ نهاية الدوام.

«تقومين بذلك على ما يرام»، قال ذلك وهو يسترقُ النظرَ إلى ساقَيّ التعبتين. لم أكن أحبّ أن يذكّرني بأنّه رجل. أريده أن يكون صديقي فحسب، من دون رغبات أو نظرات مسروقة.

«نعم، ولكنّني تصرّفت كالحمقاء حين ذهبتُ اليوم إلى رؤية أستاذي في الجامعة».

مرّر آلن أصابعه في شعره المثبت بالجل، وعدّل ياقتَه، وقال: «هل أنتِ طالبة جامعية؟» في نبرة صوته مزيج من الإعجاب والحيرة والاتهام.

«نعم. سنة أولى أدب إنكليزي، بنصف دوام، مع ذلك»، قلتها بالطريقة نفسها التي كان سيقولها لي الدكتور روبسون في مكتبه غير المرتّب.

«أوه! ستدرسين شكسبير، إذاً».

«أنا أدرسُ عن شقيقته لمادة النساء والثقافة».

«آه، يا إلهي! شكسبير لم يعد مهمّاً، إذاً». قال.

لم أكن أعرف لماذا كان مهمّاً أو غير مهمّ. ارتديتُ كنزتي وخفّ الرياضة، وقلتُ: «أنا ذاهبة».

«طابت ليلتكِ»، قال وهو يدخّن سيجارَه.

حين أضأتُ مصباح سلم المنزل، سمعتُ أنيناً آتياً من أعلى الدّرج. «ليز، أهذا أنتِ؟» صرختُ، وأسرعت نحو الدرج، ثم طرقتُ باب غرفة نومها.

«ادخل»، قالتها بصوتٍ خافت.

فتحتُ الباب، فرأيتُها تستلقي على السّرير، محمرة ومنهكة، تتصبّب عرقاً، وتتنفّسُ بصعوبة. «ليز، هل أنتِ على ما يرام؟»

«لا بدّ أنها الحمّى، أيّتها الخادمة»، قالت.

«هل ذهبتِ إلى الطبيب؟» سألتُ.

بدت نحيلةً جدّاً، وشاحبة، وهي متكوّرة تحت الغطاء.

«لا»، قالت. كانت صورة زوجها الراحل، بالأبيض والأسود، تبتسم لها من أعلى طاولة السّرير.

«أحتاج إلى بعض النبيذ»، قالت.

كانت زجاجة النبيذ فارغة تقريباً، على الصّينية الفضّية، وبدت الكأس عكرة بسبب البقع. سكبتُ لها ما كان قد تبقّى من النبيذ، وناولتها الكأس. أجبرت نفسها على النهوض، وكرعتها دفعة واحدة.

«أيّتها الخادمة، ليس ثمة أحد أفضل منكِ، يا مربيتي»، قالت وهي تنظرُ إلى السّتائر المخرمة التي تخفقُ في الرّيح.

«نعم»، قلتُ وجلستُ على طرفِ السّرير.

«هل تعرفين، يا مربيتي، أني أتمنّى لو أنني لم أزر الهند يوماً. الجميع كان يحترمني ويخدمني. كان الخدم يحملونني إلى المدرسة، وأنتِ تلبسينني ثيابي، وهيتّا يطبخ لنا، والسيد كروكد هاندز ذو اليد المعقوفة يعتني بالحديقة، ورضا يحرس البوابة»، وأشاحت بعينيها إلى مكان لا أحد يعرفه سواها. بلعت ريقها بصعوبة وقالت: «كان هيتّا يعدّ أطيب أطباق التشات والدّال وباجي البصل. كان يزخرفُ صينيةً بالأطعمة، ويجلبها لي إلى الحديقة، فيما أنا ألعب مع كلبي ريكس. كان يقول: ها أنتِ يا أميرة، أوبّه». نظرت إلى الخزانة، وقالت، «كان لا بدّ أن يكون هو، هيتّا جان حبيبي، لا بدّ أن يكون والدك، هيتا جان». أدارت ليز رأسَها، ونظرت إلى ورق ويليام موريس المتقشّر الذي يكسو الجدران، وتلمّست بأصابعها الإطار الفضّي المزخرف، ومرّرت يدَها على صورة مغبرّة بالأبيض والأسود لزوجِها الرّاحل، وثبّتت نظرها أخيراً عليّ وقالت، «ما الذي تفعلينه هنا؟»

«سمعتُ شيئاً فأتيتُ لأرى هل أنت على ما يُرام».

«هيّا، اذهبي! هيّا اخرجي!». قالت، ملوّحةً بيدها باتجاه الباب، كأنّها تتخلّصُ من قذارةٍ ما. رائحةُ النبيذ الرّخيص والغبار والخيانة والرّطوبة، والدموع والوعود التي نكثت والشراشف القذرة تبعتني كلّها إلى غرفتي.

لا بدّ أنه الحبّ. كنتُ أجلسُ على كومة من السنابل، أمضغ سندويش الزبدة، حين خرج حمدان من سحابةِ الغبار، وجلس بالقرب منّي. رأيتُ موكب عرسنا، يعبرُ القريةَ، ويحملنا إلى مكان سكننا.

اقتلعَ شعرةً من شاربِهِ وقال: «كيف حال مهرتي؟»

ثبّت وشاحي جيداً على رأسي، وقلتُ: «جيّدة».

«أريدُ أن أراكِ»، قال، وثبّت غطاءَ رأسه المرصّع بالأبيض والأحمر.

كان الجوّ جافاً وحارّاً، مع غيوم من غبار تثيرها الرّيح. اختفت أغاني الحصّادين، وموسم الحصاد والدّرْس قد انتهى، فيما أكوام القمح والعدس والشعير، تمتدّ على أرض البيدر، فوق أعلى التلّ. بلعتُ لعابي بصعوبة وقلتُ: «أنا حامل».

انهار غروره، وتحوّل إلى رجل مهموم بظهر محنيّ وصوت مرتعش، «لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً. كيف؟»

«لا أعرف»، ودسستُ آخر لقمة من الخبز في فمي.

حين نظر إليّ أخيراً، بدا رجلاً مختلفاً. عيناه البنّيتان تشتعلان غضباً، وليس رغبةً. تنحنح وقال: «أنتِ المسؤولة. أغريتني بالألحان الشّجية لنايكِ ووركيكِ المتمايلتين»، قال، ورفع ذراعه كأنّه على وشك ضربي.

انكمشتُ فوق كومة السنابل، وغطيتُ رأسي بكلتا يدي.

«لم أضع إصبعاً عليكِ. لم أركِ من قبل. هل تفهمين؟» قال، ولفّ الكوفية حول وجهِهِ مثل قناع، وغاب في سحابةِ من غبار.

جلستُ هناك، أُصغي إلى نباحِ الكلابِ البعيدة، وخوار بقرةٍ تلدُ، وحفيفِ الأوراق، وهسيس الرّيح.

لم تكن ليز تسمحُ لي عادةً بالدّخول إلى غرفتِها، لكنّني في ذلك الصباح طرقتُ طرقاً خفيفاً على بابها، ودخلتُ مثل لصّ ينتهك حرمة أملاك غيره. ليز تنامُ نوماً عميقاً في سريرها الفولاذي الأنيق. الصينية الفضّية، مع كؤوس الكريستال، موضوعة على الخزانة ذات الأدراج العتيقة. فرحتُ لرؤية بعض اللّون يعودُ إلى وجنتيها. نظرتُ إلى الصورة الباهتة لزوجها، الذي مات في الحرب، على طاولة السّرير. كان صندوق الساتان القرمزي لا يزال مفتوحاً. مشيتُ على رؤوس أصابعي لألقي نظرة عليه، ورأيتُ حزمةَ الرّسائل ملفوفةً بشريط مطّاطي، مع دفتر مذكّرات، بغلاف أخضر حريري، وصورة الملكة مطبوعة عليه. فتحته وقرأت.

يوم الاثنين، الخامس من أيلول/ سبتمبر، ١٩٣١، اشترت لي مربيتي جانكي آيه أساور من بائع جوّال، تشعّ منها جميع الألوان الساطعة لقوس قزح، لكنّ ماما لم تكن تسمح لي بلبسها كثيراً. «هندية كثيراً»، كانت تقول.

أدارت ليز رأسَها إلى الجهة الأخرى. أرجعتُ دفتر المذكّرات إلى مكانه في الصندوق، وخرجتُ بهدوء من الغرفة. أسرعت، على الدرج البارد، باتجاه المطبخ، وأدرتُ الغلاّية، وجلستُ على الكرسي العالي أنتظر كلّ شيء ليدفأ: الخزائن الخشبية، والسكاكين الفولاذية، والأواني الخزفية النفيسة، وأكداس مجلات (منازل وحدائق)، الموضوعة داخل مسند الكتب المصنوع من

خشب البامبو، والسّقف الرطب، والأكواب التي يكسوها الغبار، المعلّقة بمسامير مغروزة في حواف الرّفوف الخشبية.

خرجتُ من المنزل لأتنشّق بعض الهواء الصّباحي النقي. وبرغم أن الوقت هو منتصف الصّيف، فقد كانت السّماء تمطرُ زخّات خفيفة. هذا الرذاذُ خفّف من لسعة الحرّ، واخترق الأرضَ عميقاً، متغلغلاً إلى جذور النباتات والأشجار. خلف الواجهة الزجاجية العملاقة، رأيتُ صادق يفرش سجّادة الصلاة على الأرض. كان يقف على الحافّة، ويداه خلف أذنيه، بادئاً التكبير. كان باب المتجر مغلقاً، فوضعتُ أذني على صندوق الرسائل ورحتُ أستمع. «الله أكبر، الله أكبر! إنّ مع العسر يسرا». جثا صادق، وسجد، واضعاً جبهته على السّجادة. نهض والدي ووضع يديه أسفل قفصه الصّدري وبدأ يتلو الآيات. إنّه شهرُ تشرين الأول، ولم نرَ قطرة مطر واحدة خلال هذا العام. بدأ بالتسليم، فأدار رأسه إلى الكتف اليمنى، ليحيّي الملاكَ الذي يجلس هناك، ويسجّلُ الحسنات، ثم التفتَ إلى اليسار، ليحيي الملاكَ الذي يسجّل الذنوب، ثمّ لوّح لي. مشيتُ باتجاه يديه الخشنتين المبسوطتين. رفعني عالياً، ثمّ أجلسني فوق ركبته وقال: «صباح الخير، يا عصفورتي الصغيرة».

فتح صادق الباب على حين غرّة وقال: «صباح الخير يا جارتي! هل تريدينَ أن أعلّمكِ كيف تصلّين لله أيضاً؟»

ألقيت عليه التحيّة وعبرتُ الشّارع سريعاً.

أمشي على جسرِ المشاة الأخضر، وأرى الغيومَ الرقيقةَ تتلوّن بذهبِ الشّمس، منعكسةً في مياه النهر مثل كرات لهبٍ كبيرة. أرى

النهرَ ينقسم فرعين، مكوّناً جزيرةً صغيرة. إنّها فسحة هادئة، مغطّاة بالعشب الأخضر، والأشجار البرية، وعلى حوافّها نمت أشجارُ البندق والبلّوط والبتولا والغبيراء. طيور النورس البيضاء تطير من الماء وإليه، فيما الأشجار ذات الاخضرار الغامق، تلمعُ مثل بحر من الأحجار الثمينة، كأنّ المطر ليس مياهاً، بل هو زيت زيتون متلألئ صافٍ. «الكثيرُ من الماضي»، قال الطبيب الإنكليزي، «والقليل من المستقبل». أمسكتُ بدرابزين الجسر، ونظرتُ ثانيةً فرأيتُ طيفاً أسود يكمن بين الأشجار، جريحاً، مطعوناً في شرفه، عيناه تقدحان شرر الكراهية، وكوفيته المرصّعة بمربّعات حمر وبيض، مثبتة داخل عقاله الأسود المستدير، وبندقيته مصوّبة نحوي، جاهزة للرمي. تنفّست عميقاً، ووضعتُ حقيبتي بين ساقَيّ، على الأرض، وتمسّكتُ بدرابزين الجسر الحديدي، وفتحتُ صدري، جاهزةً لكي أموت. خفض بندقيتَه، ثمّ وضعها على كتفه، وسحب طرف كوفيته، إشارةً لانتهاءِ العداوة، ومشى باتجاه كرات الضوء. حين أغمضتُ عينَيّ أخيراً، لسعَ الملحُ حوافّهما. ملأتُ رئتَيّ بهواء الصباح النقي، الآتي من الهضاب الخضراء، والتقطتُ حقيبتي، ثم تابعتُ السير إلى عملي.

خلال استراحة الغداء، ذهبتُ إلى المكتبة العامّة، لأبحث عن كتب أو مقالات عن أخت شكسبير. مقلّدةً أستاذي الجامعي، بدأتُ «أفكّكُ» الأسباب التي تجعل المكتبات أماكن مفزعة: أوّلاً لأنّ نظام التصنيف والإعارة فيها معقّد جداً بالنسبة إليّ، وثانياً لأنّ منظر الكثير من الكتب يذكّرني بجهلي وتخلّفي. كنتُ أشعرُ

بالذنب كلما دخلتُ المكتبة لأنني كنتُ أهدرُ وقتي في قراءة المجلات التافهة. في مجلة (كوسموبوليتان) مقالة عن نسوة أدمن الشكولاته التي تحوي مواد كيميائية، شبيهة بتلك التي نفرزها، حين نقع في الحبّ، ولكن لم يكن ثمة حرفٌ واحد عن نسوة أدمن مثلي المجلاّت ذات الصفحات المصقولة. كلما تدنّت معنوياتي درجة أو اثنتين، ذهبت إلى وكيل الجرائد، واشتريت بعض العلك، ولوح شوكولاته، ومجلّة فاخرة. كنتُ آكلُ وأقرأ، وأعلكُ وأقرأ، حتى يصير لوح الشوكولاته مزقاً من الورق الفضّي المبعثر على الطاولة، والمجلّة نتفاً من أوراق مجعّدة، وعيّنة العطر مفتوحة وفارغة.

فتاة صغيرة، بعينين واسعتين، وابتسامة جاهزة، رأتني حائرة، فمشت باتجاهي: «هل تريدين مساعدة؟»

أردتُ أن أتظاهر بأنني أعرف كلّ شيء، وأن أجيبها بكلمة شكر متعالية، لكنني تذكّرتُ أستاذي، والقهوة المسفوحة، فقلت، «نعم».

«دعيني أشرح نظام التبويب والتصنيف لكِ»، قالت بتهذيب.

حين أدركتُ أننا ذاهبتان إلى الكومبيوتر، كنتُ على وشكِ الهرب نحو المدخل الرئيسي. المكانُ غير مألوف، وفكرة تعلّم شيء جديد أرخت بثقلها عليّ. تذكّرتُ الزيارات الباهظة إلى طبيب الأسنان، الذي خصخص عيادته وإبرته العنيدة التي تحفرُ وتحفرُ حتى تصل إلى قلبي.

أشارت إلى الشّاشة الزرقاء المضيئة وقالت: «تستطيعين أن

تجدي كلمات الموضوع، والمؤلف، والعنوان. اطبعي الحرف الأول فقط، واضغطي على زرّ الدّخول. ما الذي تبحثين عنه؟»

«أخت شكسبير»، قلتُ.

«آهاً!» قالت. «لا بدّ أنها مقالة بقلم فرجينيا وولف».

ابتسمتُ ابتسامةَ العارف. لم أكن قد سمعتُ باسمها طوال حياتي كمهاجرة.

«نصيحتي لكِ أن تبحثي عنها في حقل النظرية النسويّة».

جلستُ على الكرسي، وشددتُ ظهري، ولمستُ لوحةَ المفاتيح. ضغطتُ على «موضوع» ثم «ادخل» وطبعتُ بسبابتي «النظرية النسوة».

كانت موظّفةُ المكتبة تراقبني. «أخطأتِ في كتابة نسوية. أضيفي حرفَ الياء!»

فعلتُ ذلك، وكبستُ زرّ «ادخل»، فظهرت فجأةً، قائمة طويلة من الكتب والمقالات، على الشّاشة. تهتُ في تلك الصحراء، من دون وجود مقتفي الأثر الرسمي للقبيلة إلى جانبي. «ما الذي سأفعله الآن؟» سألتُ.

«اختاري كتاباً استهلالياً مثل كتاب ماري إيغلتون (النظرية الأدبية النسوية)!»

«أهذا هو؟» سألتُ وضغطتُ عليه.

«اكتبي جميع التفاصيل، ثمّ تعالي معي، من فضلك!»

صحبتني إلى قاعة كبيرة، مرصوفة بالرّفوف المكتظة بالكتب. ذكّرتني بمكتبة القس ماهوني، حين احتفلنا بإطلاق سراحي من

سجن الهجرة، وشربنا الشاي وناقشنا أحوال الطقس. «الكتب، يا سلمى، هي عزاؤنا الوحيد. كيف يمكننا أن نسامح وننسى من دون كتب؟» كان يقول.

«ههنا، لقد وصلتِ»، قالت.

«شكراً جداً، جداً»، قلتُ للموظّفة المبتسمة، وعانقتُ أوّل كتبي المستعارة، وأسرعت عائدةً إلى عملي.

كانت تمطر بغزارة في برانسكوم حين قرّرتُ أنه يجب أن أغادر. جاء دوري الآن لكي أصرّ على المغادرة. مضى عليّ عام كامل في ضيافة القسّ ماهوني. «يجب أن لا يثقل الضيفُ على مضيفه أكثر من ثلاثة أيام». كانت لغتي الإنكليزية قد بدأت تتحسّن، لأنني أحببتُ وقعَها من جهة، ولأنني معجبة بمضيفي الصاحبيّ، من جهة أخرى. كنتُ أستحمّ، وأرتدي ثياباً نظيفة، وأربط شعري، وأنتظر صابرةً في غرفة القراءة، بانتظار الدّرس المسائي. لطالما نظرُت إلى وجهِ القسّ ماهوني، وسألت نفسي لماذا لم يتزوّج البتة. لا بدّ أنه في مطلع الخمسين. ضوء النّار الذّهبي يتوهّجُ في وجهِ المتورّد، وعينيه المحبتين للسّلام، وإيماءتِه الموافقة، وأصابعِه الطويلةِ الرقيقة. كان كتاب (قواعد كمبريدج) مفتوحاً على الجمل الشرطية. قالت لي أمّي مرّاتٍ عديدة، «لو زرعنا اللو كان طلع ياريت». قلتُ، «سعادة القسّ، لستُ في مزاجٍ جيد لأتعلّمَ الليلةَ».

«هل أنتِ على ما يُرام؟» قال بشيءٍ من القلق.

«ألا ترى كيف أنّني تعبة الليلة؟»

«نعم، أرى كم أنتِ تعبةٌ الليلة؟» صحّح لي.

«لا شيء، ولكن هناك حرباً، حرباً على الراديو. لا أستطيع أن أنام».

«الأصدقاء الصاحبيّون معارضون للحرب، وملتزمون بالسلام»، قال.

تنحنحت، وقلتُ: «لو كان بإمكاني مساعدتكم، لفعلت. لو كان بإمكاني المكوث في هذا البيت، لفعلت. يجب أن أغادر. إقامتي في ضيافتك انتهت».

«ألستِ سعيدة هنا؟» سأل.

«نعم أنت لطيفٌ جدّاً. مثل... أبٍ لي»، قلتُ، وانتقيتُ كلماتي بعناية، من أجل أن لا أزعجَ هذا الرّجل الطيب.

أشاحَ بوجهِهِ وقال: «هل يمكنكِ أن تعتمدي على نفسِكِ؟»

«قلتَ لي إنّ إكستر هي أفضل مدينة للعمل. سأحاول»، قلتُ.

«إذا حاولتِ فمن الممكن أن تفشلي».

«نعم، لكن يمكن أن أنجحَ أيضاً».

«لكن يجب أن تحاولي بشكلٍ أفضل لكي تفشلي بشكلٍ أفضل». ابتسم وغادر الغرفة.

*

في المساء كان كلّ شيء هادئاً، ما عدا ليز التي كانت تتخبط هنا وهناك في غرفة الجلوس. رتّبتُ سريري، ومسحتُ الطاولةَ

المائلةَ، وقرّبتها من النافذة، ثمّ وضعتُ قطعةَ خشبٍ تحت إحدى قوائمها لأجعلها متوازنة. وضعتُ مصباح الطاولة عليها، وأنرتُهُ. كانت غوين قد قدّمت إليّ الأعمالَ الكاملة لبتلر ييتس هديةً في يوم ميلادي. قرأتُ بضع قصائد، ثم وضعتُ الكتاب جانباً. لمستُ الغلاف الخشن، وطويتهُ، وأدخلته بين الأوراق الصفراء، مثل مسطرة قراءة. وضعتُ كفّي على الكتاب، وضغطتُ بقوّة، على أمل أن تتحرّر الكلمات، وتتبعثر، وتجد طريقةً للدخول إلى رأسي. أردتُ أن أفهمَ جميع الكلمات، وأرى لماذا يتألّم الطفلُ الإنساني، وأجدُ علاجاً للنحيب.

لا بدّ أنه كان خفّاشاً، شخصاً ليلياً، أكاديمياً يحبّ الظلامَ والهدوء. كانوا يستخدمون القناديل في ذلك الحين. فتحتُ الكتاب النسوي، كأنه هشّ، مصنوع من زجاجٍ مرهف، وتفحّصتُ الفهرس: فيرجينيا وولف. بدأتُ أقرأ عن إمكان امتلاك غرفةٍ تخصّ الشّخص، ونقود كافيةٍ تساعد المرءَ على العمل. لم تكن أمّي تملكُ شيئاً، فقد أخذ شقيقها حصّتها من المزرعة. وحين مات زوجها، رُميت شهلا خارج المنزل، فجاءت لتعيشَ معنا. وكلّ ما أملكه أنا هو ابنتي ، وهي تبكي وتبكي من أجلي. شردَ عقلي إلى الجبال المكفهرّة، ذات الأعشاب القليلة، المغبرّة، وإلى حقل من السوسن الأسود، وبعض أشجار الزيتون، وإلى عالم ملآن بالنحيب، فشددتُه وأرجعته إلى الكلمات المدوّنة بالأبيض والأسود في الصّفحة. في منتصف الكتاب وجدت إشارةً إلى أخت شكسبير. كانت اللغةُ المستخدمة صعبة جدّاً بالنسبة إليّ فبدأتُ

أبحثُ عن معاني الكلمات في القاموس: «escapade فرار»، «substantial جوهري»، «guffawed مقهقه»، «morbid كئيب». لم أكن أعرف أن كلمة «offspring» التي صادفتها لدى تقليب صفحات الكتاب، تعني الأطفال.

وبينما كنتُ أحاولُ ترتيبَ أجزاء الأحجية، سمعتُ جلبةً مباغتةً. لا بدّ أنّها ليز. ركضتُ إلى أسفلِ الدّرج، فوجدتُها تقفُ وسطَ الغرفةِ، تمسكُ سوطاً بيدها، وثلاث قناني نبيذ فارغة تتدحرج أرضاً. كانت تلبسُ ثياب ركوب الخيل، مع بنطال ضيق وحذاء عال ومنديل أحمر حول عنقها، وشعرها الأشيب الأملس مربوط على شكل ذيل حصان. نظراتها المحمومة تجاهلتني، فقد كانت مصوّبةً نحو النافذة. إنّ صوت الجلبة يأتي من سوطها الذي يجلدُ القناني والأرض المغطّاة بالسجاجيد. «ليز، ما الذي تظنّين أنّكِ تفعلينه؟ أعطيني السّوط!» قلتُ ومشيتُ نحوها، لأخلّص السوط من يدها، لكنني كنتُ بطيئةً، مما سمح لها بضربي ولف السوط حول عضلات ساعدي. أمسكتُ القبضة الجلدية بيد، ولسان السّوط باليد الأخرى، وبدأت أشدّ نحو اليسار، ثم اليمين، ثم دفعتُ ودفعتُ، حتّى ارتخى السّوط من يد ليز، وسقطت هي أرضاً. كانت ذراعي في هذه الأثناء تنزف، فركضتُ إلى الحمّام، وضمّدتها، واتصلتُ بسيّارة أجرة. وبينما كنتُ أمام الباب أنتظر التاكسي، سمعتُ ضحكة ليز، التي قالت، كما لو أنّها تتحدّث إلى إحدى خادماتها الهنديات، «يجب أن لا يتنفّس العبيدُ الهواءَ الإنكليزي».

«هذا يبدو خطيراً جداً»، قال سائق التاكسي، وأعطاني جريدة

عتيقة لتغطية المقعد الخلفي. في الوقت الذي وصلتُ فيه إلى قسم الطوارئ، كان الدّم قد غطّى الضمادة، وبدأ ينفر إلى الخارج. استقبلتني أضواء النيون والممرضات التعبات. ولدى فحص الجرح المتعرّج، قالت الممرضة: «جرح عميق، كما أرى. يجب أن نُعلِمَ الشرطة».

«لا»، قلتُ، «لا حاجة إلى ذلك. كنتُ أعدّ السَلَطة وفقدتُ سيطرتي على السكّين».

«إنّها محاولة انتحار فاشلة، إذاً».

«لا. إنّه مجرّد حادث. لو أنها محاولة انتحار، لما كنتُ هنا».

دست شعرَها القصيرَ خلف أذنيها، ونظرت إلى ساعتِها، ورفعت نظّارتيها ذاتيّ الإطار الفضّي وابتسمت. لا بدّ أنها اعتادت سماع أكاذيب الناس.

بعدما ملأتُ استمارةً، سألتَني أن أنتظرَ في ممرّ ضيّق ملآن بالكراسي. الجدرانُ مطليةٌ بالأخضر الكلسي، أما الكراسي والسجاجيد فلونُها رمادي. نظرتُ حولي، ووجدتُ أنّ حالتي ليست عاجلة كالآخرين. شابٌ يضعُ قطعةً كبيرةً من القطن على عينه اليمنى، وآخر ينزف وجهه الملآن بالكدمات.

«هذا جرحٌ دقيق»، قال الطبيب الشاب التعب، «أستغرب كيف فعلتِ هذا بنفسكِ؟»

«كنتُ أقطّع الجزَر . . .»

«انظري، يجب أن نُعلِمَ الشّرطة بذلك».

«لا، من فضلكَ»، توسّلتُ، «فقدتُ السّيطرة على السكّين فحسب، وقد كان حقّاً حاداً».

لاحظتُ أنّ عاطفتين تتصارعان داخل عينيه: شعوره بالواجب الذي يتطلب منه إخبار البوليس، وتعبه الشّديد الذي منعه من تحدّي قصّتي. لكنّه استسلم أخيراً لإعيائه.

حين فكّ العِصابة قال: «تحتاجين إلى قُطَب». كان الجرح يمتدّ من كوعي إلى رسغي مثل أفعى. استسلمت للمخدر الموضعي وسافرتُ خارج المستشفى المتداعي، وخارج إكستر كلّها، إلى ساوثامبتون، واستقليتُ سفينةً إلى لبنان، ثم توجّهتُ إلى الحمى، حيث والدي، بوجهه الأسمر، الملآن بالتجاعيد، ووالدتي، بعينيها الخرزيتين، الصابرتين، وليلى، بشعرها الأسود المتموّج وفستانها الأبيض، وهم ينتظرونني جميعاً خلف السّياج الشائك. تعانقنا وقبّل أحدُنا الآخر، ومن ثمّ قشّرتُ برتقالةً أحضروها لي، ووضعتُها في فمي. عصيرُ البرتقال مع الدموع المالحة، راحا يسيلان مختلطين على وجهي، ليصلا إلى الأرض مثل سائلٍ مالح، مرّ وحلو في آن واحد. أمّي تمسحُ شعري بيدِها المخشوشنة، ووالدي يدمدمُ، ثمّ يسعلُ، ويقول: «كيف حالكِ، يا ابنتي؟» ويضمّني، مالئاً حواسّي برائحة المسك والتربة الخصبة، والقهوة المطحونة مع حبّات الهال.

فوجئ الطبيب حين رأى عينَيّ تفيضان بالدموع، «حتماً ليست مؤلمة إلى هذا الحدّ»، قال.

مسحتُ عينيّ بيدي اليسرى، ونظّفتُ أنفي. لثوانٍ كادَ قناعهُ

المهني يسقطُ عن وجهه، لكنّه سرعان ما أعادهُ إلى مكانه. «هل لديكِ أقارب هنا؟»

«نعم»، كذبتُ، «أهلي وابنتي».

«يجب أن تعودي بعد غد لفحصِ القُطَب وتغيير الضمادات. المضاد الحيوي: ثلاث حبّات في اليوم ... وهوّني عليكِ».

حين أومأت لسيّارة الأجرة بالتوقّف، كانت الشمسُ على وشكِ البزوغ، والأضواء البرتقالية تنطفئ الواحد تلو الآخر، تاركةً الشّوارع مغطاةً بالضوء الرمادي للصباح. «ثماني عشرة قطبة، لكن لا تقلقي، لن تتركَ أثراً». كان السّائق يحتسي بعض القهوة، شاقّاً طريقَه عبر الشّوارع الخاوية. فتحتُ جزداني بيدي اليسرى وناولته النقود. «شكراً، يا آنسة»، قال، وغادر على الفور. كلمة آنسة في الحمى تُقال للعذراوات فقط، وكلمة سيّدة للمتزوجات والأرامل، ولكن ليس ثمة لقب للواتي يمارسن الجنس خارج عش الزّوجية، لأنهن ببساطة يُقتلن بالرّصاص.

لا بدّ أن غوين نائمة في مثل هذا الوقت، ولا أريدُ أن أعكّرَ صفوها، ففتحتُ بابَ قصر البجع، ومشيتُ على رؤوس الأصابع إلى غرفة الجلوس. كانت ليز ممدّدةً أرضاً ووجهها يلامسُ سجّادة المدخل. ليس بإمكاني حملها إلى السّرير، فأدرتُ وجهَها جانباً، وتأكّدتُ أنها لا تزال تتنفّس، ثمّ غطّيتها بالشّرشف. كيف يمكنني أن أسمحَ لهم برفع الحادثة إلى الشّرطة ضدّ هذه العجوز الثملة؟ لماذا أخلقُ المشاكل لها؟ لماذا أخلقُ المشكل لنفسي، أنا سلمى، ولست سالي أو سال، الغريبة التي يجب أن لا تُجابِه أهلَ البلد؟ تبدئين بتسلق الدّرج دون الاتكاء على الدرابزين، وترمين بنفسكِ

في السّرير، بعد أن تقفلي باب الغرفة، وتطفئين مصباحَ الطاولة، وتفكّرين في أخت شكسبير، وتعدّلين مرآتكِ، وتستمرّين في اكتشافِ هذه الأرض الجديدة، وتنامين بين الأغطية الباردة، ولا تدرين أين تضعين ذراعكِ، أو كيف تبسطينها، كي لا تشعري بالألم المبرّح، وحتى تستطيعي إغماض عينيك والنّوم.

بعد أن أنهيتُ الدوامَ المتأخّرَ في الفندق، مشيتُ إلى الشارع الرئيس، كأنّني مشدودة بسلك فولاذي إلى عربة الكباب المتوقّفة قرب البرج. جلستُ على المقعد، أستنشقُ رائحةَ أقراص الفلافل التي تموج في زيت القلي السّاخن، وأستمعُ إلى اللهجة العربية لسكّان شمال إفريقيا.

«هادي؟ بالحق ميزيانا، لكن تلك الفتاة بشعة مثل جدّتك، فريمينت، حرّاق ومخبل»، قال رجل عجوز.

«وها؟» أجاب الشاب. «ما نفهامش. لا أفهمُ العربية».

«قلتُ إنّ ياسين ليس لديه أوراق ولا عقل»، قال الرّجل الأكبر سنّاً.

«يساوي عشرة سنتات، إذاً»، قال الشّاب.

«نعم، تضع السنتات العشرة في حصّالة هاتف عمومي، وتتّصل بقسم الهجرة، وتقضي عليه»، قال الرجل العجوز.

رميا دفعةً جديدةً من الفلافل في مقلاة الزّيت. كان عبق كرات الحمّص المطحون والثوم والبقدونس التي تطفو في الزيتَ المغلي، يهفّ إلى أنفي ثانيةً.

أوقفتْ خيريّة السّيارة بالقرب من رصيف غير مستوٍ، وأطفأت المحرّك، وخرجتْ منها. مما قالته لي أدركتُ أنّنا على الطّريق الرئيسية في إحدى قرى بلاد الشام. مشتْ نحو متجر صغير للسِمانة، فيه بضعة صناديق خشبية ملأى بالفواكه والخضار، مرصوفة رصفاً مرتّباً على منصّة مبلطة. أمسكتُ القبضةَ، وأدرتُها، وأنزلتُ زجاج نافذة السيّارة، ثم أخرجتُ رأسي، وتنشّقت ثم تنشّقتُ، مالئةً فؤادي برائحة الحريّة. الهواء اللّطيف والدافئ، المفعم برائحة الطعام الغنيّ المقلي، كان له ملمسُ الحرير الهندي الثمين على وجهي. كنتُ أستحق أن أموت، لكنني لستُ حيةً فحسب بل حرّة أيضاً.

توجّهتْ إلى مرجل ضخم، مركون على طبّاخ نحاسيّ يعملُ على الكاز، على طاولة خشبية، وقالت شيئاً للرّجل ذي القبّعة البيضاء، المنهمك بتحريكِ محتوى الإناء بمغرفة كبيرة. كان يبحثُ عن كرات بنيّة متماسكة، ثم يضعها داخل شرائح الخبز المدوّر. بيده اليمنى يضغط الخبزَ على الطّاولة، ويهرس الكرات البنيّة، ويسكب بملعقة سائلاً أبيض داخل السندويتشات، ثم يضيف بعض رقائق الخسّ والطماطم، ويلفّها بورق أبيض رقيق، ويضعها على مهل في حقيبة بنيّة. أعطته خيرية بعض النقود، وحزمت الحقيبة البنية، وعادت أدراجها. «خذي- هذه سندويش فلافل!» قالت وأعطتني إحدى اللفافات.

مزّقتُ الورقَ الناعم، وأخذتُ قضمةً من أوّل سندويش فلافل لي. انهرست الكرات الطرية تحت أسناني، مالئةً فمي بنكهة الثوم والكمّون والكزبرة المفرومة. «ما هذه؟» سألتُ.

«إنها مصنوعة من الحمّص والفول والبقدونس والبصل، مع سائل الطحينة»، قالت وهي تنهشُ الخبز الأبيض.

طعمُ الفلافل وعبقُ الطّعام الغني المبهّر، ملآ السّيارة والطريق الترابية الواسعة.

اقشعرّت جلدةُ رأسي، كأنّ أحدَهم نفَخَ هواءً بارداً على رقبتي. نظرتُ إلى الوراء، نحو السّراب في نهاية الطريق الترابية، ورأيتُ جدّتي شهلا، في جلاّبيتها البدوية السّوداء، تعبرُ الطريقَ في سحابةٍ من غبار، حاملةً حقيبة جلدية ملأى بالحليب. تنفّست نفساً عميقاً، وهززتُ رأسي.

«مخبول، قلتُ لك»، قال الرّجل العجوز خلف عربة الكباب، المتوقّفة بجانب الطريق الرئيسية.

«وها؟» قال الشاب.

«الطابق العلوي لرأسه مؤجر»، قال الرّجل العجوز.

«لا أحد يريد أن يشتري فلافل. فقط رقائق البطاطا، رقائق البطاطا»، قال الرّجل الثالث، والذي قد يكون ياسين، ثمّ تنهّد.

«إنّهم إنكليز، ماذا تتوقّع؟» قال الشاب.

«انظر إلى هذا الشاب، يا سيّدي»، قال الرجل العجوز.

«اللعنة! توقّف عن الإشارة إليّ، أنا جزائري»، قال الشاب.

«أنت؟ جزائري؟ وعنزتي شقراء»، قال ياسين.

ضحكوا جميعاً.

«نعم، لا أستطيع أن أتحدّث بالعربية، لكنني جزائري»، قال الشاب.

رائحة الكمّون المطحون والفلفل الأسود والكزبرة، ملأت الشارع المزدحم. جالسةً على المقعد في الظلام، لم يكن بمقدور أحد رؤيتي، لكنني أستطيع أن أسمع أبواق سيارات البوليس، وأرى رجلاً يرمي كيساً في الحاوية، ومجموعة من الشبّان تغني، «إنكلترا، إنكلترا، القويّة، القويّة، إنكلترا». امرأةٌ ثملة تصرخ، «إبعد عني، أيّها السّكير!»

أخذتُ نَفَساً أخيراً، بعد أن أقسمتُ أن لا أعودَ إلى هنا ثانيةً، ورجعت إلى البيت.

*

أيقظني جرسُ الهاتف في البهو، فأسرعت إلى أسفل الدّرج، وأمسكتُ السمّاعةَ، قبل أن تسمعَه ليز. كان ماكس يصرخ: «أين أنتِ بحقّ جهنّم؟ المخزن الكبير يطلب إنهاء جميع البنطلونات».

فقدتُ لساني. كيف يمكنني أن أنجز خمسين بنطلوناً في يومٍ واحد؟ إنه ليس عملاً سهلاً و خصوصاً لأنها مثنية إلى الأعلى. بعد أن تمالكتُ نفسي، قلتُ، «لقد وقع حادث. جرحتُ ذراعي اليمنى، وتم تقطيبها. أعطني هذا اليوم فقط. سآتي إلى العمل يوم الاثنين».

«تقصدين يومين إجازة». ماكس ضمّ يوم السّبت الذي كنتُ أعطّل فيه عادةً.

«صحيح، يومان إذاً». قلتُ.

فاجأني حين قال: «أتمنّى أن تتعافي قريباً. لا عائلة، ولا شيء».

«شكراً ماكس. أراك يوم الاثنين»، أرجعتُ السمّاعة إلى مكانها.

حين نهضتُ فجأة من السرير المعدني، منهكةً بسبب الغثيان والتقيّؤ، رأيتُ بقعاً صغيرة من الضّوء تسبحُ حولي. في النزل الصغير، قليل الترحيب، حيث يطفئون نظام التّسخين بعد التاسعة صباحاً، أقفُ في منتصف الغرفة الباردة، باحثةً عن أجوبةٍ، عن موطئ قدمٍ، عن شيءٍ أتمسّكُ به، عن مرسى. أنقّبُ في حقيبة الظهر الكبيرة لبارفين، باحثةً عن حقيبتها البلاستيكية الملأى بأشرطة الكاسيت. اخترتُ واحداً مكتوباً عليه (حين يبكي الحَمَام) بالحبر الأرجواني. أوصلت سلكَ آلة التسجيل، ووضعتُ الكاسيت في الجيب، وضغطتُ زرّ التشغيل. أمسكتُ القلمَ استعداداً لكتابة كلمات الأغنية. صوتٌ أنيق ينشدُ للباحات والبنفسج والحمَام الباكي. أعقب ذلك سيلٌ من الصّرير الذي له وقعُ الشهيقِ المتبوعِ بالتنهّدات. بحثتُ في القاموس عن معاني الكلمات التي لا أفهمها، وقرأتُ مراراً الأغنية، حتى حفظتها عن ظهر قلب. أقلب الشّريط ثانيةً، وأستمعُ ثانيةً وثالثةً. أنهضُ وأمسكُ بظهرِ الكرسي كي أوازنَ نفسي، وأبدأ الرّقصَ على صوت الموسيقى. أضعُ خطوةً إلى الأمام وأخرى إلى الخلف، كما يفعلون في التلفاز تماماً، ثم أبدأ بالقفز والهبوط على رؤوس أصابعي، حتى يلامس بطننا قدميّ السجّادةَ الباردةَ، ثم أقفز أعلى فأعلى في الهواء، حتى يطيرَ شعري عن كتفَيّ. فجأةً تدخلُ بارفين الغرفةَ.

«ماذا تفعلين بحقّ الجحيم؟»

«لماذا نتبادل الصراخ؟» سألتُها.

«أنا لا أصرخُ»، قالت.

«ربّما أنتِ مثل أمّي فحسب»، غنّيتُ.

وضعت حقيبتها على الطاولة، وخلعت حذاءها، ثم جلست على حافّة سريرها. وأراحت رأسها المحني بين يديها.

توقّفتُ عن الغناء والرّقص، وجلستُ بالقرب منها، وقلتُ: «أنا تعبة. أنا مريضة. أبحثُ عن الزهور المتفتحة».

أمسكت كلتا يدي وقالت: «لو لم تكوني تخسرينَ الكثير من وزنكِ».

«جملة شرطية. أفهم. تعني التمنّي»، قلتُ مثل معلّمة مدرسة.

*

حين التفتّ بجذعي، أدركتُ أن ليز تقفُ تماماً خلفي.

«صباح الخير». ابتسمت.

«صباح الخير»، قلتُ، وكنتُ على وشكِ الصعود مسرعةً إلى غرفتي.

«ماذا جرى لذراعكِ؟» سألتْ.

نظرتُ إلى شعر ليز المنفوش، وعينيها المنتفختين، ويدها التي تضغط جبهتَها، وأنفها المستدقّ، وقلتُ: «لا شيء». بدت وهي تقف وسط البهو تعبةً وشاحبة.

«ماذا جرى لذراعكِ يا سال؟»

«لا شيء، حادث بسيط»، قلتُ. لم تكن تتذكّر على الإطلاق تلك الليلة.

«عملكِ في آخر اللّيل خطير جداً»، قالت.

كنتُ أعرفُ ما الذي يدور في خلد ليز. كانت تظنّني قحبة من الطبقة السّفلى، تدور وتبحث في الميناء عن الزبائن، ولا بدّ أن أحد قوّاديها طعنَها في ذراعها. كلّ ذلك مكتوب على وجهها الذي تبدو عليه آثار إسرافها بشرب الكحول. «يجب أن أذهبَ الآن»، قلتُ.

قلّدت لهجتي كالببغاء. «يجب أن أذهب الآن». قالت وابتسمت.

لم يكن ذلك يشبه لهجتي، بل ذكّرتني بأحد برامج التلفاز عن العبيد والسّادة، لهجة هي أقرب إلى أهل الشّمال. وحين فكّرتُ فيها جيّداً، ذكّرتني بلكنة الدكتور جون روبسون. أسرعت إلى غرفة نومي، وأوصدتُ البابَ.

مع ثلاثة أيام عطلة، سيكون بإمكاني إتمام ورقتي عن أخت شكسبير. وبدأتُ أكتبُ: لماذا طُلِب منيّ أن أكتبَ عن أختِ شكسبير وليس عن شكسبير، برغم أنّ الكثير قيلَ وكُتِب عنه؟ لا بدّ أنه كان لديه صديقات ونسوة يساعدنه. لا أحد يريد أن يتحدّث عن النساء. تذكّرتُ قصصَ أبي زيد الهلالي، ومغامراته التي يحفظها الصّغار والكبار عن ظهر قلب. ولكن لا أحد البتة يتحدّث عن زوجته، أو ابنته أو أمّه. أمضيتُ الصباحَ برمته أكتبُ الصفحات السبّع التي طلبها الأستاذ، مستخدمةً بعض القصص التي سمعتُها في عهد الطفولة كأمثلة. وبين ارتشاف القهوة الباردة، والتلصص عبر النافذة إلى الصباح الندي الصافي، والكتابة، أنهيتُ الورقة. كانت الخاتمة عن تجربتي أنا، كأجنبية في بلادهم. هم،

وأنا، نظنّ أنّني لا أعيش هنا، لكنني أعيش، تماماً مثل النسوة اللواتي أُهملن في الحكايات. قارنتُ ورقتي بالكتاب، بدت مثل عمود الثرثرة في صحيفة (صاندي سبورت). هذا ما لديّ. لا أستطيع الكتابة مثلما يكتبون. لو كان بإمكاني فعل ذلك، لما كنتُ أرتقُ حواشي الثياب.

غفوتُ قليلاً، لكنّ الطرقات القوية لليز أيقظتني حوالى موعد الغداء. لا بدّ أنها استعادت وعيها قليلاً. فتحتُ الباب. كانت تحمل صينية من خشب الصنوبر، مغطّاة بمنديل أبيض مزخرف، وعليها صحن حساء، وشرائح من الخبز الأسمر، وفنجان شاي. وقفت فوق رأسي مبتسمةً بلطف مثل ملاك. قلتُ شكراً وهجمتُ على الطعام. امتنان. رائحة الخزامى ملأت الغرفة. لا بدّ أنها خرجت توّاً من الحمّام. «هل أنت ذاهبة إلى مكان ما؟»

«نعم، عليّ أن أخرج. أنا ذاهبة لأرى طبيبي».

من الطريقة التي تلفّظت بها، ينتابك انطباع بأنها حقّاً ذاهبة إلى طبيبها الخاص في شارع هارلي حيث يذهب النجوم المشاهير، لكنني كنتُ أعلمُ أنها مثلي، مسجّلة لدى دائرة الخدمات الصحية الوطنية.

عزيزتي نورا،

تحيّاتي لكِ من إكستر. لا أشعرُ أنني على ما يرام. صاحبة منزلي، التي تعاني مشكلة إدمان الكحول، توهّمت بأنني أحد جيادها التي اعتادت امتلاكها، وضربتني بسوطها. الجرحُ يلتفّ

حول ذراعي مثل أفعى. وحيث لا يوجد أحدٌ يعدّ لي الحساء إلاّ صاحبة منزلي، أشعرُ بالأسف على نفسي. أتمنّى لو كنتِ هنا لتمرري يدك على رأسي. أرغبُ في أشياءَ كثيرة. ليلى اجتازت امتحانات الشهادة العامة مستوى (A)، وستلتحق بالجامعة قريباً. ستأتي إلى المنزل خلال عطلة نهاية الأسبوع، ونعود بسيارتنا إلى دارتموث، ونُمضي سحابة نهارنا نسبحُ في البحر. أراكِ تبتسمين. نعم، لقد تعلّمتُ السباحة في مسابح المدينة، حيث تنتظرين دورك على مدى أيام، وتدفعين ثلاثة عشر جنيهاً، ثم يمرنونك على السّباحة. المدرّبة في الخمسين من عمرها الآن، لكنها تبدو شابّةً جدّاً. قالت إن السباحة تحافظُ على نضارة البشرة. هذا هو السّبب الذي يجعلنا نشيخُ سريعاً في الحمى، لأننا لا نملك مياهاً لنشربها، ناهيك عن مياه نسبحُ فيها.

نورا، آملُ أن تكوني أنتِ ورامي وريما في صحّة جيدة. كيف حالُ السكّري مع رامي؟ إنني أتابع أخبار أحدث العلاجات هنا. إنّهم يُجرون التجاربَ على بنكرياس الخنزير، لكنّكِ لا تريدين خلايا الخنزير أن تُزرَعَ داخل طفلكِ المسلم.

لا ندري، ربما يجمعنا القدرُ معاً مرّةً أخرى.

لعقتُ المغلّفَ الذي لا عنوانَ له، وألصقتُهُ بإحكام.

إذا نظرتِ بإمعان، فستجدين مئات الرسائل مرمية في صناديق القمامة، أوتبعثرها الرّيح هنا وهناك، إمّا حول مبنى البريد نفسه،

وإمّا في الشّوارع والطرقات الجانبية، في البلاد القديمة، فيختفي حبرها الأسود أو يُزال نهائياً. يتبعثرُ الورقُ الأصفر، والفضلاتُ، والأكياسُ البلاستيكيةُ الفارغة، والأوراقُ الجافّة، ثم تتجمّعُ، لتتبعثرَ ثانيةً، حتىّ تجدَ زاويةً آمنة تتعفّنُ فيها. كانت البيوتُ اليونانيةُ البيضاء العتيقة تلمعُ قبالة البحر اللازوردي، الذي لا يُقلِقُ سكينتَه سوى أمواجٍ بيضاء مزبدة مثل شعر عنق الفرس. سأوفر وأسافر إلى اليونان، أقرب منطقة إلى وطني أستطيع الذهاب إليها، من دون أن أتعرّض لإطلاق النار. سأقف فوق أعلى جرفٍ، وأصرخُ، موجّهةً آلاف التحيّات، عبر البحر المتوسط.

شاهدتُ برنامجاً محوره رجال يصاحبون فتيات أصغر منهم سنّاً. «خاطفات الأزواج!» صرخت إحدى النسوة من بين الحضور. حدثني عن مشاعر الاخوة بين النساء، قلتُ في نفسي. كانت نورا تحكي لي عن الأزواج الذين كانت تقدّمُ خدماتها إليهم. كنتُ أقول لها: «هنا في هذه البلاد، لا يمكنكِ أن تكوني جادة؟»

كانت تضحكُ، بل تُطلق واحدةً من ضحكاتِها، التي لطالما دفعَ زبائنُها الكثير لسماعها، وتربتُ على خدّي. «أنتِ لا تزالين ساذجة، وصغيرة».

بعدئذ، كانت تأتي ناظرةُ السّجن وتقولُ لنورا: «اتركي هذه الفتاة وشأنها. إن ضحكتكِ الفاحشة تترفزني. أستغفركَ يا الله. هذا ليس بيت دعارة».

«أوه! صحيح! ولكن لماذا تنعتنا دوماً بالعاهرات؟»

وكان صبر نعيمة ينفد.

«وللمناسبة، قدمتُ لزوجكِ خدماتي الخاصة» تقول نورا.

وتصفعها نعيمة بكلّ ما أوتيت من قوّة.

تنبطح نورا أرضاً وتبدأ بالبكاء، وتذرف دموع الألم والإهانة.

تغلق نعيمة الباب، وتبصق، «قذارة، هذا هو أنتِ».

مدام لمعة، التي كانت مقتنعة بأنها مجرّد قذارة، تستيقظ في الوقت المناسب، لتسمع آخر كلمات نعيمة. تضع يديها على أذنيها، وتشرعُ في البكاء الخافت.

زارتني غوين نهار الأحد. اتّصلتُ بها هاتفياً وأخبرتها بأنني لم أتخلَّ عن زيارتها، لكنني لستُ على ما يُرام. أتت برغم عدم محبّتها لليز، وجلبت لي نسخة مستعملة لرواية كنتُ أبحث عنها. جلست على حافة السرير وسألت: «من فعل بكِ هذا؟» وأشارت إلى ذراعي المضمّدة.

أومأت لها بأن تقترب مني أكثر، وهمستُ في أذنها: «كانت ليز ثملة، وضربتني بسوطها».

دسّت غوين خصلات من شعرها القصير الأشيب خلف أذنيها، وتنهّدت: «يا للرعب! لقد فقدت هذه المرأة عقلها».

«كذبتُ على الطبيب وقلت له إنّني جرحتُ يدي وأنا أفرمُ السَلَطَة».

«هل صدّقكِ؟»

«كلاّ، لكنه كان تعباً، ومرهقاً من العمل، فتجاهل الأمر».

«يجب أن ترحلي من هنا».

«لا أستطيع».

«حمداً على سلامتك، يا سلمى»، قالت، ثم عانقتني بقوّة. إنّه القربُ الذي كنتُ أبحث عنه منذ أيام فبدأتُ أبكي.

«ماذا دهاكِ الآن؟» قالت بصوت معلّمة المدرسة.

«لا شيء، أريدُ أن أكونَ مع عائلتي»، قلتُ مثل طفلة.

«ولكن، أنتِ تعرفين أنه لا يمكنكِ أن تكوني مع عائلتكِ- هذا إذا كان لا يزال لديك عائلة هناك». ندمت غوين على قولِ هذا في اللحظة التي نطقت فيها هذه الكلمات.

رفعتُ ياقة قميصي إلى الأعلى وقلتُ: «لم يعد يهمّني الأمر... الآن».

«كلاّ، لا يهمّ» قالت، ومرّرت أصابعها على الشّرشف المزخرف. «انظري ماذا جلبت لكِ. جبنةُ الحلّوم التي تحبّينها» قالت، وأخرجت إصبعاً من الجبن الأبيض الملفوف بالبلاستيك، من حقيبتها البلاستيكية. ملأت رائحة النعناع والملوحة الغرفة.

«من أين حصلتِ عليها؟ من الصعب إيجادها؟»

«أوصيتُ دكاّن المعلّبات في المدينة عليها»، قالت.

نظرتُ إلى شعر غوين الأشيب الأنيق، ووجهها المتورّد، ونظارتها الذهبية، وبلوزتها الزهرية ذات القبة التي تشبه حرف (V)، وابتسمتُ.

«هذا أفضل بكثير» قالت.

حلوى حلقوم تركية وجوز هند

ذهبتُ إلى الجامعة مرّةً أخرى لأقدّمَ المقالة إلى أستاذي. وضعتُها في مغلّف بلاستيكي، بنفسجي اللّون، كانت قد أعطتني إياه غوين حين التحقتُ أخيراً بالجامعة المفتوحة. اخترتُ ارتداء تنّورة مستعملة، غامقة اللّون، ومزهّرة، مع قميص أبيض طويل ومزخرف، كانت قد جلبته لي بارفين في عيد ميلادي. مسّدتُ تنّورتي بأصابعي، وتأكّدتُ أنّ شعري مربوط بأناقة، وبصقتُ على منديل ورقي، ومسحتُ الغبار عن حذائي، ثم طرقتُ البابَ، وتلقّيتُ إجابةً فورية وراعدة «ادخل»، جمّدتْ أطرافي. بأصابع مرتعشة فتحتُ البابَ، لكنني لم أستطع أن أجرّ قدمَيّ إلى الأمام، على السّجادة الفارسية.

«ادخلي»، قال بنبرة أكثر لطفاً.

وقفتُ قرب الباب، وقلتُ، محاولةً أن أقلّدَ لكنةَ ليز: «هذه هي ورقة البحث!»

«آه! أخيراً»، قال ونظر إليّ من فوق نظّارته التي لها شكل نصفَي هلال. أخذ المغلّف ووضعه على كومة أخرى على مكتبه. كنتُ لا أزال واقفة، حين قال وهو يقلّب فيها: «اجلسي!» وقعت

عيني على الرّواية نفسها التي كنتُ أقرأها، موضوعة على الرفّ، خلفه، وأخذتُ ملاحظة عقلية لأخبرَ غوين بالأمر.

«أرى أنّكِ لا تحملين دورقَكِ الترمس معك. هل ترغبين في فنجان من القهوة؟» سأل. خلع نظّارة القراءة، وأغلق إطارها بلطف، ووضعها داخل صندوق جلدي ناعم.

«نعم، شكراً»، قلتُ، متوقّعةً أن القهوة ستكون جاهزة مباشرةً.

نهض، وشدّ قميصَه الأزرق فوق بنطلونه الجينز، ووضع يديه في جيبيه، وقال: «هيّا بنا».

مشينا على العشب، بين الأزهار والنباتات والأشجار، التي لا أعرفُ أسماءَها. لو كان سألني عن تلك الشّجرة الطويلة بأزهارها المنتصبة كالشّموع لما عرفتُ ماذا أقولُ، «الزّان، كستناء الحصان، البلّوط»، التي كنتُ قد حفظتُها أخيراً من دون أن أحاولَ مطابقتَها مع أشكال الجذوع والأوراق. لو كان سألني عن اسم ذاك الكلب الذي يطاردُ عصاً لما عرفتُ ماذا أقول: «دالماتيان، روت ويللر، السّاتيان»، التي كنتُ قد حفظتُها أخيراً، من دون أن أطابق أسماءَ كائناتها، مع الكلب الحقيقي. حين أطبقتُ أصابعي على راحتيّ الفارغتين، أدركت أنّهما مبتلّتان بعرق الجهل.

رجلٌ بسترةٍ مخملية حمراء، بالية، وربطة عنق قصيرة، ونظّارة، مشى باتجاهنا، فوق الممشى، وحين اقترب منّا وصار بإمكاننا سماعه، قال للدكتور روبسون بلهجة شمالية محلية: «كيف حالك، يا رجل؟» وابتسم.

قال الدكتور روبسون بصوت خافت: «ياله من نذل!»

«ماذا قال؟» سألتُ.

«إنّه يتهكم على لهجتي»، قال.

«لماذا؟»

«أنا من قرية اسمها آيكليف. رجل من الشّمال»، قال، ومسح شعره الضئيل بأصابعه.

كنتُ على وشكِ تجاوز المسافةَ بيننا، ومسك يدَه، لكنّني تذكّرتُ أنّ راحتَيّ مبلّلتان بالعرق. لو كانت شهلا مكاني، لقالت بصوت عالٍ: «العينُ لا تعلو على الحاجب».

كان البناءُ مغطىً تماماً بالأشجار والنباتات القصيرة. صعدنا سريعاً الدّرج القديم باتجاه المدخل. فتحَ الدكتور روبسون البابَ لي، ودخلتُ كأنني سيّدة. كانت جدرانِ المقهى مصنوعة من الزّجاج البرّاق، وحين جلستُ، شعرتُ أنّني في العراء، في الحديقة الساحرة، أتنشّقُ عبقَ الأشجارِ المزهرة. رائحة القهوة، والأجساد والملابس النظيفة، هفّت باتجاه أنفي حين عاد الدكتور روبسون يحمل صينيةً عليها فنجانان من القهوة السّاخنة، وكعكة. ابتسم وسأل بحلاوة: «سكّر؟»

«كلاّ، شكراً، دكتور روبسون»، قلتُ فيما كنتُ لا أزال أنظر إلى الشجرة الرهيفة المزهرة.

تابعَ عينَيّ وقال: «ناديني جون، من فضلك. هذه شجرة القَارنية اليابانية».

جلستُ على حافّة الكرسي، الأقرب إلى المدخل، متظاهرةً بأنني أستمتع بفنجان القهوة معه.

تحرّى وجهي، ثم سأل: «ما اسمُ ابنتكِ؟»

تلعثمتُ وأنا ألفظُ اسمَها، «لي... ليلى»، قلتُ بصعوبة وبلعتُ لعابي.

تمطّى إلى الوراء، ووضع يده تحت قميصه المرخي، وفرك بطنه، وقال: «هل لديك عائلة كبيرة؟»

«نعم»، اقشعرّ بدني، كأنني أُصبتُ بزكام. شعرتُ أنّ قميصي القطني الرّقيق صار رطباً ولاصقاً. يجب أن أغادر قبل أن يلتصق النسيج بظهري المتصبّب عرقاً. ارتشف قهوته، وراح يداعب بإصبعه شفة الفنجان. «هل يستهلك الاعتناء بالعائلة وقتاً كبيراً؟»

«نعم»، قلتُ.

«نعم، جون»، قال.

«نعم، جون، أن تطبخ لهم، وما سوى ذلك»، قلتُ ودسست خصلة شعر متمرّدة داخل الرباط المطاطي. وجدتُ الأمر صعباً أن أناديه جون. في البلاد القديمة، لا يمكن مناداة الأساتذة بطريقة غير رسمية.

«شكراً لك على القهوة»، قلتُ ونهضتُ.

أخذ رشفةً أخيرةً وقال: «أراك الاثنين المقبل، في الوقت نفسه».

تنهّدتُ بارتياح، وسحبت قميصي عن ظهري، وأسرعت إلى الخارج.

فيما كنتُ أهبطُ الهضبة، رأيتُ شجرةً مزهرةً كلّها، تتمايلُ

زهورُها البيضاء الطّرية في الرّيح. «القَارنية، شجرة القَارنية»، ردّدتُ. بدأتُ أكتب رسالة في ذهني. إلى من يهمّه الأمر. اسمي سلمى ابراهيم الموسى. أمضيتُ ثماني سنوات في سجن الإصلاح. في السنة الأولى أنجبتُ طفلة، لكنها أُخذت منيّ على الفور إلى دار الأطفال غير الشرعيين. أتساءل هل بإمكانكم مساعدتي على العثور عليها؟ عنواني البريدي هو... لكنّني مزّقتُ الرّسالة المتخيّلة. كيف يمكن أن أكشف عن هويّتي الحقيقية وعنواني؟ يمكن أن يقتفوا أثري ويقتلوني. كيف يمكن أن أتجاهل صرخات ليلى، وتوسّلاتها المستمرة؟ وقفتُ أسفل الهضبة ونظرتُ إلى الخلف. كانت تميد باخضرار عشبها وشجرها ونباتها، لكن فجأةً، كأنّما بفعل السحر، يُمحى كلّ شيء، وتبدو مثل جبل أجرد بنّي، مكسو بأشجار الزيتون الفضّية وأشجار الخوخ وعرائش العنب. جلستُ على حجر أملس، ووضعتُ رأسي بين يدَيّ، وتنفّست عميقاً. أيّهما أفضل: أن أعيش بنصف رئة، كلية، كبد، قلب، أم أعود إلى البلاد العتيقة وأموتُ رمياً بالرّصاص؟ أن أتعلّم كيف أُسكِتُ هذا الألم الخافق أم أضع حدّاً له نهائياً؟ جمهرةٌ من النّحل تحوم وتمتصّ رحيقَ بعض السوسنات الأرجوانية، ذات القلوب الصفراء الساطعة. حين التفتّ ثانيةً، كانت الهضبةُ مغطاةً بسوسن الحمى الأسود.

حين نهضتُ لأستأنفَ عملي، كانت تنتابُ ماكس نوبة من المزاج العكر، فراح يلعنُ اليابانيين طوال الوقت، بسبب مجيئهم إلى هذه البلاد، وشرائهم المصانع. حاولتُ أن أكون غير مرئية،

مثل كاسبر، وأنجز عملي بخفّة وإتقان كنسيم الصيف. أناس كثيرون يفقدون أعمالهم، وأنا محظوظة لأنني لا يزال لدي عمل، قلتُ بيني وبين نفسي، فرحتُ أرتق وأخيطُ وأكوي، حتىّ امتلأ أنفي برائحة النشا. في آخر النهار، جلس ماكس بالقرب مني وسألني: «كيف حالُ ذراعكِ؟»

«إنّها على ما يرام، شكراً».

وضع الإبر والدبابيس على آلة الخياطة، وتناول حقيبة ورقية عن الأرض الوسخة. «هذا من العائلة. كعكة جوز الهند»، قال، ومسحَ بأصابعه شعره المغطّى بالجِل، ليتأكّد أنّ الموجة التي تشبه الغرّة لا تزال ملتصقةً برأسه.

«شكراً، هذا لطفٌ حقيقي من زوجتِكَ حقاً»، قلتُ.

«قالت لا بدّ أنّكِ تحبّين جوز الهند، لأنّك أجنبية وسوى ذلك»، قال وابتسم.

«نعم، كثيراً، كثيراً جداً. شكراً»، كذبتُ. المرة الأولى التي رأيت فيها جوزة هند كانت قبل أعوام قليلة حين جلبت بارفين واحدة من السوق، «لكي تطبخها مع الدّجاج».

«لا بأس، يا بنت»، قال ومشى بعيداً.

دُهِشَ آلن حين رأى الذراع المضمّدة. «ماذا حدث لك؟»

«حادث صغير»، قلتُ وابتسمتُ.

«متى؟»

«قبل بضعة أيام»، قلتُ.

«هل أنتِ متأكّدة أنكِ تريدين أن تعملي الليلة؟»

«نعم»، قلت.

«سأجلب لكِ بعض القفّازات المطاطية لترتديها، وأنتِ تجمعين الكؤوس».

كان البار مكتظّاً، ورائحةُ البيرة ودخان السجائر والنَفَس الكاسد، تملأ الهواء. ركّزتُ على جمع الكؤوس وصفّها في درجِ غسّالة الصحون. أحد الزبائن، وهو رجل نحيل ومحترم، صرخ فجأة: «إننا لسنا في غرفة عمليات. قسماً بيسوع! لماذا هذه القفّازات. أنا لستُ مصاباً بالإيدز، هل تعرفين ذلك؟» خطوتُ إلى الخلف، وطويتُ مرفقَيّ، لأمنعَهُ من سحبِ القفّازين.

شعر آلن بالغضب الشديد، وأسرع نحو الرجل، وطلب منه المغادرة، «هيّا من هنا!» قال.

شعرتُ بالإحراج. بالغ آلن بردّة فعله. تعليمات التكيّف كمهاجرة كانت تقول: «تجنّبي المواجهة بأيّ ثمن». توسّلتُ، «آلن».

بعد عشر دقائق، عاد الرّجل النحيل المحترم، وبرفقته مدير الفندق السيد برايتويل. ركعتُ خلف طاولة البار، وقلبي يخفق، ورحتُ أضعُ الكؤوسَ في درج الغسّالة. إنني على وشكِ أن أخسر عملي. ساد صمتٌ مخنوق. مشى المدير نحو آلن وقال: «دعني أعرّفكَ إلى السيّد جون باركر راثبون (OBE)، مدير شركة إنتربرايسز إنترناشنال المتحدة».

لا بدّ أن الأمر خطير، قلتُ في نفسي، مع أنني لم أفهم ما الذي ترمز إليه (OBE).

«آلن، أريد منكَ أن تعتذر إلى السيد باركر راثبون».

عدّل آلن صوته، وقال: «آسف يا سيّد» ومشى خلف حاجز البار.

«أين هي موظّفة البار الفظّة؟» سأل المدير.

رفعتُ رأسي ببطء، ولوّحتُ في الهواء بقفّازي المطاطي الأصفر كالعَلَم، وقلّدتُ كالببغاء آلن، «آسفة يا سيّد، آسفة جدّاً، جدّاً، جدّاً، يا سيّد».

«لماذا تضعين القفّازات؟» سأل.

كشفتُ له عن الذراع المضمّدة.

«يجب أن تكوني في المنزل، تستريحين».

كنتُ أرتجفُ، في تلك الأثناء، متأكدةً أنّني سأُفصل من عملي. بحثتُ عن آلن، لكنه كان مشغولاً في خدمة الزبائن. ساحبةً قفّازيّ المطّاطيّين، قلتُ: «أنا على ما يُرام، حقّاً»، وابتسمتُ.

كان المدير على وشك قول شيء ما، لكنّه غيّر رأيه ثانيةً، وقال: «متى ستتخلصين من هذه الضمادة؟»

«غداً»، كذبتُ.

خرج المدير وعاد السيد باركر راثبون (OBE) إلى مكانه، وبدأ الشرب كأنّ شيئاً لم يكن.

بعد الإغلاق، بسطنا أرجلَنا على الكراسي، وجلسنا نحتسي القهوة على جاري العادة، ثم شرعنا في الحديث.

«لا بدّ أن ابن العاهرة غني جدّاً»، قال باري، مشيراً إلى السيد باركر راثبون.

مقلدةً إياه، قلتُ: «قسماً بيسوع، أنا لستُ مصاباً بالإيدز».

وانضمّ إليّ آلن. «ثم بدأ جبل الجليد الأسود بالانهيار مثل الدعاية للإيدز في التلفاز».

أما باري فقال من خلف حاجز البار: «إنه انهيارٌ جليدي من المرض».

سألتُ آلن: «ما الذي ترمزُ إليه الأحرفُ (OBE)؟»

«نظام الإمبراطورية البريطانية».

«إذاً، هو لقب، مثل السِير»، قلتُ. وفكّرتُ في الجنتلمان الإيرلندي-الإنكليزي الكامل، والسِير الوحيد، القسّ ماهوني.

كانت الشمسُ تشرقُ على منزلِ ماهوني في برانسكوم. رفوفٌ مرصوفةٌ بالكتب القديمة، والكنبة البالية، والرّاديو العتيق في الزّاوية، والإنجيل، مع نظارة القراءة، على السترة الجلدية. كان يعطيني دروساً في اللغة الإنكليزية، لكي «يؤهّلني للتعامل مع المحيط القاسي». إنّ أجمل لغة هي لغة السلام والتصالح، يقول، ثم يقرأ لي خطبة بورتيا عن الرّحمة. والآن، على غرار أبي، أبحثُ في السّماءِ عن الغيوم، وفي المطر الناعمِ عن اللّطف والرحمة.

كان ذاك المساء مساءً صيفياً مجيداً في برانسكوم، حين بدأ القسّ ماهوني يعدّ المعكرونة في المطبخ، فيما كان يُصغي إلى جاز نهارِ الأحد. كنتُ أجلس على الكنبة، في غرفة الجلوس، أُصغي إلى أصوات البيت: عجين المعكرونة الذي يفورُ في الماء

المغلي، حبّاتُ الفطر التي تتقلّبُ في إناء القلي، الماءُ الذي يتسرّب من إبريق زجاجي، ترتيب الطّاولة، تحريك، وتفحّص، وصفير، ثمّ غناء. كانت الأغاني تتحدّث عن الشّوق إلى لقاء شخص حنون، شخص يهتمّ بالأحباء ويرعاهم.

نورا، ليس ثمة كوابيس في تلك الظهيرة. نظرتُ عبر أبواب الفناء الخارجي إلى شجرة الورد البرتقاليّة، في الزّاوية، ينيرها الضوءُ الذهبي للشّمس الغاربة، ثم استنشقتُ العبقَ الآتي من المطبخ، وأصغيتُ ملياً إلى الصّوت المتحمس والحزين. حبستُ أنفاسي، ثم تنهّدتُ واسترخيت على الكنبة الجلدية الناعمة.

لم أكن أعمل في ذلك المساء، فقرّرتُ أن أدعو نفسي إلى سهرة في بار (رأس التركي). كانت ذراعي لا تزال ملفوفةً بضمادة خفيفة، فكان عليّ أن أصارع لأحتفظَ بها خارج الماء، لدى الاستحمام. بدأتُ بالطقس الروتيني الشاقّ في محاولة لجعلِ نفسي أكثر شباباً. حمّام زيت الصنوبر، والحلاقة الدقيقة، تبعهما دهنُ جسدي بزبدة الكاكاو، ورشّ جسدي بمزيل الرائحة، وإضافة المثبت إلى شعري، والانحناء لتجفيفه. هذا الوضعُ المعكوس تسبّب لي بارتفاع ضغط الدم. بدأت أرتجفُ، فالرأس يتدلّى مثل دجاجة، بعد أن أضيف إليه الزّيت كأنه أوشك أن يُحمّص، وشعري يمسحُ السجّادة. كان بإمكاني رؤية الوسخ الذي يقلّم أظفارَ قدميه المغطّاة بالغبار، تبرز من تحت الستائر. رميتُ شعري إلى الخلف، ووقفتُ بثبات، ثمّ شددتُ عمودي الفقري، مستعدّةً لمواجهتِهِ، لكنّه اختفى ثانيةً. فتحتُ الستائرَ، ولم أجدْ شيئاً هناك،

باستثناء غسيلي الذي ينطلق منه البخار، مطوياً، وملفوفاً بأناقة حول جهاز التدفئة.

لو تراني أمي البدوية لتلمّظتْ وقالتْ: «تبدين مثل عاهرة». من المستحيل إقناعُ أمّي بأن النسوة المحترمات هنا يرتدين أيضاً ثياباً تجعلهنّ يظهرن كعاهرات. اعتادت أمّي أن تغطّي أصابع قدميها، بطرف جلابيتها السّوداء الطويلة، حين تكون جالسة. «لا تدعي الرّجالَ يرون كاحليكِ». كاحلاي البشعان النحيلان ليسا جذّابين، كما قالت مرّةً ممثلةٌ ممتلئة الجسم. كان الوقت متأخراً، لكنّ شمسَ الصّيف كانت لا تزال مشرقة، صابغةً كلّ شيء بلون الذّهب: النهر، والأشجار، والهضاب. ربطتُ شال أمّي الأسود حول كتفَيّ، وتوجّهتُ إلى حانة (رأس التركي). أسرعتُ حين اقتربتُ من بناية البريد الملكي الفولاذية الضخمة، هناك حيث يفرزون رسائل منطقة إكستر كلّها. لا بدّ أنّني معروفة جيّداً هنا، أنا السّيدةُ المجنونةُ التي لم تكتب البتّة عنواناً كاملاً على رسائلها. بدت الشمسُ في هذه اللّحظة مثل جرح في نهاية الأفق، تنزف دماً صافياً على المكان. المياه تشتعل، مثلما كان يحدث لجدول القرية في الصيف. محصول القمح ينضج بهدوء تحت ضوء الشّمس، فيأتي الرجال والنساء والشبّان والأطفال ويقولون: «أليس غروب الشمس جميلاً؟» العجائز يقلن: «شكراً لله على لطفه. كان يمكن لمحاصيلكم أن تُبتلى بالجراد أو أن يأكلها العفن».

وقفتُ على ضفّة النهر، متردّدة في دخول الحانة، سعيدةً بمراقبة الجرح وهو يتماثل للشفاء، والشمس وهي تغرب خلف

التلال، بيد أنّ صوت الأحاديث الحميمة، ورائحة السجائر، والبيرة، وصوت صندوق الأغاني المرح أغرتني بالدخول. جلستُ على الكرسي المعتاد في الزاوية، وطلبت عصير الليمون. بعد الرشفة الأولى، بدأتُ أنظر حولي لأرى إذا كان جيم هناك، فأتجنّب رؤيته. تماماً خلفي، في المنصة المسموح بها التدخين كان الدكتور روبسون، . . . أو جون، أستاذي، يجلس مع مجموعة من الشبّان والشابّات، الذين بدا أنّهم من الطلبة. رآني فرفع كأسه لي. فرفعت كأسي. في تلك اللحظة بالذات، أدركتُ أن جيم كان يمشي نحوي، وقد فات الأوان لتجاهل وجوده. كنتُ قد أخبرتُ جون أنني امرأة مسؤولة عن عائلة، والآن، انظروا.

«هاي»،

«مرحبا»، قلتُ، ناظرةً إلى كأسي.

«هل تتبعينني؟» سأل.

تذكّرتُ الفناجين السّاخنة من شاي المريمية، على الطاولة الجانبية، والفطور السريع، والالتقاء به في المدينة. كما سبق أن رأيته في مقهى، مع فتاة شقراء، صغيرة الجسم، وهما يتهامسان. نظرتُ إليه ولم أنبس ببنت شفة.

«إذا كنتِ تتعقّبينني، فسأعرف كيف أتعامل معك» قال.

كنتُ أرتجف حين قلتُ له: «ما الذي تقوله؟»

كان جون يراقب من بعيد، حين مدّ جيم إصبعه نحوي، ومشى بعيداً.

وضعتُ الشّراب جانباً، وأسرعت خارجةً. كان جون خلفي

تماماً. «هل أنتِ على ما يُرام؟» قال، دافعاً نظّارته إلى الأعلى.

«أنا في خير يا جو... جون»، قلتُ.

«ما الذي حدث لذراعكِ؟» سأل.

«لا شيء، خدش صغير»، قلتُ، وغادرت على الفور.

لم أكن أحتاج حقّاً إلى أن يُظهر لي جون أيّ نوع من العطف.

مشيتُ مترنحة مثل دمية مثبّتة بمسامير بلاستيكية، حتى إنّ أيّ نوع من العطف أو اللّطف، يمكن أن يذيب الروابط التي تشدها، ويتركها كومةً من الأطراف المبعثرة. كانت ليلةً غير مقمرة، بيد أن الأضواء الكهربائية الكبيرة بدت مثل أقمار مريضة تطفو على الماء. كانت أضواؤها الاصطناعية، التي تنوّر المكانَ طوال الليل، تجعل كلّ شيء يبدو غير حقيقي، وكأننا جميعاً ممثّلون في فيلم عن كائنات من الفضاء الخارجي. أحكمتُ لفّ الشّال حول كتفَيّ، وتمنّيتُ أن أكونَ في مكان آخر، أو حتى جثّة هامدة. اشتقتُ إلى الليالي الصّامتة، الحالكة، لقريتِنا، حيث لا ضجيج على الإطلاق، سوى الأصوات ذات الوقع المنتظم لزيز الحصاد، والنباح البعيد للكلاب، وعطر أشجار الياسمين، وعبق زهور الفلّ. هناك، تغلّفكِ السماءُ المدلهمّة، وتغطّيكِ بلحاف محشوٍ بريش النّعام، وتحتها يمكن أن تغمضي عينيك، وتغرقي في نومٍ طويلٍ عميق.

كلّما غادرتُ المنزلَ، كانت ليز تصرخ بي قائلةً: «بدأتِ تزورين زبائنكِ في بيوتِهم، بعد أن هجرتهم زوجاتهم. أيتّها

الفاسقة!» إنّ مزاجها عكر جدّاً. منذ أن رأت الطبيب العام، لم تتوقّف لحظةً عن لعن حظّها. كان قد أمرها بالتوقّف عن شربِ الكحول، وقال لها إنّ جهازها العصبي وكبدها بدآ يتأكلان «بطيئاً، ولكن بشكل مؤكّد»، وذلك بسبب الكحول. المساء الأوّلُ الذي حاولتْ أن لا تشرب فيه، كانت في متجر صادق تتوسّل زجاجةً من النبيذ الرّخيص في تمام الساعة العاشرة. قالت إنها ستدفعُ له لاحقاً. لم أكن أعرف ماذا أفعل. أعرف أنّ إحدى بنات أخيها، واسمها ناتاشا، تعيش في مدينة كِنْت، ولكن ماذا يمكنني أن أقول لها؟ «اتّصلي بالجهات المعنيّة. عمّتكِ يجب أن توضع في مركز للعلاج من الإدمان». كيف يمكنني، أنا المستأجرة المهاجرة، أن أخبر أناساً إنكليزاً من الطبقة الوسطى، ماذا يفعلون بعمّاتهم؟

لن أنسى ذلك اليوم ما حييت. دخل والدي باكراً أكثر من المعتاد، منهكاً وأشعث الهيئة. كان دائماً يعتني بمظهره، ولذا بدا الأمرُ غريباً. توجّه مباشرةً إلى المكتبة، وأسدل الستائر، ومكث ساكناً في الظلام. طلبَ من الخادمة أن تغسلَ رأسَه بالماء والخلّ، وتفرك جبهتَه ببعض زيت شجر الصفصاف. قالت لي إنه عندما كانت تدلّكُ رأسه، لم يتوقّف عن ترداد عبارة، «إن خدمتي لجلالة الإمبراطور-الملك هو وشاح شرفٍ سأرتديه بفخر حتى أموت». خرجتُ أتسقّط الأخبار. أخبرني البستانيّ أنّ ثمة تجمّعاً في الميدان. كان والد هيتّا يخاطب الحشد. فتح الإنكليز النار. «الناس يقولون إنّ والدكِ، يا آنسة، أطلق النّار على والد هيتّا، وتركه يموت هناك».

ركضتُ إلى الخارج، باحثةً عن هيتّا. حين وجدتُه أخيراً، رأيتُهُ يمسكُ بقضبان البوابة الحديدية، بكل قوة. عيناه جاحظتان، وفكّه مصكوك.

«هيتّا، هيتّا جان»، توسّلتُ إليه ثمّ وضعتُ يدي على يده. أبعدها عنه بقوّة، كأنّني مصابة بالجذام، وبدأ يرتعش. ثم ما لبث أن أفلت القضبان ببطء ومشى إلى خارج البوابة. لم أره ثانيةً.

قبل أن أذهبَ إلى عملي، وجدتُ رسالتين عند بهوِ المدخل، موجّهتين إليّ، وهذا أمر لم يحدث قط من قبل. عادةً أتلقّى أوامرَ عبر البريد: ادفعي تلك الضريبة، وادفعي بدل إيجار المنزل، ولكن من النادر أن أتسلّم رسالةً عادية. فتحتُ الرسالة الأولى، ورأيتُ توقيع جون. أعتذر في شأن يوم الاثنين. هل يمكننا اللقاء يوم الجمعة بدلاً من ذلك؟ عليّ أن أغادرَ المدينة. من انقباض قلبي، عرفتُ كم أنا متحمّسة للقائه. الرسالة الثانية كانت بطاقة بيضاء مزخرفة تدعوني إلى حضور حفلة زفاف بارفين بعد ثلاثة أسابيع. حفل الاستقبال. قاعة ريد، جامعة إكستر. قبل أربعة أعوام، كنّا مثل طيور جارحة، نبحث عن الفضلات في حاويات الزبالة، وكلّما وجدنا سندويشاً معفناً، ركضنا نحو الحديقة العامة وأكلناه. «المتسوّلون الباكستانيون يعودون»، كانوا يقولون في حانة وايت هير، والآن، ها هي تُزفّ للسيد مارك باركس، وهو رجل إنكليزي أبيض وسيم، بيد معقوفة معدنية.

في ذلك المساء، كان آلن يمسّد ذراعي. «تبدو أفضل بكثير الآن، يا سلمى، لا تحتاجين إلى القفازات المطّاطية»، قال.

نظرتُ إلى شعره الرّطب المغطّى بمثبت الجِل، وياقته القصيرة التي على شكل فراشة، وحذائه البرّاق، وفكّرتُ كم من اللّطف أن يكونَ أخي. لقد كان صادقاً، وذكيّاً، وقادراً على حمايتي. أسيراقبني أم سيحميني؟ أسأكونُ عاراً محتملاً، أم أختاً صغرى محُبِة؟ وكيف يتعاملُ الإخوة مع شقيقاتهم المراهقات في هذه البلاد؟

أرى ما كان آتياً. أراه في الطريقة التي يجمع فيها الكؤوس حين يكون غير مشغول، وكيف يُبقي بصرَه عليّ، وكيف يقدم لي القهوة في آخر المساء. «سكّر؟» كان يقول كأنّه يناديني بذلك.

لا أريدُ أية تعقيدات في مكان العمل. «كلاّ، شكراً». توقّفتُ قبل أن أقولَ اسمَه الذي كنتُ أستخدمُه عادةً بحريّة. بسطتُ قدميّ على الكراسي المخملية، وارتشفتُ قهوتي. إنّ الأمر آتٍ. أستطيعُ أن أشعرَ بذلك.

«سلمى، هل ترغبين في تناول العشاء معي، الأربعاء المقبل؟» قال، وعدّل ياقته القصيرة.

كان يعرف أنني لا أعمل يوم الأربعاء. بلعتُ لعابي وقلتُ بنبرة أكثر لطفاً: «لا أظنّ ذلك، يا آلن. إنكَ مثل أخي».

كان باستطاعتي أن ألمحَ في عينيه أنّ الرسالة قد وصلت، وقد خفضهما ليخفي الجرحَ.

احتسينا القهوة بصمت ثم تنهّد آلن وقال: «هل لديك إخوة؟»

«لا»، كذبتُ. سمعتُ نباحاً بعيداً، وسيّارات تمرّ، وراديو يغنّي في مكان ما. «يجب أن أغادرَ إلى البيت».

*

كان محمود يكبرني بخمس سنوات، وهو فتى نحيل وملكي، بثوبه الأبيض الواسع الطويل. كان ينظر إليّ ويحاول أن يفتل شاربيه القصيرين ثمّ يشتمُ. خنجره الفضّي، ذو القبضة المزخرفة، والثلم الدموي، والغمد الجِلدي، مثبّتٌ، مع هراوته، على حزام ذخيرته.

«يظنّ أنّه شيخ قبيلة. يمشي مثل ديك الحبش، بساقين منفرجتين. خُتن في وقت متأخّر، وهذا هو السّبب»، كانت شهلا تقول وتمصّ سنّها.

كان يلوّح بهراوته في الهواء، مهدّداً، كلما تحرّكت. لكنّه أحياناً كان يعود إلى المنزل من المدرسة، وهو يحمل حقيبةً بنّيةً صغيرةً، ملأى بحلوى راحة الحلقوم التركية، مع بسكويت ماري، وهو النوع الوحيد الذي يبيعه دكّانُ القرية. كان يعرف أنني أحبّ أن أهزّ مسحوقَ السكّر عن الراحة، وأفرد بيدي حبّة الحلوى بين قطعتَي بسكويت كسندويش. كنتُ، وأنا جالسة على حافّة البئر، في الباحة العامة، ألتهم البسكويت، أراه يراقبني بمزيج من الحب والتقزّز. كان أخاً لطيفاً. إنه شرطي البادية في دورية دائمة. كانت شهلا تمصّ غليونها الطويل العتيق وتقول «انتبهي، يا بنت!».

حين فتحتُ البابَ الأمامي، هاجمتني رائحةُ النفتالين. مشيتُ

على رؤوسِ أصابعي إلى غرفة الجلوس، وهناك رأيتها، تستند إلى الأريكة القذرة، وترتدي فستان «ساري» مرصّعاً بالذهب، لونه قرمزي موشح بلون مائل إلى البياض. ثمّة تاج من الزّهرِ الجافّ على رأسِها. كان وجهها مطلياً بزبدة صفراء قاتمة وفاسدة، أخرجتها من صندوق فضّي. يدها المترهّلة، الملأى بالكدمات، موضوعة على قلبها، وتحتها رسالة. «لقد عقدتُ قراني توّاً على هيتّا. أليس هذا رائعاً؟» قالت.

كان فستان السّاري المطرز، والمسدل على كتفِها، يتلألأ في الظّلام. مع ذلك، كان بالإمكان رؤية ثيابها الداخلية القذرة، مرخية فوق تنّورتها. سحب التاجُ المائلُ غرّتها الشائبة، كاشفاً عن آفات حمراء على جبهتِها، وشرايين عنكبوتية حمراء دقيقة في خدّيها. فرَكَتْ عينيها وقالت: «أبي، كيف كان سيعرف؟» ثم بدأت تبكي.

«تبدين جميلةً في فستان السّاري يا ليز». قلتُ، ووضعتُ يدي على ظهرها المتشنّج.

حاولتْ أن تكبت دموعَها، لكنّها انهمرت مدراراً، متبوعةً بشهقاتٍ متناغمة. «كتب لي رسائل يطلب المغفرة، مرّة، مرّتين»، قالت.

أسندتُ رأسَها إليّ وقلتُ: «شوشْ، هوّني عليكِ. كلّ شيء سيكون على ما يرام». كنتُ أشعرُ بدفء رأسِها الملاصق لمعدتي، ودموعها المنهمرة على ذراعي.

دموعُها الحارّةُ أذابت الزّبدةَ عن وجنتيها، فظهرت خطوطٌ

منحنيةٌ على وجهها، وتبعثر كحلُها تحت عينيها المنتفختين.

ركضتُ إلى المطبخ وجلبت المنشفة والصابون وبعض الماء السّاخن. «دعيني أزيل المكياج»، قلتُ بلطف، وبدأتُ أزيل الزبدة الصفراء بمنشفة المطبخ المبلّلة. كانت تجلس هادئةً، فيما كنتُ أحفّ الزبدةَ، وأفركُ وجهَها بالماءِ والصّابون. نظرتْ إلى الأعلى وقالت بصعوبة: «أطلقَ والدي عليه النارَ، ثم قتلَ نفسَه».

«قتل من؟»

«والده! لم يكن يعلم. كان يريد منه أن يقول سلاماً لهذا وسلاماً لذاك، لكنّه رفض. والد هيتّا، حبيبي»، قالت.

كان وجهُها نظيفاً وأحمر حين قلتُ: «هل ترغبين في القليل من الرّاحة؟»

«العروس ستدخلُ غرفةَ نومِها. تشارلز، يمكنكَ أن تقبّل العروس».

حين وضعتُ كتفي تحت ذراعها وسحبتُها فوق الدرج، كانت مطيعة مثل الدمية النسيجية السوداء التي حاكتها لها المربية. انزلقتْ تحت لحافِها القذر، فأدرتُ رأسَها، وفتحتُ فمَها، ثم قلتُ: «طابت ليلتكِ، أيّتها العروس».

تنهّدت، ثمّ نامت، على الفور.

أسرعت نازلةً الدّرجَ، وأحكمتُ الغطاءَ فوق الصّندوق الفضّي، ومسحتُه نظيفاً، ثم أزلتُ الزبدةَ السّوداء عن الأريكة وطاولة القهوة، وفتحتُ جميع النوافذ والأبواب، وسكبتُ النبيذَ في المغسلة، ثم غسلتُ الصينية والكؤوس الوسخة.

جلستُ على كرسي ليز العالي، وقرأتُ رسالة هيتّا، المطوية والمرمية أرضاً.

حلمتُ على مدى أشهر باليوم الذي أمسحُ فيه جسدي بزيتكِ، يا إليزابيث. مزجتُ بودرةَ خشب الصّندل، ومسحوق الكركم، والزّيت في وعاء، فيما كنتُ أردّدُ أسماءَ أفراد عائلتكِ وعائلتي وألقابهم. نزعتُ ملابسي، وفركتُ بالزّيتِ صدري وظهري ويدَي وشفتَي وأظفاري وأصابع قدمَيّ، حتىّ صار جسدي أصفرَ اللّون، ناعماً. جلستُ هناك، أنتظرُ عَرَقي ودمي لكي يختلطا مع الزّيت، ثمّ أزلتهُ ووضعتُه في صندوقٍ فضّي، وأضفتُ إليه المزيدَ من الزّيت وخلطتُه، حتى صارَ عجينةً ناعمةً، ثمّ خزّنتهُ من أجل اليوم الكبير، يوم عرسنا، حين ستدهنين به بشرَتكِ البيضاء الناعمة، وتصير صفراء مسمرة، وتصيرين لي تماماً.

ليمون وقرود

كانت رائحةُ زيتِ حمّام الصّنوبرِ تعدُ برجلٍ غنيٍ وسيمٍ في الحديقة، يقف تحت نافذة غرفةِ نومي. تحت تأثيرِ أبخرةِ حمّامِ الأعشاب المركّزة، نسيتُ أنّه ليس لدي نافذة تطلّ على حديقة. مدّدتُ جسدي في الماء السّاخن، فاسترخَتْ عضلاتي. كلّ ذاك الانحناء فوق الثياب من أجل الرّتق والكيّ، ووضع الكؤوس في درجِ غسّالة الصّحون، قد يبّس رقبتي وكتفَيّ. سأبلغُ الواحدة والثلاثين بعد وقت قصير، بظهر محنيّ وشعرٍ أشيب. وأنا أجنبية. بعد وقت قصير، سأتوسّل إلى صادق لكي يتزوّجني، وسأكون سعيدة حين أرسلُ مئتَي جنيه شهرياً إلى زوجتِهِ في الباكستان. وجهٌ ينقّط كالشّمع نظرَ إليّ في المرآة الهندية. رفعتُ أربطة حاملة النهدين إلى الأعلى، وارتديتُ قميصَ دانتيل أسود، كنتُ قد اشتريته من متجر لجمعية خيرية، وأصلحتُه، مع تنّورة طويلة مطرزة، كانت لبارفين سابقاً. ذات يوم، في النزل العامّ، فقَدَتْ عقلَها، ورمت محتويات خزانتها أرضاً. «لا أطيق هذه الحياة. خذي هذه وهذه. خذيها كلّها»، صرخت. لم أنتعل البتة الحذاءَ الأسود، ذا الكعب الواطئ، الملفوف بمحارم ناعمة، والمطمور

بين الكنزات. اشتريتُهُ في لحظةٍ عابرةٍ، لكنّني أدركتُ أنّ النسوة العجائز فقط ينتعلن أحذيةً مسطّحةً في هذا البلد. اشتقتُ إلى حذاء جدّتي البلاستيكي البالي، المسطّح، الأخضر اللّون. «أخوضُ في الأنهار والبحيرات، وأمشي على الأرض الجافة، ويبقى محافظاً على جودته. أبوكِ اللّطيف اشترى لي زوجين هذه السّنة من العاصمة، ثمن الواحد منهما دينار»، كانت تقول.

حين غادرتُ المنزل بحذاء ذي كعب عال، سمعتُ ليز تهمسُ عبر الهاتف: «صار معها نقود أكثر. تشتري خبزاً أسمر طازجاً، وشاي إيرل غري. لا بدّ أن سالي أصبحت مومساً».

جلستُ على أحد المقاعد خارج مطعم وترفرونت، حيث يقدّمون البيتزا الكبيرة، وشرعتُ أشربُ علبةَ كوكاكولا دايت. الشّقق المطلّة على النهر، المبنية حديثاً، بدت خاوية، لا أحد فيها، ولا أحد يستطيعُ شراءَها. مثل بيوت مصنوعة من البسكويت والسكّر، بدت مشعّة، وساطعة، لكنّها سهلة الانهيار. الواجهة المائية ملأى بالناس، بفتيان إيطاليين يدرسون الإنكليزية، وفتيات إسبانيات سائحات، وطلاّب أميركيين، وحليقي الرؤوس المحليين، بكلابهم السود الضخمة، وستراتهم السوداء المقطّعة، وقمصانهم التي شيرت، المرسوم عليها علم بريطانيا. رحتُ أراقب عبارة كودتايم وهي تنقل الناسَ من ضفّة إلى أخرى عبر النهر، بأصواتها التي تعلو وتنخفض في الماء.

فجأةً انتصب الشعرُ الناعمُ خلف رقبتي. إنّي أعرفُ ذاكَ النسيم. إنّها هناك تبكي، باحثةً عن موطئ قدم. إنيّ أعرفُ تلك

الرّيح. صقيعٌ مفاجئٌ سرى في عروقي، فانحنيتُ متلوية، وضمَمْتُ حلمتَيّ المنتصبتين. العضلات الواصلة بين رئتي تضخّمت، ثمّ انهارت كأنني أغطس باتجاه داخلي. كنتُ أغرقُ. شعرُها الفاحمُ ملتصقٌ برأسِها، وبطنُها الناعمُ بائنٌ، وقدماها صغيرتان. حين ضربتْ مدام لمعة مؤخّرتها، صرختْ طلباً للهواء. أحصيتُ أصابع كلّ يد على حدة: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة. أحصيتُ إصبع كلّ قدم على حدة: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة. أصابعها الناعمة تكوّرت حول سبابتي مثل عرق دالية غضّ تفتحَ توّاً. وقبل أن تلمسَ شفتاها الناعمتان حلمتَيّ بثوان قليلة، خطفَتَها نعيمة بعيداً، ولفّتها بحرامٍ وخرجت على جناح السرعة. كانت جائعة، وثدياي يفيضان حليباً. صرختُ من خلف قضبان النافذة. وقفت السجينات بيني وبين رمي نفسي على الحائط. حين صحوتُ، كانت نورا ومدام لمعة تمسكان بي. «هذا أفضل، حبيبتي. أفضل».

كانت ساقاي مغطاتين بالدّم الجاف، وبطني لزجاً بسبب الحليب والدّموع.

حتّى الحرس الأمني في مرقص دانسرز هم من متوسطي العمر. دفعتُ أربعة جنيهات ودخلت. نظرتُ إلى صورتي في المرآة الطويلة عند المدخل. شعري أجعد، ووجهي يلمع عرقاً، وتنّورتي متغضنة. رفعتُ شعري إلى الخلف، ودخلتُ الملهى نصف الفارغ. شعرتُ أن جميع العيون تنظر إليّ، وتطلق أشعّة نفّاذة تستطيع أن ترى كلّ شيء، حتى ماضيّ الشائن. أسرعتُ إلى

البار وطلبتُ علبتي كوكاكولا دايت لكي أتفادى مشواراً آخر، واتجهتُ إلى إحدى الطاولات في الزاوية، وجلست. كان المكان مرتفعاً قليلاً، فشعرتُ أنني أجلسُ في مقهى رصيف أراقبُ المارّة. كانت مرايا الديسكو تعكسُ الأضواء الحمراء والخضراء المتلألئة، وتنشرها في أنحاء المرقص، التي كانت خاوية إلاّ من امرأتين شقراوين في منتصف العمر، ترتديان تنورتين ناصعتين، قصيرتين وضيّقتين، وترقصان حول حقيبتَيّ يد. مرفق يستريح على راحة يد، ويدٌ تدور في الهواء، وحين تكونان على وشك الطيران، فإنّ رمياً مفاجئاً للسّاق اليمنى في الهواء يسبّب هبوطاً اضطرارياً. أستطيع التعرف على النساء الغارقات مثلي سريعاً.

تخيّلتُ نفسي أقف هناك، وسط حلبة الرقص القديمة، وأهزّ ردفَيّ على وقع ضربات طبول الصحراء.

«من أين أنتِ؟» سأل شابٌ يرتدي قميص تي شيرت، وبنطلوناً أسود لامعاً، يبدو أنه تم كيّه مراراً.

بدا مثل أحد مشجّعي كرة القدم، فقلتُ: «لا أتحدّثُ الإنكليزية».

نظر إليّ بعينيه الزرقاوين الواسعتين وقال: «هيّا. أنتِ تجيدين الإنكليزية».

«لا، لا أجيدها».

«من أين بلد جئت؟ برشلونة؟ سبق أن زرتُ برشلونة. صحيح، إيطالية؟».

لم أجبه.

«أعرف لماذا لا تتكلّمين. لأنّك من الأرجنتين»، قال ومشى بعيداً.

لو قلتُ له إنني عربية، لربّما كان ركضَ بخطوات أسرع. بدويّة من قرية تُدعى الحمى، هدرت قبيلتُها دمَها لكلّ عابر سبيل. سويتُ ظهري، وشددتُ معدتي، وأغلقتُ فمي. مثل شاهد محوري في جريمة مافيا بدّلتُ اسمي وعنواني وماضيّ بل بدّلت بلداناً لكي أمحو آثار خطواتي.

قالت غوين إنه لأمر مهم أن أتتبعَ شجرة العائلة. الجذورُ تربطكِ عميقاً بالأرض. يجب على المرء أن يقبل، ويكون فخوراً بمن هو. كانت تحاول أن تعيد بناء تاريخ عائلتها حين سألتها عن والدها.

«والدي في فترة من الفترات انتقل إلى شركة ميرثر تايدفيل، وتدرّب ليكون نائباً للمناجم. لكنّه تخلّى عن الفكرة، وأعرف أنه أمضى ردحاً من الوقت في وولفراهمبتون. قام بأشياء كثيرة، من بينها لعب الرّكبي، والالتحاق بالجيش. في عام ١٩١٢، ذهب إلى جوهانسبرغ في جنوب إفريقيا، حيث عمل نائباً لمدير مهندس في أولى شركات الحديد والصلب هناك. وهي الآن جزء من شركة كفارنر».

من محرمة موسلين أخرجت قالباً رمادياً، حكّته على مهل وقالت: «الجزءُ الصغير من القالب الأوّل الذي في حوزتي تبلغُ سماكته قرابة ثلاثة إنشات، وعلى أحد جانبيه حُفِرت أحرف

(USCO)، أي الشركة المتّحدة للصلب، كما أعتقد، و«قالب رقم واحد»، أما على الجانب الآخر، فالأرقام (١/٩/١٣)، وهي تاريخ صبّه. عدا أنّه ترك لي أحد القوالب الأصلية التي كانت قد اقتطعت فور صبّها. كل ذلك على مرأى من السّادة المرموقين».

سكبت المزيد من الشاي في فنجان الخزف الناعم، المرصّع بزهور إنكليزية على جانبه. كان هذا يوماً خاصاً. كانت غوين تشاركني في حبّها اللامحدود لأبيها.

في ملهى دانسرز، وقف في أقصى الزاوية، رجل في منتصف العمر، شعره أسود فاحم، راح يحتسي نبيذَه بهدوء ويراقبني. اقتربت منه بعضُ النسوة فطلب بأدب منهن الابتعاد. ثم مشى نحوي: «هل ترغبين في الرّقص؟» هذا كلام من شخص مهذّب، ينتعل حذاءً عملياً قوياً، ويرتدي قميصاً أبيض نظيفاً، وربما كان معلّماً، ولا يمكن رفض طلبه.

تردّدتُ ثم قلتُ: «آسفة، إنّني تعبة».

بدت طيورُ النّورس هذا الصّباح مثل سحابة بيضاء ناصعة تحلّق فوق السّهل الأخضر، بعضُها يطير بعيداً عن السرب، وبعضها يقتربُ أكثر، وبعضُها الآخر لاذ بشجرة، وراقب كلّ الطيور التي ترقصُ في الهواء، كأنّما ليس لها الرّيش الأبيض نفسه، والأجنحة نفسها، والمناقير نفسها.

رائحة النيكوتين والبيرة ملأت جوّ الملهى الذي اكتظّ بالناس الآن. «أعطينا قبلة، أيّتها العاهرة». صرخ أحد الرجال.

«اذهبْ ونمْ مع أمّك»، أجابت المرأة.

رجلٌ في حلبة الرقص، كان طوال المساء يحاول الاقتراب من الفتيات ويُصدّ، فتح سحّاب بنطلونه، وراح يغري الرّاقصات بسروال الملاكم القصيرالمرسوم عليه علم بريطانيا.

كنتُ على وشك إنهاء كأس الكوكاكولا الثانية، حين مرّ شابٌ وسيم، أنيق، فاحم الشعر من أمامي تماماً، ولوّح لي، ثمّ غمزني للحاق به. تخيّلي أن ألحق هذا السّمكري الإيطالي وأنام معه على المقعد الخلفي الجلدي لسيّارته السبق الصفراء. وحين ينتهي كلّ شيء، يسرّح شعره، ويرفع سحاب بنطلونه، ويحكمُ أزرارَ قميصه، ويقول: «عليّ أن أسرع. لا بدّ أن زوجتي ستقتلني». توسّلتُ إلى نفسي أن أتبعَه، وأن أتصرّفَ كإنسان، وأستسلم له، لكنّ سلمى وسالي رفضتا الخضوع، والركض خلفه، وطلب اللجوء إليه. أنا مجرمة تم الحكم عليها، مهاجرة، ونفاية، وجولة لليلة واحدة مع سمكري هي أكثر ممّا أستحقّ. لو كنتُ مكانَهم، لما سمحتُ لشخص مثلي بالدخول إلى بيوتهم النظيفة المعطّرة. إنّني أسبّب العدوى، وكلّ ما ألمسُهُ، يتحوّل إلى قارّ أسود. إنّ منظر رجل وامرأة يتبادلان القُبل، على الطريقة الفرنسية، كانا قبل لحظات مجرّد غريبين، يسبّب لي الغثيان. ربما يرجعُ السبب إلى كلّ ذاك الكوكاكولا الدايت الذي شربتُهُ ومعدتي خاوية. إذا جاءوا إليّ وقالوا: «هل تريدين بعضَ الهواء النقي»، على طريقة المسرحيات الفيكتورية، لقلتُ نعم. مصصتُ مكعبات الثلج، ولففتُ كتفيّ بشال أمّي الأسود، وخرجتُ من غيمة الدّخان. كان هواء الصّباح الباكر بارداً، لكنّ رائحة البيرة النفّاذة، سرعان ما توارت أمام عبق الطعام الغني المقلي.

جلستُ على المقعد أستنشق رائحة أقراص الفلافل، التي تتقلّب في زيت القلي، وأستمعُ إلى محادثة باللغة العربية. وكان يمكنني سماع أغانٍ فرنسية قديمة في الخلفية.

«ياسين، لماذا يحدث هذا لي؟» قال الرجل العجوز.

«قسمة ونصيب، يا رجل، قدر». قال الشاب.

«لماذا ابني، يا ربّ؟» قال الرّجل العجوز.

«الله يمتحنُ عباده الصّالحين»، قال ياسين.

«آمين»، قال الرجل العجوز.

«كما أنّه ما زال شاباً، ويمكنه أن يتغير؟» قال ياسين.

«خلال حرب التحرير في الجزائر التحقتُ بالمقاومة. طردنا الفرنسيين من أرضنا. خسرنا الملايين، والآن هؤلاء الأوروبيون، أبناء الزنى، يحتلّون ابني. إنه لم يعد عربياً، لم يعد رجلاً».

رمى دفعة جديدة من أقراص الفلافل في المقلاة. رائحةُ الحمّص المطحون، مع الثوم والبقدونس عندما غرقت بالزيت السّاخن، هبّت إلى أنفي، ثانيةً.

«ألومُ أمّه الإنكليزية. ربطَتْ شعرَه بشرائط، وألبسته ثياب الفتيات»، قال الرّجل العجوز.

«لقد دللته. الأمهات العربيات أسوأ بكثير». قال ياسين.

«إنه ليس ابني، ولا أريدُ أن أراه ثانيةً»، قال الرجل العجوز.

«إنه ابنك الوحيد. لا يمكن أن تقصد ذلك».

أصختُ السمعَ والشمّ.

«سأطلّقُ تلك العاهرة، نعم سأفعل»، قال الرّجل العجوز.

«بالحلاوة، يا صديقي، بالحلاوة»، قال ياسين.

«شارب مثل مقود الدرّاجة، يا محمّد!» صرخ شاب إنكليزي عبر الشّارع.

«لا تصغِ إليهم! شاربكَ يليقُ بك». قال ياسين.

«ارحل من هنا، أيّها الإنكليزي الوغد! اغرب عن وجهي، أيّها النذل! اختفِ من هنا، يا آكل الملفوف»، صرخ الرّجل العجوز.

«ضغطُ دمِكَ يا حاج، يعيْشَكْ»، قال ياسين.

ملأتْ رائحةُ الكمّون المطحون، والفلفل الأسود، والكزبرة، الشارعَ المزدحم. فتياتٌ وفتيان سكارى يترنّحون في الطريق إلى منازلهم، في ضياء الصباح الباكر. كنتُ أسمعُ أيضاً هديل الحمام وأبواق سيارات البوليس تأتي من بعيد. ملأتُ رئتَيّ برائحة الوطن، وعصبتُ شال أمّي الأسود حول رقبتي، ثم نهضتُ، وانضممتُ إلى القطيع المنحدر أسفل الهضبة.

«لم أركِ منذ مدة طويلة، ولا تتّصلين بي البتة»، قالت بارفين.

قررنا أن نلتقي في المقهى الساعة الواحدة. اهتممت بمظهري اهتماماً كبيراً. بارفين بعينيها اللتين بلون العسل، وشعرها الطويل الأسود المنساب، وغرّتها المقصوصة بعناية، وبشرتها السمراء المشعّة وسروالها وقميصها الهندي الطويل بلون البنفسج وحذائها الرياضي بدت مثل عارضة أزياء. تعانقنا، وتبادلنا القُبل على الخدّين، كالمعتاد.

«تبدين أنيقة وبصحة جيدة»، قلتُ بحياء.

«لا تبدين أنتِ في وضعٍ سيئ أيضاً»، قالت وهي تتفحّص وجهي عن كثب. كانت تبحث عن «علامات البارانويا والاكتئاب» كما اعتادت أن تقول. ابتسمت حين لم تعثر على شيء.

أصرّت على أن تشتري لي غداءً. «هل أنتِ متأكّدة أنك لا تريدين حلوى بعد الطعام؟»

«كعكة ليمون»، قلتُ شاكرة.

دفَعَتْ ثمن الصّينيتين، وحملناهما إلى الطابق العلوي، وجلسنا بين النباتات المطاطية المشرئبة.

نظرت إلي بارفين وقالت: «أنتِ وصيفتي، وأريدكِ أن تأتي باكراً لتشرفي على ملابسي»، قالت وهي تتناول صحن سَلَطِتها بسرعة.

«متى بالضبط؟» سألت.

«إذا أتيتِ في العاشرة صباحاً فسيكون هذا عظيماً. لا تلبسي فستان العرس قبل أن تأتي. سنرتدي ملابسنا ونتأنق معاً. أوه، للمناسبة يمكن الوصيفات أن يرتدين أيّ شيء، بشرط أن يكون اللّون ليلكياً».

أكلتُ كعكة الليمون بهدوء وبطء. «بارفين، هل أنتِ سعيدة؟»

«نعم».

ذكّرتني رائحةُ قشور اللّيمون بمزارع اللّيمون على أطراف قريتنا. في الرّبيع، حين تكون الأشجار مزهرةً، وتظهرُ مثل عرائس مزيّنة، تحمل الرّيح عطراً قوياً يذهب مباشرةً إلى أعماق قلبك.

«ماذا عن عائلتكِ؟»

لم أر بارفين تبكي البتة بعد تلك الليلة في النزل العامّ. لم تكن دموعها للاستهلاك العام، كما كانت تقول. «ماذا عنهم؟»

«أسيحضرون حفل الزفاف؟»

«هم لا يعرفون أين أنا»، وراحت تطارد بشوكتها قطعةَ جزرٍ مفرومة.

«وماذا لو اكتشفوا أمرَ مارك والزفاف . . .»

«عندئذ سيكون قد فات الأوان».

لو لم أكن أعرفُ بارفين لقلتُ إنها متماسكة على نحو تام، لكنها أطبقت رموشها لتخفي عينيها، وأمالت رأسها إلى الأسفل، حتى غطّت غرّتها وجهها كلّه، وراحت تلعبُ بمحرمة الطّاولة، تفردُها تارة، وتطويها تارة أخرى.

«هل أخبرتِ مارك عن عائلتكِ؟»

«نعم، وقال إنه سيخبر عائلته أنّ عائلتي في الباكستان، ولا تستطيع أن تحضر الزّفاف».

«لماذا لا تحاولين الاتّصال بهم، وتسوّين الأمر معهم؟»

«أفكّر في الأمر كلّ يوم. لكنهم لن يوافقوا. ورغم أن مارك وافق على اعتناق الإسلام لكي يريح بالي، فلا يزال رجلاً إنكليزياً أبيض».

«يمكن أن يوافقوا إذا عرفوا أنه مسلم»، قلتُ.

«يكفي أن يكون مسيحياً مرّة واحدة، حتى يبقى مسيحياً إلى الأبد». قالت، وهي تفردُ المحرمة ثانيةً.

«الرجال الباكستانيون الصالحون لا يتسلّقون الأشجار»، قلتُ.

«تعنين لا ينمون في كل مكان كالأشجار»، قالت، مصحّحةً.

وضحكنا.

وفيما كنتُ أمضغ آخر نثرة من كعكة الليمون، قلتُ في نفسي إن القردتين الحقيقيتين هما أنا وبارفين، فكلتانا تجيدُ تسلّق الأشجار من دون مساعدة، والنزول منها بالأريحية نفسها. مددتُ يدي على غطاء الطاولة الأبيض، وأمسكتُ بيد بارفين الأنيقة. «لا تقلقي. سيكون الزّفاف على ما يرام».

بعد انتهاء العمل، أسرعت إلى غوين التي لا بدّ أنها كانت في المطبخ حين ضغطتُ زرّ الجرس. كنتُ أسمعُ وقع خطواتها وهي تتقدّم نحو الباب بصعوبة. فتحت الباب، وابتسمَ وجهُها الشاحب.

«مرحبا، غوين، تبدين شاحبة»، قلتُ، وقبّلتُ خدَّيْها.

«هاتان الساقان تقتلانني. يجب أن أفقد بعض الوزن»، قالت وهي تمرّر يدَها على شعرها الأشيب المُسرح.

ضممتُها وقلتُ إنها تحتاج إلى بعض التمارين.

«ما رأيكِ في أن نخرج لنتمشى الآن؟»

كان الوقتُ لا يزال مبكراً، والشمسُ تشرقُ بلطفٍ عبر الغيوم. ارتدت سترتها المطرية، وشالها المزهّر، وجهدت لتنتعل حذاء المشي. لم أحاول مساعدتها، فقد يزعجها ذلك. مشينا على طول الطريق. «حين تعانين التهاب المفاصل، فهذا يعني أنّ السائل

الذي يساعد على مرونة المفاصل قد نفد، وتبدأ العظام بالاحتكاك، بعضها ببعض». قالت. كان الألمُ يرتسم على وجهها، لكنها استمرّت في المشي. «ولكن، إذا لم أستمرّ في التحرّك، فسأغدو عاجزة». أمسكتُ ذراعها، محاولةً أن أشجّعها للاتكاء عليّ. سحبت يدها، وتابعت الاتكاء على عصا المشي، التي تحملها. كانت جبهتها متعرّقة، حين وصلنا إلى أوّل مقعد قرب النهر. تنهّدت تعبيراً عن الراحة حين جلسنا أخيراً.

«هيّا ابدئي بالكلام. ما المشكلة؟»

«بارفين طلبت مني أن أكون وصيفة عرسها. لا أملك فستاناً ليلكياً. للمناسبة، هي لم تدعُ أهلها».

«ثمّ ماذا؟»

«كان ينبغي لها أن تطلب من إحدى فتيات القسم الذي تعمل فيه. هنّ يعرفن كيف يتصرّفن».

كانت غوين ترسمُ بعصاها خطوطاً على العشب. نظرت إليّ بعينيها الشائختين، وقالت بنبرة مديرة المدرسة: «حان الوقت لكي تتماسكي: أوّلاً، عائلتها ليست عائلتكِ، وهي حرّة إذا دعتها أم لا، ثانياً، طلبتْ منكِ أنتِ أن تكوني وصيفة عرسها، ولم تطلب من أحدٍ آخر، ثالثاً، لدي فستان ليلكي، لبستُهُ مرّة واحدة، قبل أربعين عاماً في يوم زفاف أختي. إنّه في حالة جيدة، ويمكنكِ أن تجري عليه بعض التعديلات، إذا أحببتِ»، قالت، ونظرت نحو النهر.

«حقّاً؟ عظيم، عظيم»، قلتُ.

كانت طيور البجع تسبح في مياه النهر بهدوء كأنّ العالم حولها صاف بلا شائبة. نظرتُ إلى جبهة غوين المندّاة عرقاً، وشعرها الأشيب القصير، وجسدها البدين، وساقيها المتورّمتين، المبسوطتين على المرج، وشعرت بالكره تجاه ابنها مايكل لعدم زيارته لها. كان يمكن شهلا أن تقول: «يُعطى اللحم لمن ليس له أسنان، وتُعطى الأقراط لمن لم تُثقب أذناها». نهضتُ وأمسكتُ ناي خشب البامبو، وعزفتُ لحناً، كنتُ قد تدرّبتُ عليه مرّات كثيرة، وأنا أجلس على ضفّة النهر هنا، أستمتع بالغروب. حاولتُ أن أقلّد الحركة الانسيابية لطيور البجع وأبتكر الصّرخات المفاجئة للنوارس، وصوت خرير المياه. وقفتُ قبالة غوين كأنني أقدّم عرضاً مع فرقة ملكية تحت رعاية جلالة الملكة إليزابيث. حين حظيتُ بالمواطنة، وأصبحتُ مواطنة بريطانية، كان عليّ أن أدلي بقسم الولاءِ للملكة وأحفادها. كانت غوين هي ملكتي الوحيدة، لذلك، حين انتهيتُ من العزف، انحنيتُ لها.

صفّقت بيديها وضحكت. «تعرفين كيف تعزفين على ذاك الشيء. لم تخبريني عن هذا من قبل». قالت.

«الآن، أنتِ تعرفين». ابتسمتُ.

«نعم، الآن أعرف»، ابتَسَمتْ.

لاحظ ماكس التعبيرَ المضطربَ على وجهي وقال: «ماذا دهاكِ الآن؟»

«بارفين ستتزوج، وتريدني أن أكون وصيفةَ عرسها».

رمقني بتلك النظرة التي تقول أتمنّى أن تتزوجي أنتِ عمّا قريب أيضاً، ثم قال، «هذا جيّد».

«إنها عائلة محترمة، ولا أعرف ماذا أفعل»، قلتُ.

بصق بعضَ الإبرِ من فمِهِ، ومسحَ شعرَه بأصابعه المبلّلة بلعابه، ليتأكّد أن تسريحتَه لا تزالُ حسنة، وقال: «مهما فعلتِ، لا تستفرغي على حذائها. ابنة عمّتي دُعيت إلى حفلة زفاف صديقتها في الجامعة. تعرفين ذاك النوع من الناس الأثرياء. خيول وقوارب سباق. المخبولة الحمقاء رأت كلّ ذاك الشراب المجاني، وبدأت تسكرُ على غير هدى. أوّلاً الشمبانيا ثمّ الشري، ثم البيرة متبوعة بالنبيذ، ثمّ الخمر والويسكي، وعمّت الفوضى، وتقيّأت وتناثر العشاء على فستان أمّ العريس الشيفون الحريري». ضحك ضحكة خافتة. «كلاّ، ذهبت الأمور إلى ما هو أسوأ. الحمقاء المخبولة ذهبت إلى العرس لتجدَ لنفسِها زوجاً أنيقاً»، ضحكَ.

لم يكن ماكس يعلم بأن شفتَيّ لم تذوقا طعم الكحول البتة. إنني مسلمة حلت عليها اللعنة. ولكن ماذا لو شعرتُ بالتوتر وتقيّأتُ على الأرض؟

«إذا كانوا من الذين يرفعون أنوفهم، واصلي الكلام عن الطّقس، ومناداة والدته «بسيدتي» ، وستكونين في خير. للمناسبة، يجب أن لا تقلقي كثيراً، لأنّ قلة قليلة ستتحلّى بقواها العقلية وتكون غير ثملة. إذا كنتِ تتذكّرين ما جرى في عرس ما، فهذا يعني أنّه كان فاشلاً تماماً»، قال.

*

كان فستان غوين، الذي أجرت عليه تعديلات، وغسلتُه،

وكويتُه، يتهادى مع النسيم. علّقتُه على حافة الخزانة القديمة، لأحافظَ على انسيابه، ولأنظرَ إليه قبل أن أذهب إلى النوم. كان الثوب بنفسجياً زاهياً، من دون حمالتَي كتف، مضموماً على الجسم، بصدرٍ على هيئة قلب، وسترة واسعة من الكريب جورجيت، مع كمّين طويلين، وقبّة عالية. كانت ثمة زهرة ماغنوليا كبيرة، مصنوعة من السّاتان البنفسجي وشرائط الليلك، مثبّتة على جانب القبّة. قصّرتُ ثوبَ الساتان إلى ما تحت الرّكبة، وضيقته قليلاً عند الظَهر، وتركتُ السترة عريضة هفهافة كما كانت. بدا الطقم جميلاً جدّاً. فتحتُ حقيبة الملابس في أعلى الخزانة، وأخرجتُ فستان ليلى الأبيض، للمرّة الأولى منذ شهور. أمضيتُ ساعات أخيطُ فستان ابنتي. أمضيتُ ساعاتٍ أتخيّل كيف يبدو زنبق الماء في ليلة سعيدة ساطعة، أي ليلى. حاولتُ أن أجعل شكل ذاك الفستان يشبه زهرة الزّنبق. كنتُ أتمنّى أن تكون حياة من ترتديه أكثر بياضاً وسعادةً من حياتي. الحواشي الملتفّة، والياقة المزهرة، والجيوب التي تشبه الورود، والكمّان الصغيران المنفوخان، هذه كلّها كانت تتمنّى لها السّعادة. نزعتُ الغطاء البلاستيكي عن فستان غوين، وسحبتُ كتفَي الفستان من علاّقة الملابس، ووضعتُ ثوب ليلى، ثم وضعتُ الفستان والسترة الليلكية فوقه. أدخلتُ العقيفة المعدنية في فتحة الغطاء البلاستيكي، وعلّقتُ الفستانين معاً على حافّة خزانةِ الملابس. الساتان البنفسجي الناعم لثوب غوين، مع حبّات اللؤلؤ على ياقة فستان ليلى، راحا يلمعان في الظّلام معاً.

*

كانت ليز طريحة الفراش. بطنها متورّم، وذراعاها مملوءان بالكدمات، وبدت شاحبة مثل ورق الجدران القديم. سخّنتُ بعض الحساء المعلب، وقطّعتُ بعض شرائح الخبز، ووضعتها بعناية على صينية كبيرة، حملتها إلى غرفة نومها. طرقتُ الباب، قالت: «ادخلي، يا مربيتي، جانكي».

وضعتُ الصينية على طاولة السّرير بحذر، ولاحظتُ أنّ صورةَ زفافها، بالأبيض والأسود، مع إطارها الفضّي الدقيق الصنع، غير موجودة.

كانت لا تزال ترتدي ملابسها الداخلية القطنية المتسخة نفسها. أرجعتها إلى الأعلى ووضعتُ وسادةً خلف ظهرها. كان الصندوق الفضّي الذي يحتوي على عجينة الكريم العفنة تحت وسادتها. نظرت إليّ وابتسمت. صفرةُ الزبدة التي أزلتُها عن وجهِها زحفت إلى بياضِ عينيها. وضعتُ الصينيّة في حضنها، ورتّبت اللحاف المتّسخ. بأصابع مرتعشة حملت الملعقة، وحاولت أن تتناول بعض الحساء. بعد بضع محاولات وضعت الملعقة جانباً، تنتابها الهزيمة، فجلستُ قربها على حافة السّرير، وبدأتُ أطعمها كالطفل. كانت تبلعُ الحساء بصعوبة، وتنظرُ إلى الأعلى، وتقول: «هل يعدّ هيتّا شراب جوز الهند، يا مربيتي؟»

«نعم ليز»، أجبتُ.

«نعم، حسنٌ»، قالت.

شربت نصف الحساء، واندست تحت لحافها تعبةً. مرّرتُ أصابعي على شعرِها الأشيب الأملس القصير وقلتُ: «هل تريدين الاتّصال بأحد؟ هل أتّصل بابنة أختكِ؟»

«أين هو تشارلز؟» سألت. «ألا يزال في الرّيف؟»

«نعم، ياسيدتي»، قلتُ.

*

«تركضين، وتركضين، أيضاً»، قال صادق من الجهة الأخرى للشارع: «إلى أين أنتِ ذاهبة؟ إلى سوق الأسهم والعملات؟ هل تدنّت أسعار أسهمكِ؟»

«صباح الخير»، أجبته بصوت عالٍ.

«أم أنتِ ذاهبة إلى صديقكِ الإنكليزي؟»

«ليس لدي صديق إنكليزي. أنا مسلمة»، قلتُ وابتسمت.

«كلّ حبّات جوز الهند لهنّ أصدقاء إنكليز. هنّ مسلمات بالاسم فقط»، قال.

«ليس جميع المسلمين متشابهين»، قلتُ.

«هناك إسلام واحد فقط»، قال.

عبرتُ الشارع، ووقفتُ قبالة متجره. «ماذا تريدني أن أفعل لكي أثبتَ لك أني مسلمة؟ أن أصلّي خمس مرات في اليوم على عتبة متجرك؟» قلتُ.

«سيكون هذا جيّداً أيضاً»، قال وضحك ضحكة خافتة.

«أحبّ تسريحة شعركِ الجديدة. إنها تشبهُ عرفَ الدّيك». قلتُ مستفزّةً.

أمال ذقنه إلى الجانب كأنه يبحث عن الكلمات وقال: «لا تكوني ذكية كثيراً. إذا كنتِ قد عبرتِ الطريق إلى الجامعة مرّة واحدة، فهذا لا يجعل منك بروفسوراً»، قال وأشار نحو الهضبة.

«كيف حال أولادكَ وزوجتكَ؟» سألتُ.

«على أحسن ما يرام. لا ينفع أن نكون متفرّقين»، قال.

أمسكتُ بيده اليمنى ثم أطلقتها.

ضغط بأصابعه الأمامية على زوايا عينيه، وابتسم، ثم قال: «بطني يوجعني. أكلتُ الكثير من سندويشات الهمبرغر، وأشتاقُ إلى الكَاري، يار!».

«الفلافل ستسبب لك عسر الهضم»، قلتُ وابتسمت.

«يمكن أن أجرّبها»، قال، وغمز بطرف عينه، وأمال رأسه قليلاً، ثمّ مسحَ شعرَه المسرّحَ بمثبت الجلّ، عابثاً بالغرّة المرفوعة إلى الأعلى.

ياقوت وخبز يابس

وجهُ بارفين، وحبّات اللؤلؤ التي لها شكل الدموع، حول الاستدارة المنخفضة القصة لفستانها الحريريّ الأبيض، مع حبات اللؤلؤ والكريستال المزروعة في الأوراق والأزهار الماسيّة لتاجها، لمعت في الضوء الخافت للشّمس الغاربة. بهيئتها الدكناء، الملكية، المتماسكة، المضمومة داخل ثوبها الحريري، حملت قبضة السّيف، مع مارك، وهي تتهيّأ لقطع الكعكة نصفين. أسرّ لها بشيء ما. ابتسمت ونظرت إلى الأعلى، وقبّلتهُ على خدّه. أهله، وشقيقتاه سارة وجيني، مع أقاربه وأصدقائه الشبّان، صفقوا لهما، فعدّا حتّى الرّقم ثلاثة، ثمّ قسما الكعكة، بحركة واحدة، مهشّمين وجهَي العروس والعريس البنفسجيين، الراقصَين، المصنوعين من سكّر متجمّد. العمّة، بقبّعتها الحمراء الكبيرة، وأزهارها البيض، قالت: «أعددتُها بنفسي. بارفين اختارت الألوان. لا بدّ أنها ألوان البراري في الباكستان».

«لا تكوني سخيفة، إنها بريطانيّة»، قالت والدة مارك.

كانت والدته تحبس دموعَها حين رتّلت المرأة التي ستسجّلُ الزواج قصيدة وعنوانها (شجرة بتولا الهمالايا)، اختارتها بارفين خصوصاً للمناسبة.

جذعٌ نحيلٌ وحيدٌ،
أغصانٌ تنحني في العاصفة،
أوراقٌ خضرٌ جلديّةٌ لها قلبٌ ناعم،
تتلألأُ تحت السّماء الزرقاء،
لحاءٌ أبيض متشقّق، ينزف،
قلبٌ مفتوحٌ لما سيأتي،
مضمّدة، لكنها تقفُ منتصبة القامة. . .

نظرت بارفين إليّ من تحت الطرحة وابتسمت. أسبلتُ نظرتي، وتنهّدتُ، ثم تمالكتُ نفسي ونظرتُ إليها، وبادلتُها الابتسامة. قبّلتني على خدّي، كما اعتدنا أن نفعل، ومشتْ هي بالقرب من مارك، تُمسك بيدِهِ اليسرى. كان السّيخُ المعدني المعقوف ليده يضغطُ بلطفٍ حول خصرها حين مشتْ باتجاه سيّارة السبق، المزيّنة، في الخارج. لوّحا لنا ثم انطلقا إلى حياتهما الزوجيّة. كان وجهُ والدة مارك المحمر يشعّ في الضوء الخافت للمساء. «أنا سعيدة لأنّه وجد سعادته، بعد كلّ الذي حصل لهُ»، قالت، ومسحتْ وجهها بمنديل ناعم مطرز.

شعرتُ أنني أفيضُ من الدّاخل، فقلتُ، لكي أمنعَ نفسي عن البكاء، «ياسيدتي، إنه غروبٌ رائع!»

أومأتْ برأسِها صامتةً وضغطت يدي بقوّة.

إنّها زمرّدةٌ خضراء، فيروزٌ معشّقٌ بالفضّة، حريرٌ هنديٌ يتهادى كالشلاّل، عسلٌ الأقاقيا في جرارٍ زجاجيّة صافية، حبّات

وة طازجة مطحونة بمدقّة مهباش من خشب الصندل المزخرف،
نْ الكركم، لؤلؤةٌ فوق عرشها المرصّع، ياسمينةٌ بيضاء واحدة،
ف وحيدة هناك، مرفوعة الرأس، ولا شيء يسندُها سوى يده
صطناعية.

كنتُ أرى ضوءاً شحيحاً في رُدهة قاعة ريد، بيد أنّ الفسحة
حيطة كانت مظلمةً تماماً، باستثناء بعض المصابيح الكهربائية
باهتة التي تصطف على طول الطريق المؤديّة إلى حرم الجامعة.
سستُ على الدّرج وقتاً طويلاً، حتّى حلّ الظلام الدامس،
تشفتُ أوّل كأس شمبانيا في حياتي- وكانت معدتي فارغة. ما
ه عليّ ماكس عن ابنة عمته قد أطاح شهيّتي للطعام، وقلتُ في
ي إذا كنتُ سأستفرغ شيئاً، فالمصيبة أقلّ إذا لم تكن تحتوي
ى فتات طعامٍ فيها. «ملعونٌ حاملُ الخمرة وبائعُها وشاربُها»،
معتُ صوت أبي يقول. ارتعشتْ يدي وأنا أرفعُ المشروبَ
حرّم إلى شفتَيّ. مرّت ستة عشر عاماً تقريباً منذ أن رأيتُهم
ر مرّة. كنتُ وحدي، مع الأشجار السوداء المخيفة، والسماء
صبة التي لا قمر فيها، ومع الناي. عزفتُ لحناً مفعماً بالحنين،
ى أنه يصدّع قلبك. المرأةُ المتبرّجةُ، بصوتِها الوديع، والتي
دي السّاتان والجورجيت، ليست أنا. أنا لا علاقة لي بالمبنى
ند إلى القرن التاسع عشر، وبالمروج الكثيفة المستوية، وأدراج
جر العريضة، والتماثيل العارية، والأشجار العتيقة. أنا راعية
ادت أن تقود قطيعَها تحت السّماء السّافرة صوب مروج
يحة، راعية تبكي كلّما خطر لها أن تبكي، وتخلع حذاءها

كلّما خطر لها أن تخلعَ حذاءَها، وتعشّبُ وتمارسُ الحبّ مثل عاصفة هوجاء. أركضُ في المرج حافيةً وأعزفُ الناي، وأرقص ثم أسقط على وجهي، متدحرجةً حتّى أسفل الهضبة، ثم أمشي لأصعد الهضبة، وأغنّي ملء صوتي بالعربية: «من الباب للشباك رايح وجايي ورايي، من الشبّاك إلى الباب يتبعني. إنّه دائماً خلفي. ولا مكان أختبئ فيه. إذا ارتشفت رشفةً، إذا سفحتُ الشّاي، إذا أسقطتُ الكعكةَ في الصّحن. من الباب إلى الشبّاك. اللعنة! توقّف عن مراقبتي!» أسقطُ ثانيةً على وجهي، وأبدأ بالبكاء، كأنّ جنيّاً غير مرئي خرج من زجاجته. جدّتي شهلا كانت تشدّني من شعري وتقول: «ضعي جنّي الدموع في المصباح، يا زهرتي. دموعكِ حبّاتُ لؤلؤ». أجلسُ على العشب وأبكي. ظهرٌ مرتجفٌ، رأسٌ مطأطئ، أسنانٌ مصطكّةٌ، معدةٌ تتشنّجُ، يدان وساقان في حال الارتجاف. أهزُّ جسدي إيقاعيّاً على لحن أغنية الدّفن لجدّتي، «أين قبره؟ أين خنجره؟ أين وجهه؟ اجلبي لي خصلةً من شعره؟» أنشدتْ حين سمعتْ أنّ والدها قد مات. ملأت يديها برمل كثير، وبعثرته على رأسها، وعلى كلّ أنحاء جسدها. غيمة من غبار ذات مركز مظلم. «أين هي ابنتي؟ هل حيّة هي أم ميّتة؟ عينايَ جائعتان لرؤية وجهِها، أذناي مصوّبتان نحو نداءٍ واحد: ماما، وأنفي يقتفي أثر رائحتها. اجلب لي بطانية تغطّت بها أو حذاءً انتعلته أو خصلةً من شعرها!»، غنّيتُ. غيمةٌ ضبابية ذات مركز بنفسجي.

أعبرُ نهراً مجهولاً، بعيداً عن مضارب أهلي، وأراقب تصرفات الخيول. أنظر عميقاً إلى الظلال في البعيد وأرى حركة

أشجار. أصغي إلى وقع أقدام تدوس إبراً وحراشفَ جافّة. فجأة
معرُ بأنفاسٍ إنسانيّة تلفح رقبتي.
«محمود؟» شهقتُ.

مسّدَتْ غوين أطراف مريلتها، ودست شعرها القصير خلف
نيها وقالت: «لم يكن يعرف أنّها أحجار ياقوت. أقصد أبي.
لب تلك الأحجار المغبرة من جنوب أفريقيا إلى هنا، ووضعها
، كوخه الصغير في الحديقة، مع حصىً ونثار من الحديد. أحد
مدقائه كان قد أخبره بأنه حصل على الياقوت من أحد عمال
مناجم، وأراد منه أن يأخذ بعضها، فوضعها في جيب معطفه
شتوي ونسيها تماماً حتى وصل إلى سوانزي».

دهنت كعكة مسطّحة ومدوّرة بالزبدة وناولتني إياها.

«وكما ترين، راح ونسيها مرّة أخرى، حتى جاء يوم كان
حث فيه عن منظاره، ووجدها على الرفّ، مخبّأةً في حقيبة
قية بنية اللون. أمسك بواحدة منها، وبدأ يتفحّصها ليرى هل
، حقّاً من الياقوت أم مجرّد حجر جلفٍ من المناجم. لم يستطع
يرى أيّ دليل على أنّها من الياقوت، تحت السّطح الرمادي
حجر. واستمرّ يحكّ وينظّف ويحفّ، طوال ما بعد الظهر، حتى
م ورماها كلّها أرضاً. لاحقاً اكتشف أنّ حجر الياقوت يجب أن
طع بطريقة معيّنة للوصول إلى قلبه الأحمر. هل تعلمين، يا
ـمي، أمضى الشطر الأعظم من حياته، لاحقاً، يبحث عن
اقوت فوق أرض كوخه، وحديقته، ومشغله، وفي كلّ مكان.
تُ أراه من النافذة، يركع باحثاً عن تلك الأحجار اللعينة».

توقّفت لالتقاط أنفاسها، وارتشفت من الشاي رشفة، وقالت: «قبيل وفاته ببضعة أسابيع، عثر على إحداها. أجل، عثر على حبّة ياقوت خشنة».

شعرتُ بدفء سترة ناعمة فوق كتفي، فنظرتُ إلى الأعلى ورأيتُ وجهاً مألوفاً لم أستطع تحديده.

«محمود؟» شهقتُ.

«كلاّ، إنّه أنا، جون»، ولفّني بسترته.

«مَن جون؟» سألتُ.

«جون روبسون، أستاذكِ»، قال.

فجأةً تشنّجت عضلات معدتي، وتقيأتُ على قدميه وحذائه. كنتُ أرتجف، مقطوعة الأنفاس، ومريضة. «المرحاض»، توسّلتُ.

خفض كتفَه حتى بات تحت ذراعي، ووازنَ نفسه، ورفعني. كنتُ على وشكِ فقدان الوعي، حين لامستْ أخيراً قدماي الحافيتان الأرض الباردة. ساعدني على عبور المرج، والصعود إلى الدّرج، عبر الباب، والمشي في الردهة الطويلة نحو حمّام السيّدات. وقفتُ هناك، مبعثرة الأجزاء، حتى صاح «ادخلي!»

نوبة غثيان أخرى جعلتني أركض نحو المرحاض، وأدفنُ رأسي فيه، وأتقيأ ثانيةً. لا أتذكّر كم من الوقت جلستُ هناك، فوق الأرض المبلطة الباردة، وكم من الوقت حتى سمعته يصيح: «سالي! سالي! هل أنتِ بخير؟» وضعتُ يدي على كرسي

المرحاض، ورفعتُ جسدي إلى الأعلى. حين كان باستطاعتي أن أمشي أخيراً باتجاه المغسلة، لم يكن بمقدوري رؤية نصف وجهي في المرآة، أما النصف الآخر فكان مغطىً بالأوراق الجافة والوحل والعشب، وعيناي متورّمتين، وحمراوين، وشعري مربوطاً نصفه، والنصف الآخر مسدلاً على كتفي، وفستان غوين ملطّخاً بخطوط بنّية وخضراء. غسلتُ وجهي مرّات عديدة بالماء والصابون، وحللتُ دبابيس شعري، وجدلته على شكل ضفيرة، وشربتُ الكثير من الماء مباشرة من الحنفية. ضوء مرتجف حجب الرؤية عن عيني اليمنى. استرجعتُ توازني وخرجت ببطء.

كان جون يجلس على إحدى الأرائك، يقرأ الجريدة. حقيبتي السوداء، وحذائي، وناي القصب، مبعثرة على الأرض. وقف وقال: «هل أنتِ بخير؟»

«أعتقد أنّه صداع الشّقِيقَة»، قلتُ.

«ثمة غرف للنوم في الطابق الأعلى. يمكن أن أتّصل بالبوّاب ليؤمّن لكِ واحدة»، قال. طوى الجريدة وأعادها إلى مكانها.

«ما زالت مفاتيح غرفة بارفين معي. كانت تريدني أن أساعدها على حزم أمتعتها».

«يمكنكِ أن تمكثي هناك حتى الساعة العاشرة من صباح غد»، قال، وأمسك يدي وقادني على الدرج المفروش بالسجّاد. فتحتُ جناح العروس، وساعدني على الدخول، ووضع حقيبتي وحذائي على الأرض. السرير والكرسيان مغطيان بقمصان تي شيرت وبنطلونات جينز، وعلب ماكياج، ودبابيس ولفافات شعر،

وملابس داخلية، ومناشف. وضعتُ يدي على بطني، وجلستُ على السّرير. عادت نوبة الغثيان. «سأذهب وأجلب لكِ شيئاً»، قال، واندفع إلى الخارج. خلعتُ فستان غوين، لأرى هل تضرّر، وهل ثمة من طريقة لإصلاحه، وارتديتُ بنطلوني الجينز وقميصي التي شيرت، واستلقيتُ على السرير الواسع. عاد جون حاملاً صينية ملأى. لم أكن أرى سوى نصف وجهه، وعينه المحمرة، ولحية الماعز على ذقنه، ونظارته الزّلقة. «بعض اللبن، وشاي الأعشاب، وزجاجة ماء، وحبّة مسكّن لصداع الشّقيقة، ياسيدتي»، قال ووضع الصّينية على طاولة السّرير الجانبية. خجلت من النظر إليه، فرحتُ أتابع بعينَيّ خطوط الحبر على لوحة لسيدة يابانية معلّقة على الحائط. ويا للغرابة، تناولت اللّبنَ، وشربتُ الشّاي، وأخذتُ الحبّة الوردية السّاطعة. كان يراقبني، جالساً على إحدى الكنبات، وأنا آكلُ. «هل يمكن أن أحضر لكِ شيئاً آخر، سالي؟» سأل.

«سلمى»، قلتُ. ثمّ اندسستُ تحت الأغطية البيض، وأدرتُ جسدي، ونمت.

«عاد والدي إلى المنزل عام ١٩١٤ بسبب التهديد السياسي الألماني، وكان يخدم في البداية في كتيبة الفرسان، ولم يُرسَل إلى خارج البلاد. لكنه عُيّن ليشرفَ على أوّل تصميم للدبابات، أما شقيقه آرشي فكان أحد الذين يعملون في التنفيذ. وأتى وينستون تشرشل بنفسه لحضور التجارب، وقد قايض عمّي الجزمة الطويلة التي ارتداها تشرشل من أجل المناسبة بتلك التي ينتعلها هو،

ويُقال إنه أهدى جزمته هو إلى الذين سألوه عن الجزمة الطويلة! لا أعلم ما الذي فعله بالنسخة الأصلية. ولأنني أعرفه جيّداً، ربّما باعها لاحقاً. في الشطر الأخير من الحرب، أمضى والدي خدمته في «ذراع الأسطول الجوي»، على متن المناطيد. ولديّ صور لمنطاد يحمل طائرةً معلّقة بأسفله. كان ذلك اختباراً هدفه محاولة مساعدة الطائرات الحربية على التحليق فوق ألمانيا، وهي تحمل القنابل، ومزوّدة بوقود يكفيها للعودة إلى الوطن».

توقّفت غوين عن الكلام، ثم نهضت، وذهبت إلى غرفة النّوم، وعادت تحملُ مظلّةً سوداء. حين فَتَحتْها، تبين أن قبضتها مصنوعة من قطعة معدنية، صدئة، وغير مستقيمة.

«صدّقي أو لا تصدّقي، هذه جزءٌ من منطاد»، قالت.

لم تكن ليز في وضع يسمح لها باستجوابي. كانت لا تزال طريحة الفراش. أعددت طعاماً لها ولي، مع فنجانين من الشاي، وأخذتُ الصّينية إلى غرفتها، التي بدت أكثر اكتظاظاً وفوضى من أيّ وقت مضى. ملابسها الوسخة مبعثرة في أرض الحجرة، مع بقايا بيتزا باردة، تتعفّن في الصّحن، وبعض البقع الحمراء الغامقة، التي جفّت على السجّادة البيج. كانت تفوح منها رائحة الغبار، وصابون الخزامى، ومنظف طقم أسنانها، والأدوية. أزحتُ صرّة الرسائل الموجودة على طاولة السّرير جانباً، والصندوق الفضّي إلي الجانب الآخر، ثمّ وضعتُ الصينية. استيقظت ليز، ونظرت حولها بعينيها الصفراوين، وقالت، وهي من دون طقم أسنانها: «هذا كلّ شيء. شكراً».

«ظننتُ أنّه بإمكاننا أن نتناولَ الفطور معاً»، قلتُ بتردّد.

«حقّاً، ظننتِ أنتِ، أليس كذلك؟» سألت، وذاتها القديمة تعود.

«كان العرسُ جميلاً»، قلتُ لأغريها.

آثار دم سبحت في الكأس الملأى بالمنظف، حين أخرجت طقم أسنانها. ألصقته في فمها، وتلمّظت، ثم ربطت شعرها، ومسحت وجهها المنتفخ بأصابعها، وخرجت من تحت لحافها المهدب المكسو ببقعٍ حمراء وسوداء، ونظرت إلى صحن الثريد. وضعت الصينية على حضنها وبدأت تأكل.

جلستُ على حافة سريرها الواسع، وشرعتُ آكل طعامي.

«كيف كان العرس؟» سألتْ.

«كان رائعاً. الطقس كان جميلاً. وأشرقت الشّمسُ عليهما حتى النهاية»، قلتُ.

«هل رأيتِ الهودج، وفساتين السهرة السبعة على الشوبيه؟» سألتْ، وأخذتْ رشفةً من الشّاي.

«ما هي الشوبيه؟» سألتُ.

«تعرضين عليها الملابس الداخلية للعريس والعروس. ماذا عن العريس؟ هل أجلسوه على كرسي من الفضّة، ودهنوا وجهَه وذراعيه بزبدتها؟» سألت.

أمسكت صرّة الرسائل المضمومة بحزمة من المطاط وقالت: «ألا يزال أبي يختبئ في المكتبة؟»

وضعتُ صينية الطعام على طاولة السّرير الجانبية، ومسحتُ وجهَها بمنشفة المطبخ، وقلتُ: «ينبغي أن تستريحي الآن».

«لا تقولي لي ماذا يجب أن أفعل»، قالت، وهي على وشك الانهيار.

أنفُ نورا ينزف بعد جولةِ إطعام قسري. دخلتُ يومي الخامس في إضرابي عن الطعام، بعد أن وضعتُ جنيني. لم يعد ثمة شيء أعيش من أجله، فبدأتُ أضربُ نفسي بعنف على الوجه والمعدة والساقين. وحين ينال مني التعب، أستلقي على الأرض الوسخة، وأرفض أن ألمس الخبز والحساء اللذين يوضعان تحت أنفي في كلّ وجبة غداء، حتى عادت نورا ذات يوم إلى الغرفة وهي تترنّحُ، بعد جولة إطعام قسري. جرّتها نعيمة مع حارسة سجن أخرى عبر الباب الحديدي ورمتاها على الفراش. وجهكِ وذراعاكِ مبقّعان بالكدمات، والدم الممتزج بالمخاط يسيلُ من أنفكِ، وثمة سائل أبيض عالق على شفتيكِ، وعيناكِ مغمضتان.

لكزتني نعيمة بقضيبها، بالطريقة نفسها التي كنتُ ألكزُ بها حماري الكسول، وقالت: «وماذا عن هذه؟ هل لا تزال مضربةً عن الطعام؟»

«لا»، همست نورا.

حين أقفلت الباب، فتحت نورا عينيها، وابتسمت لي وقالت: «كلي، من فضلكِ». كان صوتها قوياً ومكسوراً في آن واحد، لكن ثمة شيئاً مخيفاً فيه، كأنّها قابلت توّاً الغولَ الذي يظهر للرحّالة. وقفتُ، وفككتُ صرّتي، وقرأتُ رسالةَ أمّي ثانية، ونظرتُ إلى النافذة. كانت تريد أن تأتي وتزورني، لكن لابد أنّ أبي وأخي

منعاها من عبور عتبة المنزل. قضمتُ كسرةَ خبز يابسة. في ضوء القمر الباهت، المتسلل من خلف القضبان، يمكنكِ أن تريني وأنا أمضغُ الخبز المالح، المبلّل بالدموع الآن. ارتسمت ابتسامةٌ على وجهكِ، وأنت تديرين رأسَك نحو الحائط.

رأيتُ الشمسَ الإنكليزية تغربُ خلف التلال، تاركةً ضياءً متوهّجاً وراءها، راح يطفو فوق المياه، ويلامسُ قممَ الأشجار، ويشعّ فوق رؤوس الناس العابرين مع كلابهم. كانوا يبتسمون ويتبادلون التحيّات. إنه فضاءٌ آمنٌ مكسوٌّ بالعشب الأخضر، والزهور البرية، وعلى حوافّه، ينمو شجر الكستناء والبلّوط والغبيراء والبتولا. جلستُ على العشب المطلّ على سفوح منحدرة يتدفّق فوقها الماء، وحاولت أن أعزف لحناً بسيطاً، يتناغم مع صوت خرير المياه، والنسيم الذي يعبث بشعري، ونباح الكلاب البعيدة، وصوت الزّيزان المختبئة بين النباتات الطويلة. ذاك اللحنُ سيكون لسالي الإنكليزية الواقفة بقامة منتصبة، ورأس مرفوع، وظهر مستقيم، تلوّح للشّمس بمنديل أبيض. ثمّ لحنُ راعية تقول وداعاً للنهار، وتقبّل الشمسَ وتبكي على رحيلها، مصحوبة بضرب الأرض بالأقدام، وشدّ الشعر، وتمزيق الملابس. تلك سلمى العربية الجالسة فوق العشب، تتلوّى بنصفها العلوي، وتذر رماداً على رأسِها. ثم لحن أخير، شجرة ليست من الغرب وليست من الشّرق، زيت زيتون في مصباح زجاجي، هديل حمام، أبيض على أسود، أسود على أبيض، ضوءٌ على ضوء، حيث السّماء تلامسُ الخطوط السوداء للأشجار والحملان والهضاب في نهاية الأفق.

بقيتُ أفكّر في اللّقاء الدراسيّ المقبل مع جون. أذهبُ أم لا أذهب. أتمارض أم أكسرُ ذراعي، أم أقول ببساطة إنّ لدي حالة عائلية طارئة تقتضي وجودي. كنتُ أحاولُ جمعَ مفردات من برنامج (نيوزنايت) على القناة الثانية في البي. بي. سي: «من جهة أخرى»، و«لذلك»، و«برغم أنّ اختطاف الرهائن ظاهرة عالمية، تظلّ، بشكل رئيسي، مشكلة عربية». بحثتُ عن معاني الكلمات في القاموس، وكتبتُها مرّات عدّة لأتذكّرها، ومن ثمّ دوّنتُ خطبتي، «أعتقد أنّه حان الوقت لكي أقول وداعاً، وأبحث عن أستاذٍ آخر. على أي حال، كنتَ جيّداً جدّاً، ومتعاوناً، مع أنكَ من أهل الشّمال. من جهة أخرى، يمكنني أن آتي بشهادة من الطبيب تؤكد أني مريضة، ويمكنك أن تشرف على مشروعي. وإذا لم يكن لديك احترام لي، فلا يمكنني أن أعملَ معك، وأنا حزينة ومحطّمة أيضاً. كما أنني لا أعلم أين هم الرهائن. أرجو أن أكون قد أوضحت الأمور».

«مرحبا، ماكس»، قلتُ.

رفع نظّارته، وأشار إلى الصّورة، وقال: «انظري إلى هذه. الأميرة ترتدي البيكيني! كيف يمكننا أن نرها جزءاً من العائلة المَلَكية؟»

كان يريدُ البدءَ بنقاش، وأنا جاريتُهُ بذلك. «إنّها امرأة. إنسانٌ مثلنا»، قلتُ.

«مثلكِ؟ مثلي؟ لا تكوني سخيفة! إنّها من العائلة الملكية. دم أزرق. الولاء لله ومن ثم للعائلة المالكة».

«أرى ذلك»، قلتُ لأهدئَ من روعه.

«عارية، إنّها عارية تماماً»، قال.

«إنّها ترتدي ثياب السباحة».

«هل تعتبرين هذه الشرائط المطاطية بزّة سباحة؟»

«مصورون فضوليون»، قلتُ، «كانت تريد أن تقضي عطلة هادئة، هذا كلّ ما في الأمر».

كانت نقاشاتنا تنتهي دائماً بالطريقة نفسها، إما بجملة، «سال، أمامك الطريق طويلة»، أو «سالي، ما زال أمامك الكثير لتتعلّميه»، أما هذه المرّة فقال: «سال، لا تعرفين عنّا، نحن البريطانيين، أي شيء أليس كذلك؟ كيف نشعر حين نرى أميرتنا عارية في جريدة».

كنتُ دائماً أمنحه لذّة الاستسلام لمنطقه. «معك حق».

«لا ألومكِ، كونك أجنبية وكلّ ذلك»، يقول، ويشعل سيجارة.

نظر جون إلي وأنا أرتدي سروالاً قصيراً واسعاً، وقميص تي شيرت عتيقاً، وحقيبة ظهر تحتوي على غداء لم يُؤكل، كأنّني قد هبطتُ توّاً من كوكب المريخ. جلستُ تلبية للأوامر. بدا الأستاذ مهنياً، وتصرّف كأنّي لم أتقيأ قط على حذائه وبنطلونه، كأنه لم يداعب شعري قبل أن أذهب إلى النوم، كأنّه لم يجلب لي البتة حبّة مسكّن وردية ساطعة. تحدّث إليّ كأنّي نملة أزحفُ على أرضه الأكاديمية. كانت مشكلتي مع اللغة الإنكليزية التي تعلّمتها

من برنامج (نيوزنايت) هي أنني لا أستطيع لفظ معظم الكلمات. حاولتُ أن أدوّر لساني وأنا ألفظ كلمة (supremacy) ولكن من دون فائدة، وجلستُ هناك كأني خرساء وصمّاء، أصغي إلى جون وهو يقول لي كم الكتابة في ورقة البحث «غير موضوعية وجاهلة وسطحية»، وكأنّ المقالة كتبت نفسها بنفسها. بلعتُ لعابي بصعوبة، من أجل منع نفسي من بصق بعض المفردات الإنكليزية الجديدة التي تعلّمتها حديثاً. لو لم أكن جاهلة، لما كنتُ في مكتبه أستمع إليه وهو يمزّق ورقة بحثي الأولى إلى نتف صغيرة، لكنني، على أيّة حال، لا أعرف الكثير عن البحث الأكاديمي ولا عن أزمة الرهائن. تكلّم ثمّ تكلّم. نظرتُ إلى نظّارته التي مثل نصفَي قمر والتي انزلقت عن أنفه، ورأسه الآيل إلى الصلع، وعينيه الزرقاوين المحمرتين، ولحية العنزة على ذقنه الملأى بالشيب، وظهره المحني، وذراعيه النحيلتين المكسوتين بالشعر الأسود، وقميصه التي شيرت الأبيض، وقلت: «يجب أن أذهب».

خطفتُ الورقة التي كان يلوح بها، وخرجت.

«أما زلت تريدين درجة علمية؟» صرخ من ورائي قبل أن أصفق الباب.

تحت وابل الإهانة الذي تعرضتُ له توّاً، لاحظتُ أنّه ذكر كثيراً مشروع بالاس. ذهبتُ إلى أحد الموظفين، وقد تظاهر بأنه يفرز الرسائل، عندما رآني أتجه إليه. «هاي!» قلت.

«هللو، مدام»، قال من خلف زجاج النافذة المنزاح قليلاً.

«عفواً، يا سيد»، قلتُ، «ما هو مشروع بالاس؟»

«من هنا، يا آنسة»، قال، وقادني عبر ردهة مظلمة، ثم فتح باباً كبيراً لغرفة ضخمة، جيّدة الإنارة، ملأى بشاشات مومضة لأجهزة الكومبيوتر.

«أهذا هو؟» قلتُ.

«هذا هو مدام».

«هذا هو؟»

«نعم، مدام. تتعلّمين كيف تستخدمين الكومبيوتر».

لم يكن لدينا الكثير من العمل في تلك الظهيرة. كان ماكس يتحدّث إلى بعض الزبونات وأنا أجرّب الرّتق على «آلة خياطة جديدة، متينة، وذات سرعة عالية». فجأةً ناداني، مستخدماً اسمي العربي، بطوله كاملاً، متلعثماً في نطقه، «سلمى!»

كدتُ أسقطُ عن كرسيّي. كان يبقيني دائماً في الخلفية البعيدة، ولا يدعوني البتة إلى واجهة المحلّ، حين يكون مع الزبائن. «نعم، ماكس»، قلتُ.

مررّ يده على شعره المثبت بالجِل، ليتأكّد أنه ما زال مسرّحاً، وتنحنح، وقال، كأنّما يلقي خطبة في مجلس العموم: «مكافأة لكِ على سنوات الخدمة الجيّدة، قرّرتُ أن أمنحكِ علاوة العشرة في المئة التي طالبتِ بها».

لم أصدّق أذنَيّ، لكنني، في الوقت نفسه شعرتُ، بالاستياء أيضاً، لأنّه أطلق هذا الإعلان، في حضور السيّدة سميث، من بين

كلّ الناس، الموظّفة في مصلحة البريد الملكي. سوف تسمع المدينة بأسرها هذه الأخبار صباح غد. ستقول: «ماكس لطيف جداً، كالعادة، وقد منح زيادة للمتدربة السوداء».

كنتُ أعرف ماذا يتوقّع مني ماكس، فقلتُ: «ماكس، كنت دائماً لطيفاً معي، شكراً جزيلاً، جزيلاً».

كانت السيّدة سميث تفردُ مظلّتها الخضراء ذات الأطراف المهدبة تارة، وتغلقها تارة أخرى، سعيدةً تماماً بهذا المنظر. وكان ماكس يحاول أن يقنعها أن تصبح «عشيقته في السر» لمدة أشهر.

ملأتُ عينَيّ بعبارات الشّكر ونظرتُ إلى وجه ماكس. بعد أن عملت إلى جانبه كل هذة المدة هو يعرف أنني حمقاء عاطفية، وأنني أتأثرّ بالأشياء تأثراً شديداً. الإشارة الوحيدة التي تدلّ على تلقّيه شكري كانت فركه لأنفه، والتي بتّ أعرفها جيداً.

تنشّقتُ المزيد من البخار المثقل بالنشا، وأمسكتُ القبضة الخشبية للمكواة الفولاذية، ومرّرتها مثل الرّيح الخاطفة على السترة الزرقاء، على الطاولة.

كان شعار ماكس يقول: «الدفع نقداً دائماً»، وعليه، كان يعطيني في نهاية كلّ شهر، كومة من الأوراق النقدية المتغضّنة. ترك لي راتبي على آلة الخياطة الجديدة، فأخذتُ المظروف المكتوب عليه اسمي، ورأيتُ منشور الحزب القومي البريطاني على الأرض، قرب كرسيه. بلعتُ لعابي بصعوبة، وتظاهرتُ بأني لم أرَ شيئاً. شكرتُ ماكس وهرعت إلى خارج المحلّ، طلباً لبعض الهواء. لا تكوني غبية، قلتُ في نفسي، إن حبراً على ورق

لا يمكنه أن يؤذيكِ. إنها ليست غلطة ماكس. ربما شقيق زوجته هو الذي جلب له المنشور. كان يؤمن بأنّ جميع الأجانب يجب أن يُوضعوا في سفن شحن، ويُفرَغوا «مثل الموز» على شواطئ إفريقيا.

حين عدتُ إلى المنزل في ذلك المساء، كان مرض ليز في حالة تراجع. بملابس الصّيد وجزمة ركوب الخيل، كانت تمشي مثل جنرال حول غرفة الجلوس. ياقةُ بلوزتها مثنيّة، وشعرها مربوط إلى الخلف بسوار جلدي، وفي يدها عصا من خشب البامبو. منذ تلك الحادثة، أخفيتُ السوط بعناية بين كنزاتي الشّتوية، في خزانة الملابس. أدركتُ كم كانت جميلة في صباها. دوائر بيضاء أحاطت بزرقة عينيها، شبكة عنكبوتية من الشرايين الدقيقة انتشرت فوق خدّيها وأنفها، بطنها برز قليلاً من تحت البنطلون الأبيض الضّيق، وثدياها تدلّيا مسطّحين تحت بلوزتها الزرقاء. كنتُ أحمل صينية فضّية، عليها ختم الملكة آن، أحضرتُها توّاً هديةَ عرس لبارفين. حين رأتني أسترق النظر من خلف الباب المفتوح قليلاً، رفعت أصابعها ونادت: «يا بنت، اجلبي لي عشائي! نعم، أنا أتحدّث إليكِ. لا تتظاهري أنكِ لا تسمعينني». لم أكن أعرف ماذا أفعل. هل أدخل غرفة الجلوس، وأتظاهر بأنني خادمة إليزابيث الهندية، أم أخبرها إلى أين تذهب. لا بدّ أنّها تفتقد خيولها التي تملأ صورها جدران المدخل، ولا بدّ أنها تفتقد مدينة بيشاور، أو المكان الذى اعتادت العيش فيه، قبل الحرب، ولا بدّ أنها تفتقدُ عشيقَها هيتّا ووالدها وحتى تشارلز، زوجها

الراحل، لكنني لا أستطيع أن أساعدها. إذا تظاهرتُ بأنني خادمتها الهندية، فستغرق أعمقَ فأعمق في عالمِها الثمل. سيكون من الأسهل لها ولي أن أفعل ذلك، لكنّني لا أستطيع، ويجب أن لا أفعل ذلك. تركتها تصدرُ الأوامرَ لخدمٍ وعبيد متخيّلين، وصعدتُ إلى غرفتي لأغلّفَ هدية بارفين.

برغم أنّ بارفين أطلقت عليه نعوتاً كثيرة مثل العنصري والخنزير والجنسوي المعادي للنساء، فقد منحني ماكس عملاً لم يمنحْه أحدٌ سواه. لو لم آتِ إليه في ذاك الصّباح، لبقيتُ من دون طعام. وقفتُ خارج محالّ لوردز تيلرز، أنقّل ثقل جسدي من ساق إلى ساق، وأفركُ يدَيّ. أمضيتُ شهوراً أتدرّب كيف سأصعدُ الدرجَ، وأطرق البابَ، وأقولُ إنّ لدي خبرة في مؤسسة في بلدي، وإنّني انتقلتُ توّاً إلى إكستر، وأنا أبحث عن عمل. حاولتُ أن أستذكر جميع الجمل التي قد أحتاج إليها أمام المدير، لكي يظنّ أنّ لغتي الإنكليزية جيّدة. مسحتُ يدي بالمنديل المطرز الذي أعطاني إياه القسّ ماهوني في عيد الميلاد، وصعدتُ الدّرج. كانت ركبتاي ضعيفتين لا تقويان على حملي، فاستندت إلى الدرابزين. بدا الباب الزجاجي غائماً. دفعتُه ودخلت. الرجل نفسه الذي طردني أنا وبارفين كان يخيط، ويتحدّث عبر الهاتف، ويدخّنُ سيجارتَه، في الوقت نفسه. توقّف حين رآني أقف هناك، أنقّلُ ثقلي من ساقٍ إلى ساق. مسح رأسه بيده وقال: «اجلسي». جلستُ ورحتُ أنظر إلى آلات الخياطة. كيف يمكنني أن أقول له إنّ لدي خبرة في الخياطة، إذا كانت الآلة الوحيدة التي عملتُ

عليها هي ماكينة سينجر اليدوية؟ حين وضع السمّاعة، نظر إليّ.

«صباح الخير، آسفة جداً، لم أعثر على عمل»، قلتُ.

«صباح الخير»، قال. «أنتِ السيّدة التي حاكت الفستان الأبيض؟»

«هل تتذكّر؟» قلتُ.

«أنتِ خطتِ ذاك الثوب؟» قال وهو يومئ، ويختار كلماته ببطء.

«نعم»، قلتُ، ويداي بين ركبتَيّ.

«هل تعرفين كيف ترتقين؟»

«كلّ أنواع الرّتق»، قلتُ.

رمى إليّ بنطلوناً رمادي اللون، وطلب أن أرتق الحاشية. مسحتُ يدي، وركّزت على خطوط الكيّ، وبدأتُ أرتقُ. استخدمتُ أسلوب رتق «قدم الديك»، الذي لا يُستخدم عادةً في رتق الحواشي، لأريه أنّ لدي تجربة. كان ينظر إلى يديّ المرتجفتين، ويهزّ برأسه. استغرقت الفردة الواحدة خمس دقائق. ألقى نظرة على الخطّ المستوي، والقُطب الملتفّة التي تسند الحاشية في مكانها، ثمّ بسبابته وإصبعه الوسطى رسم إشارة (V) وقال: «ماذا عن جنيهين ونصف الجنيه في الساعة؟»

«نعم»، قلتُ وأومأت.

«أنتِ مقبولة. تعالي غداً صباحاً في تمام الساعة الثامنة».

للوهلة الأولى لم أستوعب ما قاله، لكنني أدركتُ لاحقاً أنّه عرض علي عملاً. كنتُ تعبة جدّاً وجائعة جدّاً، ولم أقدر على

إظهار الابتسامة. انحنيتُ تعبيراً عن شكري، وخرجتُ قبل أن يبدّل رأيه.

*

ارتديتُ بنطلونَ جينز نظيفاً، وقميص تي شيرت أزرق، وربطتُ شعري إلى الخلف بمطّاطة صغيرة. وباستثناء بعض الكْرِيم، لم أضع ماكياجاً. وبعد أن تدرّبتُ على كمبيوتر قديم كان يضعه آلن في مكتبه، ازدادت ثقتي بقضية التعلّم هذه. كنتُ أريدُ أن أثبتَ لجون أنني لستُ مدمنة كحول، ولستُ بربرية، وأنني تلقّيتُ تربيةً جيّدةً لدى أهلي، هناك في الحمى، ولا يمكنه، لا هو أو البابا، أن يربّيني مرة ثانيةً. حين فتحتُ باب مكتبه، ابتسم ابتسامة صفراء، وطلب منّي الجلوس. لا بدّ أنني بتّ عبئاً عليه الآن، وواحدة من سيّدات البيوت المنخرطات في الدراسة نصف دوام. ابتسمتُ بدوري وسألته مباشرة: «ما الذي يعجبكَ في كتاب مارغريت أتوود؟»

لاحظتُ من تبرّم فمِهِ أنه أُخِذَ على حين غرّة. «أي كتاب؟»

الإنكليز شعبٌ دقيق، وهم ليسوا مثلنا، نتركُ معظم جملنا غير منتهية، ونفهم من الإشارة، واستدارة رأس، واختيار الكلمات. «**حكاية الوصيفة؟**»

«كتابٌ ممتع، أسلوبُه جيّد»، قال فاركاً ذقنه.

«كان يجب أن توصي لي به بدلاً من (جستين). إنّه كتاب صعب جداً، جداً. صعوبة جيدة».

أبتسم كأنّني طفلة أصفُ نهاراً أمضيتُه في السّيرك. لا يقولون

ذلك صراحةً، لكنّ معظمهم يعاملني كأنّني قردة أتسلّق الأشجار. غوين قالت لي يوماً لماذا. لأنّني أستخدمُ «جدّاً» كثيراً. «ليس هنالك شيء جيّد، جدّاً، جدّاً، جدّاً»، قالت. «أنتِ سوداء، جدّاً، جدّاً»، قلتُ مرّةً لبارفين.

«لا أعرف كيف أرمي «جدّاً» من لغتكِ الإنكليزية»، أجابت.

نظر جون إليّ من خلف نظّارته نصف القمريّة، فيما كان يدلكُ لحية الماعز فوق ذقنه، وكأنه يحاول أن يفكّ لغزاً. أتيتُ من بلدان مظلمة، تنهشها النزاعات الدموية، والرهائن. لو كنتُ مكانَه، لما علّمت شخصاً مثلي.

نظر إلى الأعلى أخيراً، ونزع نظارته، ووضعها في علبة صغيرة قديمة، وأغلق جريدته، وطواها ببطء شديد، ثم قال، وكأنّه يتحدّث إلى امرأة الملصق خلفه: «أنتِ كذبتِ علينا».

احمرّ وجهي خجلاً، ونسيتُ كلّ الكلمات الإنكليزية التي حفظتها عن ظهر قلب. شعرتُ بالضيق الشّديد، وقررتُ ترك الشّهادة كلّها. ورحتُ أنظرُ إلى السجّادة الفارسية.

«في استمارة التسجيل تقولين إنك عازبة، لكن كلّما تأخرتِ في دراستكِ زعمت أن ابنتكِ أو عائلتكِ في ضائقة». صفع طاولة المكتب بجريدته، وتابع: «ليس لديكِ زوج ولا ابنة».

توقّعتُ أن يأتي الهجوم من زاوية مختلفة، من زاوية افتقاري إلى الذكاء، وثقافتي الضعيفة، وعدم إجادتي استخدام الكمبيوتر، لكنني لم أتوقّع أن ألقى ضربةً على الأنف مباشرةً بتلك الطريقة. جلستُ على الكرسي، وشددتُ ظهري. لم أكن أعرف كيف أتلقّى

الهجوم. يجب أن أترك هذا الاختصاص وأنتقل إمّا إلى علم الاجتماع وإمّا إلى علم الأنثروبولوجيا.

حين نهض ودار حول طاولة المكتب، انكمشتُ، متوقّعةً منه أن يضربني، لكنه، وبعد أن حيّرته ردة فعلي، جلس بالقرب منّي، حتى أني شممتُ رائحةَ النظافة تنبعث من قميصه المغسول حديثاً، وقال: «ليس لديك زوج أو ابنة».

نظرتُ إلى سجّادته الفارسية، ووحشية خطوطها وزخارفها، وسطوع ألوانها، وهمستُ: «ابنة فقط».

زهور المسك وشجرُ القَرانيا

محمود، شقيقي، أُعطي بندقيةً محشوّة ليقتلَ أفضل مهور دفّاش. علا صوت أبي: «قتلوا حصاننا، فيجب أن نقتل حصانَهم، وإلاّ فسيبدأون بقتلِ رجالِ قبيلتِنا». عاد أخي متأخّراً تلك الليلة، ولكن حين سمعنا الطلقات، كان محمود قد عاد يجري بالفرس عدواً إلى باحة الدّار المظلمة. «بارك الله بكَ يا بنيّ! الحصانُ من أفراد عائلة الموسى. كان لا بدّ من الانتقام لدمه». ونتجمّع في مجموعات، وعائلات، وقبائل، وعشائر. لا بدّ أن نحمي شرفنا، وننتقم لدمنا. نأكل معاً، وننام معاً، عشرة أفراد في الغرفة أو الخيمة الواحدة، ومصيرنا متصل كسلسلة. وإذ أرحّبُ بضوءِ الصباح الخافت على وجهي، وبالرّذاذ الخفيف، أدركُ، لسوء حظّي أو لحسنه، أنني كسرتُ الحلقة المعدنية التي تربطني بعائلتي. الآن في بلدي الجديد، أمشي إلى عملي، مع حقيبة الظهر على كتفَيّ، متخمة بقصاصات الورق، والكتب، ودورق القهوة، وسندويش جبنة حلّوم. كسبتُ كلّ ما أملكه، ما عدا النقود التي أعطاني إياها القس ماهوني. كنتُ أعودُ مقيّدةً إلى لا شيء، ما عدا كوابيسي. إذا لم يكن لديكَ عائلة، فلن تقتل أيّة أحصنة.

«إذاً، من فضلك، من أيّ بلدٍ جئتِ؟» قال جون، وأخذ رشفة قهوة من فنجانه. كنا نجلس في نادي أعضاء الهيئة التدريسيّة.

نظرتُ إلى الشّيب الذي يزيّن شعره الخفيف، وعينيه الزرقاوين المتعبتين، وأذنيه الكبيرتين، وأصابعه الممتلئة، وعلبة نظّارته في جيب قميصه المتغضّن، وذراعيه المكسوتين بشعر أسود ناعم، وهززتُ رأسي، «لا، ليس أنا. أنت، من أيّ بلدٍ جئت؟»

«جئتُ من قرية صغيرة في الشّمال الشرقي من إنكلترا اسمها آيكليف. والدتي تملك بيتاً من الحجر على ضفّة النهر»، قال، وسحب نظّارته من العلبة الجلدية.

«هل لديكم منحدرات شاهقة وأغنام»، سألتُ جون.

«إنّها أرض مسطّحة تقريباً، لكن لدينا الكثير من الأغنام، والكلاب والدجاج. إنّها منطقة ريفية»، قال، ووضع يده على يدي. كانت والدة القسّ ماهوني تستخدم مكواة تعمل على الفحم من أجل كي قمصان زوجها. لا بدّ أنّها كانت ثقيلة وساخنة. كبحتُ شهقةً. «حارّة، جدّاً، يا جون. الكثير من الماعز في البلاد التي جئت منها. الكروم والزيتون والخوخ واللّوز والتين وأشجار التفّاح».

«يبدو أنّها قطعة من الجنّة»، قال ووضع نظّارته.

«في بعض النواحي»،

«لماذا أنتِ هنا؟» سأل.

«لماذا أنتَ هنا؟» سألتُ.

«أنا هنا لأنني لم أستطع العثور على عمل في الشمال. لذلك أنا ملقىً هنا في هذا الجنوب الكئيب».

«ملقىً؟»

«شخص معزول في مكان مهجور، غير قادر على المغادرة».

«جيّد. أنا ملقاة على هذه الجزيرة، المسمّاة المملكة المتحدة»، قلتُ، ونظرتُ إلى البعيد، عبر الجدران الزجاجية للمقهى. كانت السماء تمطرُ، والأزهار البيض لشجرة القرانيا تتلألأ في ضوء الشّمس.

شجيرات دفلى، وردية غامقة وحمراء وقرمزية، تخطّطُ مسارَ السّبيل، وصولاً إلى الطاحونة. ذهبتُ أنا وأمي إلى الديار المجاورة لزيارة ابن عمها. الحرارة مرتفعة جدّاً، حتى أنّك ترى الشقوق في الأرض، والنمل الأسود يفور منها، حاملاً قشرالحبوب الجاف. في تلك الظهيرة قالت أمّي: «دعينا نجلس قرب النبع البارد، لإراحةِ أطرافنا». مشت عبر الحقل الكثيف، وراحت تبحث عن ثمار البطيخ الأحمر. حين عثرت على واحدة، فصلتها عن عرقها، وضربت بها مرّات عديدة الحافة الحادّة للصخرة، حتى انفلقت نصفين. جلسنا معاً، أقدامنا في الماء البارد، وشرعنا نلتهمُ اللب الأحمر للبطّيخ، ونلوكُ البذورَ السّوداء الصغيرة. كانت أمّي تبصُقُها، أمّا أنا فألوكها وأبلعُها. تضع أمي يدي في الماء البارد، ثم تغسلُ السائلَ الدبقَ عن وجهي. «أمّي، الماء بارد. هل يمكنني أن أسبح؟»

«إذا رأوكِ، فسيقتلونني. المرأةُ السائبةُ هي التي تخلعُ

ملابسَها، وتسبحُ على مرأى من الناس. يمكن أن يراكِ الرّجال»، تقول، وترفع نقاب وجهها الأسود، وتتردّد ثم تقول: «هيّا، أسرعي!»

أخلعُ قميصي البرتقالي الطّويل، وأبقي بنطلوني الأخضر، وأقفزُ في الماء. كانت المياهُ باردةً وصافيةً جدّاً، بدت قدماي كأنهما انكسرتا، حالما نزلتُ فيها. أغطّس رأسي تحت الماء، تماماً فوق الحصى المتلألئ، وأسبحُ باتجاه شعاع الضوء. الماءُ الباردُ يلامسُ جسدي الحارّ، مولّداً صدمة، حتى أني صرختُ من الإثارة. امتلأت بالرغبة في الحياة.

«شوش، يا مكسورةَ الرقبة! لا نريدُ أن يسمعكِ رجال القبيلة»، تقول.

كان يجب أن تقول لا ، لكنها قالت نعم.

«لماذا لم تقل لا؟» سألتُ جون.

«من؟» سأل جون.

«أمّي»، قلتُ.

«سالي، هل أنت في خير؟» سأل جون.

استرددت يدي من قبضته، واستدرتُ، ونظرتُ إلى وجههِ الغائم المتلهف، وقلتُ: «أنا في خير. لا بدّ أنّها القهوة. إنّها ساخنةَ، جدّاً ، جدّاً».

ضغطتُ بيدي على عتبة النّافذة، ونظرتُ عبر الزّجاج المغبر، إلى الطاحونة البعيدة، وإلى البريق الخافت للنهر. أنا عادةً ألتقي

جون في قاعة ريد بعد العمل، لكنه اليوم عاد إلى قريته آيكليف، ليزور والدته. كنا نتبادل أطراف الحديث ونراقب الأشجار تزهرُ، ونتحدّثُ عن الأدب، وأنواع الزهور البرية، وأنواع الطيور، وأيضاً عن الشعور بالحرج. لم يكن يشعر بالراحة في الجنوب، وكنتُ أشعرُ، في هذه البلاد الجديدة، «مثل سمكةٍ خارج الماء»، بحسب التعبير المفضّل لبارفين. ذات يوم أتته مكالمة من أحد الجيران، تخبره بأنّ أمه تعاني التهاباً في الرئتين. «سَعَلتْ كثيراً فنقلناها إلى غرفة العناية الفائقة».

انزلقت أصابعي بطيئةً فوق الغطاء الخشن للطّاولة، وأمسكتْ إبهامَه الخشن. كانت يده ترتجف حين قال: «يجب أن أذهب لأراها».

«نعم، يجب أن تفعل ذلك. لا تضيع وقتاً. اذهب لترى الذين تحبهم . . .» ولم أستطع أن أكمل العبارة.

«لا بدّ أنكِ تفتقدين والدتكِ كثيراً»، قال، وأمسك يدي.

«أنا مشتاقة إليها كثيراً»، مسحتُ دمعةً عنيدةً سالت.

أمسكَ أنفه بإبهامه وسبابته، وسعل، ثم قال: «أريدُ أن أخبرَ أمّي عنكِ، إذا لم يكن لديك مانع».

أرخيتُ كتفيّ، ووضعتُ يدي على قفصي الصدري، وأومأتُ بالموافقة.

بدت الأشجار في البعيد مثل أطراف مظلمة نحيلة، تمتدّ باتجاه السّماء. رفض حمدان أن يتزوّجني واختفى. قال إنني مجرّد عاهرة، رخيصة، «وبضاعة فاسدة»، كما وصفت يوماً بارفين

نفسها، وإنني كاذبة. ربّما ظنّ جيم أن سالي مجرّد بائعة هوى أجنبية، تنام مع كلّ عابر سبيل، وتقدّم إليه شاي المريمية. ربّما حذّرته أمّه من النسوة الأجنبيات اللواتي يحملن أمراضاً. بدت الأشجارُ مثل أياد ممدودة باتجاه الغيوم الدكناء. تنهّدتُ. ربّما كان قلب جون الشّمالي دافئاً دفئاً كافياً، وواسعاً وسعاً كافياً، ليتحمّل بدويةً، «لها تاريخ طويل مع المعاناة» كما تقول بارفين. وماذا عنّي، أنا التعبةُ، وكلّ شيء؟ هل يمكن أن أمنحَه واحةً فيها بحيرة ملأى بالماء العذب، وأشجار بلح مثقلة بالتمر؟ ربّما لا. ربّما بعضُ ظلّ لقلبِهِ المرهق، سيكون كافياً، على الأرجح، قلتُ في نفسي، وأفلتُّ عتبة النافذة.

«في نهاية فترة التعليم، أعطاني صندوقاً، مربوطاً بشريط ساتان أحمر. إنّه لكِ، قال. افتحيه!»

ضوءُ الشّمسِ الآتي من شبابيك المقهى الواسعة حوّل لون عيني بارفين إلى عسلٍ صاف. بدت راضيةً ونضرة.

«حين فتحتُهُ كدتُ أبكي. كان مملوءاً بالأشياء الحلوة من الشّرق الأوسط: علبة تمر وبقلاوة مع الفستق الحلبي وحلاوة وراحة حلقوم تركية. قال إنّه يعرف القليل عن المشرق، لكنّه كان مستعداً لأن يتعلّم». مرّرتُ يدي على شعري الأجعد، ثم فركتُ ذقني، وقلتُ: «بارفين، جون يريد أن يتزوّجني».

«هذا حلوٌ»، قالت، وعَنَتْ ما تقول.

«قال أيضاً إنّه سعيد بأن يصبح مسلماً. هو لا يؤمن بالله، لكنّه سوف يؤمن «اسمياً». ماذا يعني هذا؟»

«يعني بأنه ليس صحيحاً. بالاسم فقط». قالت.

«قلتُ له إن الإسلام صعب. لا تريدُ أن تكونَ مسلماً».

«الإسلام معقّدٌ، يا للعنة»، قالت، وارتشفت بعض القهوة.

«لكنّه قرأ الكثير عنه، وهو يعرف ماذا يفعل. قلتُ له إنّي بضاعة فاسدة، وهذا ما قالته أيضاً ليز. قلتُ محذّرةً: أنا حيوان جريح. يمكن أن أنقلبَ عليك يوماً ما».

«هل غير رأيه؟»

بدت خيوطُ الشّمس كأنّها منسوجة مع شعر بارفين الفاحم. عيناها تبرقان، وبشرتها يانعة، وخاتما الخطبة والزّواج يشعّان من إصبعها الرقيق.

«جون لديه مشاكل أيضاً. إنّه ليس قدّيساً. يريد أن يتزوّجني. هذا كلّ ما في الأمر».

«ماذا عنكِ؟ هل استهواكِ؟» سألت.

«لستُ قادرة على الحبّ. أنا تعبة جدّاً، وثمة الكثير من الماضي»، قلتُ.

«قلما تتوقفين عن الحديث عنه. أراهن على أنّكِ ستتزوجينه»، قالت.

«كلاّ، لن أتزوّجه»، قلتُ، وأخذتُ رشفةَ حليبٍ بالكراميل كانت بارفين قد طلبته لي.

توقّفت عن طي منديل الطاولة وبسطه، ونظرت إليّ محدقةً في بؤبؤَيّ، ثمّ قالت، «سلمى، أراهن على أنّكِ ستتزوّجين جون».

«أخي جلب لي صندوقاً مملوءاً بالبسكويت وحلوى راحة الحلقوم التركية»، قلتُ.

ابتسم بائع الزّهور حين طلبتُ زهور مسك قرمزية ثم اعتذر. حملتُ باقةً من الزهور الإنكليزية الحمراء، وركبت التاكسي إلى محرق جثث الموتى، لأشارك في جنازتها. ماتت فجأة أثناء نومها، حاضنةً الصندوق الفضّي الملآن بالزبدة الفاسدة. توقف الكبد عن العمل. رعشةٌ سَرَتْ حتى أخمص قدمَيّ حالما خرجتُ من السّيارة. كان يوماً «مجيداً»، دافئاً في البقع المشمسة، بارداً في الظلّ.

وصل أقرباؤها بسيّارات سوداء برّاقة، وأصدقاؤها التحقوا بالموكب. ارتدت النسوة جميعهنّ السّواد: فساتين وبزّات سوداء، قبعات سوداء، ونظارات شمسيّة عريضة سوداء. بدا الرجال غير مرتاحين في بزاتهم الزرقاء الغامقة أو الرّمادية. امرأةٌ كانت تقف على المدخل، يداها ترتجفان، طويلة القامة، محنية الظهر، بطقمٍ أسود مؤلف من ثوبٍ وسترة، شعرُها الأشقر معقودٌ بأناقة تحت قبّعتها السوداء، مع شَبَكٍ يغطّي جبهتَها وعينيها الحمراوين المتورّمتين. لا بدّ أنها ناتاشا. كان كرسي والدتها المتحرّك يسدّ المدخل. اقتربتُ منهم وعرّفتُ بنفسي. أخت ليز، الصغيرة الحجم، البدينة والمحمرة بسبب حزنها المكتوم، قالت، «شكراً لعنايتكِ بها».

«لا شكر على واجب»، قلتُ، مترجمةً عن العربية.

حين سُمح لنا بالدّخول إلى الأبرشية الصغيرة، للقيام بطقوس الدّفن، رأيتُ باقة الورود الحمراء في آنية زجاجية، على الطاولة البرّاقة لآلة البيانو. كانت أشعّةُ الشّمس تنيرُ الغرفة، ثم تنعكسُ عبر الآنية الزجاجية، أقواس قزح صغيرة. جلستُ، واتكأتُ على وسادة الدّرابزين الصغيرة، وأبعدتُ الإنجيل عني.

قليل من العيون كانت مكشوفة أما الآخرون فظلّوا يغطّونها بنظّاراتِهم الشّمسية السّوداء، وقبّعاتهم وشَبَكهم. الشفاهُ مطبقة. الدموع مخجلة.

حين ماتت عمّتي، نزعت النسوةُ، المرتديات عباءاتهنّ المدارق السّود، وأوشحتهنّ، وعِصابات رؤوسهنّ، نزعْن أغطيةَ وجوههن، وشرعْن ينحْن ويلطمْن أيّاماً ثلاثة. غسَلْنها في غرفةِ المخزن، بين القمحِ والشّعيرِ، ولففنها بأمتار من الشاش، وضعْنها في تابوت صنع عشوائياً، وحمَلَها الرجالُ على أكتافهم، ومشوا بها على طول الطريق الموصل إلى الجامع. أمي وجدّتي رفضتا البقاء في المنزل، ولحقتا بالموكب، حتى أعلى التلّ. بعضُ النسوة بقين في الخلف، كي يسلخن جلدَ الشاة المذبوحة، ويكسرن قطع اللبن المجفّف المتجمد على جرارٍ فخارية، ويطبخْن اللحمَ، فيما دموعهنّ تنسكب على صفائح الخَبز الساخنة. كان يُسمع الوقع المنتظم للطم الصدور، وتمزيق الملابس، عبر الوادي وفي الجامع. حين عادت أمّي أخيراً إلى المنزل، كانت مغطّاة بالرّماد، وكان ثوبهُا ممزّقاً حتى الخصر، وصدرها معفّراً بالطين وهباب الفحم، ورأسُها مكشوفاً. كانت قد فقدت صوتَها، فأشارت إلى جرّة الماء في الزّاوية. جلبت لها كوباً من الماء. شربَتهُ، ثم

خرجت ثانيةً. في ضوء القمر، كنتُ أرى فقط خطوط جسدها الأسود وهو يتمايلُ حزناً، جيئةً وذهاباً.

ألقى أحد أصدقاء زوج ليز الخطبة، وبطية سترته وردة الخشخاش الأحمر. امتدحَ زوجها، وشجاعته، وحسّ الدعابة لديه، ثم ختم بلكنة البي بي سي، قائلاً: «لقد اتّحدَ تشارلز وليز أخيراً. دعونا نصلي من أجلهما».

«أوبّه وهيّا اتّحدا أخيراً، دعونا نصلي من أجلهما»، قلتُ سرّاً من خلف أنفاسي.

فتاة شقراء ترتدي بزّة بيضاء عزفت مقطوعةً كلاسيكية على البيانو، وهي المفضّلة لدى ليز. كانت تحبّ الموسيقى الكلاسيكية وتقول لي: «موسيقى إلهية. أظنّ أنكِ لا تعرفين الكثير عن موسيقانا». كانت تجلس في المطبخ، وتصغي إلى محطة راديو البي بي سي الثالثة وتحتسي شاي دارجيلنغ من كوبها الخزفي النفيس، وتقلّب في مجلة (منازل وحدائق)، مع أنّه كان لدينا مكان ليس من الممكن أن نسمّيه منزلاً، ومن دون حديقة. كانت تبتسم لي وتقول، مشيرةً إلى غرفة طعامٍ أثرية، باهظة الثمن: «أليست هذه رائعة؟»

«رائعة». كنتُ أحاولُ تقليدَ لكنتها.

في نهاية المقطوعة، كبَسَ القسّيسُ زرّاً، فانزلق التابوت المصنوع من خشب الصّنوبر عبر فتحة في الجدار، وانفتحتْ ستارة إلكترونية، قبل أن تنسدل أخيراً وتُغلق. لا حفر لقبرٍ، ولا إنزال لنعشٍ مصنوع عشوائياً، ولا تلاوة لقرآنٍ. لا شيء، سوى نهنهات وشهيق المشيّعين ذوي الملابس الأنيقة.

كنتُ أفيضُ في أعماقي، فخرجتُ على جناح السّرعة، قبل أن يجفّلَ صراخي البدوي العصافيرَ عن أغصانِها. لحقت بي ناتاشا وقالت: «سالي، شكراً لكِ على كلّ شيء فعلتِهِ من أجلها. نأمل أن نعرضَ البيت للبيع. سوف نأتي ونجمعُ بعض قطع الأثاث قريباً».

«متى تقريباً؟» سألت.

«في غضون بضعة أسابيع». توقّفت عن الكلام، وكانت على وشك المغادرة، والانضمام إلى عائلتها، حين نزعت شَبَكَ قبّعتها، وتردّدت قليلاً قبل أن تقول: «كانت عمّتي تودك كثيراً، يا سالي».

ارتجف ذقني كثيراً، حتى أنّني لم أقوَ على قول شيء. اعتادت ليز التحدّث عن ورود المسك واللّهب والجكرندة والخبيزة في الهند. ظللت عيني ومشيتُ في الحديقة، باحثةً عن شجرة أكاسيا مزهرة، لكنّني أدركتُ أنّني لن أتعرّف عليها، فجلستُ تحت شجرة كستناء، تلك الشّجرة الوحيدة في هذه البلاد التي أستطيعُ تسميتَها. وحيدةً، ومحاطةً بجرارٍ ملأى بأجهزة تنظيم سرعة القلب، وحشوات الأضراس، وخواتم العرس الذهبية، وبقايا ثياب، ورماد، أمسكتُ قلبي بيدي.

*

عبر النافذة المستديرة الصغيرة للطائرة التي تحملني إلى اليونان- والتي ستصبح مرئيّة بعد قليل- رأيتُ الغيومَ الخفيفةَ البيضاء تطفو سعيدةً في سماء ساطعة. كانت أشكالها تتبدّل من أحصنة تعدو، إلى أمواج تتصارع، وينتصر بعضها على بعض، إلى

نوارس تحلّق أبداً فوق النهر. البئر الطويلة العميقة، ماء بارد، بذور تتفتّحُ، جسدٌ يتحرر ويستسلمُ، «ياريت ما شفتك»، «إنّها الحياة، يا ابنتي!»، «يسوع مات لينقذَنا جميعاً»، «أنتِ الآن مسؤولة عن نفسِك، يا سلمى»، بندقيةٌ تترجّح على الكتف، أظفار محشوّة بالقذارة، «كفى، أطلق النارَ عليّ وخلصني!» التقيؤ في صندوق القمامة، الرقص في قاع المدينة، «الكثير من الماضي»، حمائم تنوح، استنشاقُ الفلافل، «من الباب للشباك»، إنه يلاحقني، تزوّجي من صادق، أكل الخبز اليابس، دم نورا ومخاطها يسيلان على ذقنها، عويلٌ يقطّعُ القلبَ.

«هل تريدين شيئاً آخر، مدام»، سألت المضيفة الجويّة.

«لا، شكراً لكِ».

معلّقة بين السّماء والأرض في الطائرة الصّغيرة، وجدت طريقها إلى قلبي. أعرفُ ذاك الهواء. إنّ ليلى تناديني. قشعريرة مفاجئة سرت من الجذور إلى نهاية كلّ شعرة في جسدي، وانهارَ صدري كأنّني أغرقُ. أمسكَ يدي وقال: «يدُكِ مبللةٌ بالعرق. هل أنتِ في خير؟ هل تخافين الطيران؟»

«لا، لا أخاف الطيران»، قلتُ بنبرة دفاعية، وتمسّكتُ بيده.

كانت تعبة وجائعة، وباكية، تبحثُ عن موطئ لقدميها الصغيرتين. كنتُ أقتربُ أكثر من البلاد القديمة. نظرتُ عبر النافذة الدائريّة، ووضعتُ قبلةً وعناقاً داخل زجاجة، ورميتها فوقَ الغيوم. ربّما حملتَها الأمواجُ إلى الضفّة الأخرى. ربّما يلتقطُها صيّاد عربيّ عجوز، بعد أن يجدها مدفونةً في الرّمل وملح البحر، ويأخذها

إليها. سوف تطمئنُها رائحتي المألوفة، وحلمتاي الحنونان، وقفصي الصدريّ الدافئ، وتجعلها تشعرُ بالأمان والحماية. يوماً ما ستتوقّفُ عن البكاء.

كان قميص زوجي مبلّلاً حين قال: «ينبغي أن تدَعيها وشأنها، يا عزيزتي. لا أحدَ يعلم، قد تجتمعان ذات يوم».

كنتُ أحاول أن أتركها وشأنها منذ أن ولدت. ثابرتُ على المحاولة، ثمّ فشلتُ، وحاولتُ مراراً، ففشلتُ بشكل أجمل وأفضل.

ليلى زمرّدةٌ خضراء، فيروزٌ أزرق معشّق بالفضّة، حرير هندي يتهادى كالشّلال، حبّاتُ قهوةٍ طازجة مطحونة في مدقّة مهباش من خشب الصّندل المزخرف، عسل وسمن ملفوفان بخبز طازج محمّص، لؤلؤة في سريرها، خصلةٌ من الشّعر الأسود الناعم الرقيق، أصابع صغيرة مثل عروق أوراق الكرمة الغضة، رمّانةٌ، عطرٌ خالصٌ محفوظ في جرارٍ زرقاء، حبّات من الألماس غير مصقولة، سهلٌ مغطى بالندى في وادٍ أخضر فسيح شاسع، منبسط، بحر مخضر الحوافّ، لازورد سماويّ في المنتصف، نقود جدّتي الذهبيّة العثمانية، مصفوفة في تناسق داخل خيط أسود، قبّعة زفاف والدتي المزينة بنقود فضّية، قمر مكتمل مختبئ خلف الغيوم الشفّافة، صهوات خيول بيضاء أصيلة، بياض عينَيّ الواضحُ، ذراعي اليُمنى، الدمُ الذي يضخّهُ قلبيَ الكليم.

*

كانت ليلى تقفُ خلف الغيوم الشفّافة البيضاء، مهرة أصيلة. جسدها المشدود الأسمر، قهوةٌ مع الهال، عيناها عسليتان، فمُ حمدان حبّات رمانٍ يانعة، شعرها منسدل يتهادى على كتفيها. ابتسمت، لؤلؤةٌ في سريرها الصغير، مشَتْ تتهادى بين عرائش العنب، تتلألأ بين الأوراق الغضّة الناعمة، عمودٌ من غبار الألماس. أطرافي مقطّعةٌ إرباً إرباً. غصنُ شجرة التّين المُثقل كان خاوياً، فجأةً تهاوى وانهار. مبتورة، مطرودة، مملوءة بألم الماضي والمستقبلِ السرابيّ، انحنيتُ والتقطتُ ذراعي، ولوّحتُ بها للغبار السّابح أبداً في أشعّةِ الشّمس.

كانت تلكَ اللّيلة حارّة جداً حتّى إنني رحت أتقلّب تحت ناموسيّة البرغش البيضاء، بلا انقطاع. احتسيتُ الشراب البارد الذي كانت قد تركته لي مربيتي على طاولة السّرير. كان والدي قد خرج في رحلة صيد، مع بعض أصدقائه الهنود. الكلب، ريكس، نبحَ ونبحَ في وجهِ الظلام. نهضتُ لأتنشّق الهواء وأنظر عبر النافذة. كانت شجرة التمر الهندي المكتظّة بالثمار تتلألأ في ضوء القمر، ورائحة المانغا الناضجة تملأ الهواء.

قال جون: «كفّي عن تعذيبي»، وقبّلَني.

«آيْ!» قلتُ.

حافيةَ القدمين، أرتدي فستانَ نومي الخفيف القطني ذهبتُ إلى المطبخ باحثةً عن قطع الثلج. البارحة، اشترينا لوحاً ضخماً من الولد الذي يبيعُ الثلج، وكنتُ آمل أن أجد بعض القطع المتبقية.

حاجبةَ حمدان، ومسلسل حبّنا المتواصل، بعيداً عن عالمي، كنتُ أستقبلُ قُبلات زوجي الناعمة. يمرّرُ أصابعه عليّ بلطفٍ كأنّني قابلة للكسر. «كالعقيق» قال.

جلسَ هيتّا على شرفةِ المطبخ، ينظرُ إلى الظلام، حين رآني ابتسمَ. وقفتُ هناك، فتاة في السابعة عشرة من عمرها، بيضاء، عذراء، لم يلمسني أحد، أطفحُ بالشّهوة.

كانت الشّمسُ تتسلّل عبر أوراقِ شجرة اللوز. أسمعُ نباحَ كلاب الرّعاة، وطنين النحل.

«أريدُ بعض قطع الثلج»، قلت لهيتّا.

«لم يتبقّ لديّ ثلج، أوبّه، لكنني أعددت حلوى الكُلْفي. هل تريدين بعضاً منها؟» قال ومرّر أصابعَه الجميلة على الخشب غير المستوي لطاولة المطبخ.

«سكن الليل»، قلتُ.

«ليلةٌ مثالية لهبوبِ عاصفة»، قال هيتّا وهو يغرفُ بعضاً من الآيس كريم مع الفستق الأخضر الطازج وحبّات الهال.

كنتُ أريدُ أن يطغى عليّ، ويقتُلني، لكنّ جون عامَلَ بالتساوي كلّ جزءٍ من أجزاء جسدي. أبحرَ وتفحّصَ وبحثَ ونقّبَ وداعب. عضضتُ، وخمشتُ، وعصرتُ، وصرختُ، حتى قال: «أنتِ تؤذيننا». لو كان حمدان لقالَ: «أشدّ، أقسى، أقرب».

أكلنا معاً حلوى كُلْفي ونحن نستمع إلى الرّعد. صدره العريض، مثل سكّر أسمر، يضيء كلّما لمع البرقُ في المطبخ. وقفَ، وعبَرَ البحرَ الذي يفصل بيننا، وأمسك رأسي بقوة بين

يديه، وقبّلني بعنف على شفتَيّ، حتّى إنني ذقتُ طعمَ دمه اللاذع.

بين ذراعيه كنتُ أطلبُ النسيان ومحو الذاكرة، ولون البذور الجديدة.

أصبح هو السّيد، وأصبحتُ أنا فتاته العبدة، ألبّي كلّ رغباته. كان يهمسُ أوامرَه همساً، وأنا، السيّدة الإنكليزية، أطيعُ.

ذاب جلدي وجلده، كاشفين عن شرايين تخفقُ، وقلب ينبضُ، وأحشاءٍ ترتعشُ.

«لا أستطيعُ أن أشبعَ منكِ»، قال جون.

وإذ نمشي على الشّاطئ، يداً بيد، تحسبيننا زوجين عاديين. لم يكن ثمّة من شيء غير مألوف حولنا سوى بشرتي السمراء. جلستُ فوق جرف في سانتوريني، يطلّ على البحر الفيروزي الأزرق، وراقبتُ صبياً يونانياً، في قارب قديم أبيض، يصطاد السّمك. يرفعُ الصّنارة، ثم يرمي الخيطَ في البحر. جون يقرأ كتاباً سميكاً عن الميثولوجيا اليونانية. أما أنا فأكتفي بالجلوس ساكنةً. لم أكن أتنشّق الهواء أو أبحث عن غيوم أو بنادق. أكتفي بالجلوس ساكنةً هناك. الصبي يضعُ طعماً جديداً في الصنّارة، ويرمي الخيط في المياه المتموّجة. الجروف البيضاء، مع الرمل الناعم النظيف، تكوّن إطاراً للبحر الهادئ، الأخضر والأزرق، تاركةً الشّاطئ المقابل خارج الصّورة. أخيراً رأيتُ سمكةً تترنّحُ وتتلوّى في الهواء. قفَزَ الصبي فرحاً، وحرّر السمكَةَ، ثم رماها في سلّة ضخمةٍ مصنوعة من الشّبك.

«لا بأس إذا نزلتُ في الماء لأسبح».

«نعم»، قال جون بطريقة آلية.

«لن يظنّوا أني امرأة سائبة»، قلتُ.

«لا. ولماذا سيفكّرون هكذا؟» قال.

«أريدُ أن أتعلّمَ كيف أسبح»، قلتُ للشّاطئ المقابل ولمدينة الحمى.

«يمكن أن تسجلي في دورة لتعليم السباحة حين نعود»، قال وهو يتابع القراءة.

أخذتُ الكتاب من يد جون وأغلقته. بدت أصابعُ قدميه النحيلة مضحكةً داخل صندله الجلدي، البني، الكبير. داعبتُ شعره الخفيف، وقبّلتُ عينيه التعبتين.

«سلمى!» ابتسم.

من شفتيه خرجَ اسمي صحيحاً. كنتُ قد علّمتُهُ كيف يلفُظُه، وأية حروفٍ يشدّد، وأيّها يتركُها وشأنَها.

لم يستحسن ماكس زواجي من ابن الشّمال. «هناك في الشّمال، يظنّون أنّ الفرنسيين من فصيلة القرود»، قال، وضرب على ركبته، متكلّفاً الضحك. «عذّبوا القرد المسكين حتى أجبروه على الاعتراف بأنّه جاسوس فرنسي». دفع ماكس كرسيّه وانفجرَ بالضّحك. حين توقّف أخيراً، قال: «لا ألومهم على كرههم الفرنسيين تلك الضفادع الملعونة».

حنيتُ رأسي، وتابعتُ تحريك الآلة على حاشية الثوب.

«إنّ أهل الشمال أيضاً بخلاء. يريدون أن يكسبوا الباوندات منا نحن الجنوبيين»، قال، ومرّر يدَهُ فوق رأسِه المبلّل بمثبت الجِل ليتأكّد بأنّ الضّحك لم يؤثر في تسريحته.

كان الطقسُ حارّاً في ذلك النهار، وتمنيت وجود مروحة أو نظام تكييف هوائي، لكن ماكس أصرّ على أنّ خمسة أيام من ضوء الشمس لا تبرّر تلك النفقات. كان عرقي يسيلُ بين نهدَيّ الممتلئين نحو بطني المتورّم. مسحتُ جبهتي بمنديل ورقي، ورحتُ أستمعُ إلى طبيب يتحدّث في إذاعة راديو البي بي سي الثانية عن شخص يجدُ صعوبةً في الانتصاب.

أصاخ ماكس السّمع.

تظاهرتُ أنّني لا أستمعُ إليه.

«ما الذي يتحدّثُ عنه؟ إننا في الجنوب ذكور أقوياء». وتكلّف الضحكَ ثانيةً.

فركتُ بطني حيث كان الجنين قد رفسني، ورميتُ البنطلون الرقم عشرين إلى تريسي كي تكويه.

غمزتْني.

ابتسمتُ.

«أنا متزوّجة من رجل إسكتلندي»، قالت.

«أهل الشّمال فظيعون، أليس كذلك؟» قلتُ.

ضحكنا معاً.

الدكتور قال إنّ السائل المنوي في إنكلترا ضعيف جداً ولا يستطيع أن يتسلّق حتى يصل إلى البيضة.

«ماذا لو أنّ عدد الحويْنات على ما يُرام، ولكن «الكذا» لا يستطيع «كذا»؟» سأل ماكس الرّاديو القديم على حافّة النافذة.

كتمتُ ضحكتي.

«لم أرفعكِ لكي تضحكي عليّ»، قال، ورمى البنطلونات التي كان يعدّلها، وبدأ يلتهمُ سندويش السّردين.

برغم أنّني كنتُ في غرفة نومِها، مرّات عديدة، ما زلت أشعر بأنني متعدية على فضاء ليز. إنّها في حالة فوضى تامّة، أغطية مقلوبة، وثياب قذرة، مبعثرة على الأرض، وبعض الحساء العفن في إناء، مع بقع سود على السجّادة البيج، حيث انسكب النبيذ. كانت تفوحُ منها رائحةُ الغبار، وصابون الخزامى، ومنظّف طقم الأسنان، والرطوبة.

وضعتُ جانباً صرّة الرّسائل المربوطة بحلقة مطاطية، والصندوق الفضّي المليء بالزبدة العفنة، ودفتر مذكّراتها في صندوق الساتان القرمزي، وأغلقتُهُ وخبّأتُهُ في خزانة الملابس تحت كنزاتي الشتوية.

ما إن فتحتُ السّتائر، حتّى انبعثت غيومُ الغبار من تلافيف المخمل والأنسجة المخرمة، وسبحتْ في شعاعِ الشّمس، ثمّ رسَتْ أرضاً. نزعتُ الشراشف وأغطية الوسائد واللحاف، ونزعتُ السّتائر التي اصفرت بمرور الزّمن، ووضعتها عند المدخل. نظفت جانبَي الفراش، والإطار المعدني الدقيق الصنع للسرير عند الرأس والقدمين بالمكنسة الكهربائية ثم مسحتُهُ بمادّة برّاقة. المكنسة

الكهربائية سحبت الأعشاش العنكبوتية من زوايا السّقف، والغبار عن خزانة الثياب العتيقة، التي كانت تتصدّر قائمة ناتاشا لقطع الأثاث التي يجب أن تبقى في حوزة العائلة، وكسرات الطعام العفنة تحت طاولة السّرير، وشبكة ليز من الشّعر القصير الأشيب على السجّادة قرب خزانة الأدراج، حيث اعتادت وضع ماكياجها والتمشيط، والنظر إلى صورتها في مرآة حلاقة والدها المصنوعة من خشب شجر الكستناء والتي يمكن قلبها وتعديلها. فركت السجّاد بالشامبو، ولمّعتُ الأثاث، ونظّفتُ زجاج النوافذ وأُطرها والباب، ونفضتُ ورق جدران ويليام موريس، وعلّقتُ الستائر الجديدة.

حين استلقيتُ أخيراً بالقرب من جون، تحت اللّحاف المغطّى بقطنِ النيل، وهو هدية عرس من صادق، أطلّ نصفُ قمرٍ يشبهُ شريحةً من ليمون، متلألئاً عبر النافذة، واعداً بأن يصبح بدراً تماماً عمّا قريب. نمتُ نوماً عميقاً كأنّ سرير ليز، الذي ورثته عن جدّها، الذي ورثه عن جدّته، فراش يدوي الصنع، محشو بصوف الغنم، المنجّد بممشط بدوي، ومغطّى بسجاجيد ملوّنة من الصوف المحلوج، الذي حبكته نسوةُ الحمى في الغسق.

في المرّة الأخيرة، التي كنتُ فيها حاملاً، كان ذلك خارج عشّ الزوجية، وهذه المرّة أنا حامل من أجنبي. وضعتُ يدي على علامات امتداد بشرة بطني أنتظرُ رفسةً من قدميه الصغيرتين. في السّجن، كنتُ أستلقي على ظهري في الفراش، يحدوني الأملُ أن بطني المنتفخ سيختفي، ويذوب الحمَلُ مثل سكر في شاي

النعناع. حين كان العارُ يرخي بثقله على صدري، كنتُ أحلم بزلزال شبيه بذاك الذي وصفته لي جدّتي. «بدأت الأرضُ تتشقّق، وتنفلق. في البدءِ كان عطشاً ثم صار جائعاً. وبدأ يأكلُ الأخضرَ واليابسَ. كأنّ الله الجبّار ضرب الأرض بقوته، شاقّاً الأديمَ، وما تبقّى منه البحر الميت والبحر الأحمر»، قالت. هكذا حلمتُ بأنّني أغرقُ في البحر الميت، أو أختفي في أديم شديد الانحدار. سيبتلعني عندئذٍ الشق ويلتحم. ولكن ذات صباحٍ، تمدّدتْ بشرة بطني، وشعرتُ برفسة في رحمي. بدأتُ آكلُ بعد ذلك، لأنّ الجنين لا ذنب له، وأنا الوحيدة التي تستحقّ الموت. تخيّلتُها تسبحُ عمياء في المياه المظلمة لرحمي، وفجأةً اكتسحت قلبي. كيف يمكن أن أموتَ أنا من دون قتل الطفل الذي في داخلي؟ ولكن كيف يمكن أن أتحمّل العيش تحت وطأة هذا العار؟

حين فحصوا بطني أخبروني أنّه صبيّ، وأن صحّته جيّدة. ربما نسمّيه عمران، الاسم الذي يدلّ على مدن وحضارة متناغمة. «عمران»، همستُ. «أيّها الضوءُ في عينَيّ أمّك، والهواءُ الذي تتنفّسه، وقلبها الذي يخفقُ، ويضخّ حبّاً وألماً، اهبط بسلام على سجّادةٍ من حرير، في جرّة ملأى بالعسل، في حديقةٍ مكسوة بزهورِ ياسمين بيضاء معطّرة. تعال إلى هذا العالم سالماً معافىً، لأنّ أباكَ الإنكليزي وأمّكَ العربية البدوية، ينتظران رؤية وجهكَ القمرَ».

في نهار ذاك الأحد، كان شارعُ كينغ إدوارد مكتظاً بالسّيارات

التي تُغسَل، والملابس المعلّقة على حبال الغسيل، والأطفال الذين يلعبون الفريزبي، ويقودون درّاجاتهم الهوائية، في قارعة الشارع. في الأسبوع الماضي، قُبل عرضنا لشراء رقم الخامس عشر. نزعتُ المسمارين الصدئين، وحرّرتُ لوحة «قصر البجع»، ولوّحتُ بها لصادق. رفع سبابته وإصبعه الوسطى راسماً إشارة النصر، ثم سرعان ما أسبل يديه وحنى رأسَه. لا بدّ أنّه حزين لأنّ ليز لم تكن صديقته فقط، بل أفضل زبائنه. بدا مثل شبحٍ يؤشر في سرواله وقميصه الباكستاني الأبيض، خلف الواجهة الزجاجية المغبرة لمتجره.

«سأشتري ستائرَ، ليست من هنا ولا من هناك»، قلتُ.

حرّكت بارفين رموشها وقالت: «لا أعرف ما الذي تقصدينه؟!»

كان جون ومارك يتدبّران أمر خزانة ملابس أثرية من خشب الورد، أسفل الدرج. بارفين قالت إن مارك يرغب في المساعدة، وأنّ يده المبتورة لم تمنعه من متابعة حياته بشكل عادي. يمكنه حمل الأشياء على نحو أفضل، مستخدماً سيخَه المعدني المعقوف.

كانت تحتسي شاي الأعشاب على مهل. حين أصبحت حاملاً، توقّفت عن شرب القهوة والشاي. كان عمران يمصّ إبهامه، ويناغي داخل حمّالة الأطفال، حين رنّ جرس الباب. إنّها غوين، محمرّة الوجه، ومقطوعة الأنفاس، تحمل حقيبة صغيرة بيدها.

«هل أنتِ في خير؟ أنتِ لستِ ذاهبة إلى المستشفى، أليس كذلك؟» سألتُ وأنا أقبّلُ وجنتيها.

«لا، لا، مفصل الورك على ما يرام»، قالت، ووضعت الحقيبة الصغيرة على طاولة المطبخ، وجلست على أحد الكراسي، ومسحت جبهتَها، وتنهّدت. كنا نسمعُ أنين مارك وجون وهما يحملان بصعوبة خزانة الملابس. «لديكما رجلان قويّان هناك»، قالت غوين وضحكت.

«ممنوع اللّمس!» قالت بارفين غامزةً. كانت قد انتهت من أكل شريحة كعكة الفواكه التي قدّمتها إليها. بأصابعها الناعمة راحت تطارد فضلات الكعكة على منديل الطاولة، وتضعها في فمها.

مرّرتُ يدي على رأس عمران، وشعره الأسود الناعم، وأحصيتُ أصابعَ يديه وقدميه، وعينيه، ووضعتُ يدي بحنوٍ على التجويف الرّخو لجمجمته.

ملأتُ الغلاّيةَ بالماء السّاخن، وقلتُ بصوتٍ عال: «هل يريدُ أحدٌ أن يشرب القهوة؟»

«نعم من فضلكِ»، قال جون ومارك وغوين.

قهوة غوين تماماً كما تحبّها، ثقيلة، مع قليل من الكريم، وملعقة من السكّر الأسمر.

كانت شمس الشّتاء واهنة، لكنها استطاعت أن تنير جزءاً من الممر والردهة. عبثت غوين بمفاتيح حقيبتها، وضغطت عليها، ثم رفعت أعلى الحقيبة الجلدية، البنية اللّون.

كانت الحقيبة العتيقة المغبرة ملأى بملابس الأطفال: بعضها أبيض مطرز بخيوط ذهبية أرجوانية، قسم منها بلون الزهر، وقسم آخر بلون اللّيلك، مع بطّ وخيولٍ، ودببة تركض أو تطير على الياقات، وسراويل قصيرة مخرّمة الأطراف، مع كنزات قطنية ضيقة، وسترتين من الصوف، زرقاء وبيضاء، واحدة زرقاء بعروة على الطرف وشريط ساتان، والأخرى بيضاء منسوجة بزهور الياسمين على الأطراف، مع قبّعة لائقة، وطقم ملابس مرصّع بالورد وياقته مطرزة على شكل قرص الشهد، جوارب ذات أطراف مخرمة، وبوط صغير على شكل دبّ، وصدريات مطرزة بصور مهرّجين وجنيّات.

«اشتريتُ بعضها، وخطتُ بعضها الآخر لليلى. لكن لا بد أنها الآن في السادسة عشرة، فتاة ناضجة، وربّما هي مخطوبة، وتنتظر الزواج»، قالت، وعضّت لسانها.

الثوب الأبيض الذي خاطته لليلى، بذيله المتعرّج الذي يشبه المتاهة، والياقة الوردية، والجيوب التي تشبه زهرات صغيرة، والكمّين المنفوخين الصغيرين، كان في حقيبة الملابس، في أعلى الخزانة مع بطاقة العودة على متن القطار، التي أعطاني إياها القسّ ماهوني، ورسالة أمّي، وخصلة الشّعر، وأمشاط نورا الصدفية، وقارورة العطر، ومجلّد القرآن، وقلادة فرانسوا الفضّية، الفيروزية، مع أحمر الشفاه، من ماركة ماري كوانت، من مدام لمعة، وعباءة مدرقة سوداء. أمضيتُ ساعاتٍ أحاول أن أتخيّل كيف تكون عليه زنبقة الماء في ليل ساطع بهيج، ليلى. حاولتُ أن أخيطَ الثوب على شكل زنبقة ماء. هزّت غوين الخشخيشة

البلاستيكية الحمراء والصفراء التي على شكل فرخ البطّ، وقالت: «هذه كانت لابني العاق. احتفظتُ بها طوال هذه السنين»، خرجتُ إلى الممر، أعضّ شفتَيّ، وأتظاهرُ بالبحث عن مارك وجون. الكثير من الفساتين والكنزات والملابس الداخلية لها، ولكن أين هي ليلى؟ ما هو شكلها؟ أحيّة ترزق هي أم ميتة؟

خزانة الخشب الوردية، وخزانة عرض النفائس المصنوعة من خشب الصنوبر، وصدران من الأدراج المصنوعة من خشب الماهوغني، وطاولتان جانبيتان أثريّتان، ومرآة هندية، وخزانتان توضعان جانب السّرير، وصندوق للسفر مقبب وأدكن يحتوي على ملابس إليزابيث وأمتعتها الشخصية، جميعها اصطفّت على الرصيف، في انتظار أن يأتي صديق ناتاشا وينقلها.

عدتُ إلى المطبخ ونظرتُ إلى ملابس الأطفال التي تغطّي طاولةَ المطبخ، وضحكت. انضمّت إليّ غوين وبارفين.

«إنّ غوين مجنونة»، قالت بارفين.

غوين التي كانت تمسكُ بيد عمران، بدأت تحرّك عينيها وتغمغمُ.

«سلام، جدّو»، قلتُ للرّجل العجوز خلف عربة الكباب، عند الشّارع الرئيس. كان جون يحمل عمران، الذي بدا رائعاً في سترته الزرقاء وقبّعته الملائمة، التي نسجتها غوين لليلى، وبدا مثل ملكٍ على رأسه إكليل ياسمين.

«أهلاً وسهلاً يا ابنتي»، قال.

«هل تتذكّرني؟ أنا المرأة التي تعوّدتْ أن تجلسَ خلف عربتك، لتستنشق الهواء ورائحة الفلافل»، قلتُ.

«نعم، نعم. كنّا نظنّكِ متسكّعة أو عميلة سرّية»، قال وابتسم.

كان طويلاً، نحيلاً، بعينين واسعتين تزدادان بياضاً مع التقدّم في السّن. شعر ذقنه أشيب، وشعره الخفيف مغطىً بقلنسوة بيضاء من النسيج المحبوك، وبنطلونه العريض المطرز ضيقٌ عند الكاحلين، وخفّهُ بنيٌّ مدبّب، مع قميص مزخرف من شمال إفريقيا.

«هذا زوجي جون، وابني عمران»، قلتُ.

«أهلاً وسهلاً. والله يجب أن تأكلي بعض الفلافل»، قال.

أخذ زوجي الشمالي الفلافل، وقال «شكراً».

«لا شكر على واجب»، أجاب.

وبعد أن ربّت كتف شاب أسمر يرتدي جينزاً أزرق وقميصاً أسود تي شيرت، مع عبارة «لا ألمَ، لا ربح» مطبوعة بأحرف حمراء كبيرة على صدره، وشعره الأسود ينتصب إلى الأعلى بفضل مثبت الجِل، وعيناه كبيرتان مختفيتان خلف رموشه السوداء المعقوفة، وحاجباه منتوفان، ووجهه ناعم، يبرقُ في ضوء العربة الخافت، وشفتاه الحمراوان المكتنزتان المشققتان تباعدُ بينهما ابتسامة، قال: «أقدم لكم ابني رشيد، مائل الى الأنوثة قليلاً، مثل الإنكليز، لكنه ابن جيد».

«مرحبا. هذا ما أستطيع قوله بالعربية. لا أستطيعُ أن أتحدّث بالعربية جيّداً»، قال وابتسم.

تصافحنا، وتحادثنا وأكلنا على الرّصيف قرب عربة الكباب.

لو أنّكِ لا تعرفيننا لظننت أننا عائلة عادية خرجت تستمتع بنهارها، وبشمس شتوية قصيرة. كان ينبغي أن أكون سعيدة، لكنّ أمراً ما كان يشدّ قلبي إلى الوراء. أتخيّلكِ، يا نورا، تحلّقين فوق رؤوسنا، سمراء شامخة، بحاجبين مقوّسين، وعينين مغريتين، وشفتين قرمزيّتين مكتنزتين، وأسنانك تبدو مثل حبات اللؤلؤ وأنتِ تمضغين العلكة، وتشكّلين منها فقاعاتٍ وردية، وربما ورامي الذي شفي من مرض السكّر، يمسك بيدكِ. تنظرين إلى سقف عربة الكباب المربّع، وإلى البقع الدائرية السوداء لرؤوسنا، وإلى عمران الذي يخطو خطوته الأولى باتجاه والده، ويبدو مثل زهرة زرقاء ذات أهداب، وإلى السّيارات التي تعبر خلف العربة، وإلى وجهي الباحث دائماً عن نوركِ وعن عدم احترامك للعادات البالية وعن ضحكتك، تلك الضحكة الأزلية القوية المجلجلة، التي تهتزّ داخل قفصِك الصدري.

السوسن الأسود

كان الليل مدلهمّاً، بلا قمر، فلم أستطع الذهاب إلى النوم. كلّما أغمضتُ عيني سمعت تنفساً كالصفيربعيداً، وعالياً، كأنّه يأتي من قاع بئر سحيقة. ركضتُ في الظلام، عبر طريق المشاة، باتجاه الهضبة، إلى البئر الطويلة، في المزرعة. ثم وقفتُ ساكنةً، ألهثُ، وأشمّ الهواءَ، وأصغي إلى حفيف الأوراق، وأترقّب حركة ما. صرخاتٌ متعاقبةٌ تأتي من الجهة الأخرى للمزرعة. أقتفي أثر رائحة حليب حامض وأطراف نتنة. الرّائحة هي التي قادتني إليها. كانت ليلى تتأرجحُ عاريةً من شجرة تين، يداها وساقاها مقيّدة معاً بطريقة بذيئة، ومربوطة بالجذع، ورقبتها مذبوحة، ووجهها مشطّب، وأعضاؤها الخاصة متعفّنة. غيمة سوداء من الذباب تحوم بجنون فوقها. إنّها تحترق. استيقظتُ مبلّلةً بالعرق، عثةً لا حول لها ولا قوة.

«سيقتلونكِ»، قالت بارفين.

أمسكتُ وجهها وقلتُ: «يجب أن أذهب. أبحث عنها. إنّها تناديني. إنّها تحتاجُ إلى مساعدتي».

«لم أتحدّث مع أسرتي منذ أن غادرت. لا يعرفون شيئاً عنّي.

هل تظنين أن قلبي مصنوع من صوّان؟ أشتاق إليهم كثيراً»، قالت، ونفخت على غرّتها المستقيمة. كانت منزعجة.

«إنّها ابنتي، يا بارفين»، قلتُ، ورفعتُ شعري عن وجهي.

«هذا ضرب من الجنون. ماذا دهاكِ؟ منذ أن أنجبتِ، بدأت حالتكِ تتدهور. لا تأكلين وتبكين طوال الوقت. بل تبدين مثل متسكّعة. هل عدتِ لتري رجالاً يحملون بنادق؟»

«أنا مكتئبة. أحلم بليلى كل ليلة تقريباً. لا بدّ أن مكروهاً قد حدث لها. إن قلب الأم دليلها»، قلتُ.

«لا أعرف ماذا أقول»، قالت غوين. «إذا كانت سلمى تشعر بأنها يجب أن تذهب، فلن نستطيع منعها».

«لن أسمح لكِ، يا سلمى. ماذا عن ابننا؟ وماذا عنّي أنا؟» قال جون والغصّة في حلقه.

«يمكن أن نخبر البوليس. يمكن الأنتربول أن يتّصل بصديقتك، ويبحث عنها»، قال مارك.

«أنا مواطنة بريطانية الآن، وسيحميني البريطانيون»، قلتُ.

«أوه، نعم! انظري إلى لون بشرتك السوداء. أنتِ مواطنة من الدرجة الثانية. لن يحميك أحد»، قالت بارفين.

«لا أحد سيعرفني الآن. خاصةً إذا قصصتُ شعري وصبغته».

«سيتعرّفون على رائحتكِ. كثير من الفتيات الآسيويّات قُتلن بعد رجوعهنّ»، قالت بارفين.

«إنّها لا تتوقّف عن البكاء. شهقاتها في بالي»، قلتُ.

نهضت بارفين بصعوبة، وضمّتني، «رجاءً، رجاءً، لا تذهبي!»

«ألا ترين؟» صرختُ. «لا أملكُ اسم أحد. بل لا أعرف اسم عائلتَي نورا ومدام لمعة. يجب أن أذهب. ابنتي في خطر».

«وماذا عن ابنكِ؟» قالت غوين.

«لا خوف على الأبناء فإنهم يتلقون معاملة أفضل. يستطيعون الاعتناء بأنفسهم. البنات عاجزات»، قلتُ.

«أنتِ مخطئة. إنّه يحتاج إليك». قالت.

«إن لديه أباً صالحاً. سيعتني به إذا حدث لي أي مكروه».

أخفى جون وجهه المبلل بالدموع، وخرج من المطبخ، ضامّاً عمران إلى صدره، تماماً مثلما تعوّد والدي أن يفعل.

رأيتُ الحلم نفسه ثانية، ولكن هذه المرّة، كانت صرخات ليلى المخنوقة تتضاعف. كان قلبي يعرف أنني يجب أن أذهب، وأجدها، قبل فوات الأوان. أخذتُ من خزانة الملابس الصندوق الصّيني الحريري الأحمر، الذي كانت قد أهدته بارفين إليّ في عيد ميلادي، وفتحْتُهُ وبدأتُ أنسّقُ محتوياته: بطاقة عودة في القطار إلى برانسكوم، وقد صار لونها أصفر على الحوافّ، ورسالة أمّي، وخصلة من شعر ليلى، وأمشاط نورا الصدفية، وقارورة العطر، وقلم أحمر الشفاه من ماركة ماري كوانت من مدام لمعة، وقلادة فرانسوا الفضّية، الفيروزية اللّون. حين سحبتُ خصلة الشعر من الجيب الجلدية التي صنعتها خصوصاً لها، ورسالة أمّي، سرى تيار كهربائي عبر أصابع يدي اليمنى، وذراعي، وكتفي، ثم ظاهر رقبتي. الشعيرات الصغيرة لرقبتي انتصبت، وانتفضت جلدة رأسي.

أعدتُ كلّ شيء إلى الصندوق الصغير، وأحكمتُ إغلاقه، وربطتُ العقدة حول الزرّ المنسوج من الحرير المفتول والمخيط معاً.

بدأتُ أكتبُ رسالةً في عقلي: إلى من يهمّه الأمر: اسمي سلمى ابراهيم الموسى. سبق أن دخلتُ سجن الإصلاح. خلال السنة الأولى أنجبتُ فتاةً أخذوها على الفور إلى دار للأطفال غير الشرعيين. أسأل نفسي هل بإمكانكم مساعدتي على العثور عليها. عنواني البريدي هو . . .ثم أمزّقُ الرسالة المتخيّلة. كيف يمكن أن أكشف عن هويّتي الحقيقية وعنواني؟ إني أخاطر في أن يُكتشف أمري وأُقتَل. كيف يمكن أن أتجاهل صرخات ليلى، ونداءاتها، وتوسّلاتها المستمرّة؟ وقفتُ في المطبخ، امرأة برقبة ملتوية، تنظر في اتجاهين: الأمام والخلف. الشّاي الذي أعددته في الرّابعة صباحاً، بات فاتراً، بلا طعم. أرض المنزل باردة جداً تحت قدمَيّ الحافيتين. الهضاب، التي كانت مكسوة بعشب أخضر، ونباتات وشجيرات صغيرة، مُحيت فجأةً من الوجود- في لمح البصر- وتحوّلت إلى جبال بنّية جافّة، مزروعة بحقول الزّيتون الخضراء الفضّية، وأشجار الخوخ واللوز والتين، وعرائش العنب. أيّهما أفضل: أن أعيش بنصف رئة، كلية، كبد، قلب، أم أذهب إلى البلاد القديمة، وأغامر بحياتي؟ إذا بدأ ابني النائم في سريره بالبكاء، فسأصعد الدرج، من دون تفكير، وأضمّه إلى وريديَ الوداجيّ حتى يشعر بالأمان، ويتوقّف عن البكاء. لا بدّ أن الأمور قد تغيّرت في البلاد القديمة بمرور السنوات، فالناس تغيّروا، وأنا تغيّرت. قد لا أتعرّض للقتل إذا تعرّفوا عليّ. قصصتُ شعري،

وسرّحته، وصبغته فبات أشقر، واشتريت للشفاه قلماً أحمر قرمزياً. إذا ارتديتُ بلوزةً قصيرة، من دون كمّين، وتنورة قصيرة، ونظّارات شمسيّة، فلن يظنّ أحدٌ منهم أنني أنتمي إلى قبيلتهم، ولن يروا سوى امرأة أجنبية وقحة، تعرض جسدَها وكنوزَها بدون مقابل. لماذا تعطي عائلتها عشرينَ جملاً إذا كان بإمكانكَ الحصول عليها بالمجّان؟ حين نظرتُ أخيراً إلى الأعلى، كانت التلالُ مغطّاةً بسوسن الحمى الأسود، وهي تتمايل في الرّيح متناغمةً، وتهمسُ باسمِها. صوتٌ خافتٌ تردّد صداه في رأسي، «ماما؟ ماما؟» ثم توقّفَ فجأةً. غطّيتُ وجهي بكلتا يدَيّ، وضغطتُ بقوّة على جبهتي، تماماً فوق حاجبيّ وعينَيّ. كم هو غالٍ ضوءُ عينيكِ؟ كم هي غاليةٌ ابنتكِ؟ ينبغي أن لا أذهب، لن أذهب، لن أذهب البتّة.

بلغ عمرانُ الشهر التاسع من العمر، وحان وقتُ فطامِه. لففتُ حلمتي بالقطن، وعرضتُها عليه. لكنّه بصقَها وبدأ يبكي. رفعتُ الزجاجة المملوءة بالبابونج واليانسون ووضعتُ الحلمةَ البلاستيكيةَ في فمه. بصقَها، وسكبَ الشّاي على رقبتِهِ الريّانة، وبدأ يبكي ثانيةً. صدريتُه الناعمة مطبوعٌ عليها: «أحبّ كلّ من يطعمني». مسحتُ دموعَه بها وسحبتُه من سريرِه. حين ضممتُه، توقّفَ عن البكاء، ولكن حين قبّلتُ شعرَه الأسود، بدأ يبكي ثانيةً. ولكن هذه المرّة، كان بكاءً يقطع القلب، كأنّه فقَدَ توّاً أحد أطرافه.

كانت مدّةُ الفطام ثلاثة أيام من البكاء المتقطّع، وليالي السّهر، وسيلان اللّعاب، وأنا أحاولُ أن أطعمَه بملعقة، وأقدّم إليه السكّر كرشوة، وأحمله وأدور به في أرجاءِ المنزل، حتى يخلدَ

إلى النّوم في نهاية المطاف. أمّي لم تفطمْ أخي محمود حتى بلغَ الثلاث سنوات، وكانت ساقاه طويلتين تتدليان، وتكادان تلمسان الأرض. كان يذهبُ ويلعبُ مع الكلب، ثم يعودُ أدراجَه ويقولُ لها: «أعطني حلمتكِ!».

لكنّني كان يجب عليّ أن أتوقّف عن إرضاعِ عمران، وتعليمه كيف يأكلُ طعاماً طبيعياً. وكان عليّ أن أذهب وأبحثَ عن ليلى. بدأتُ أرى وجهَها المتورّمَ في كلّ مكان، على زجاج النوافذ، في آنية فطوري، تسبحُ مع الحليب، في الماء الدائر باتجاه بالوعة مغسلة المطبخ، وفي كلّ المرايا. وبدأتُ أسمعُ صرخاتها المخنوقة كلّما هبّ نسيمٌ ولامسَ وجهي.

ذات صباح باكر، أمسكتُ حوض المغسلة، ونظرتُ إلى عينَيّ الحمراوين في المرآة. لقد اعتاد عمرانُ أخيراً تناولَ الطعام بالملعقة، وقبولَ كلّ ما كنتُ أخلُطُه له، والشرب من الكوب. كان يغطّ في نومٍ عميق بالقرب من والده. كنتُ الوحيدة التي لا تأكلُ ولا تنام. بلْ بدأتُ أكلّمُ نفسي، «آه، كم أحبّكَ يا عمران! آه، كم أحبّكِ يا ليلى! سيكونُ على ما يُرام. سأطهو له طعاماً يكفيه شهراً، وأضعه في الثلاجة، وعاء يحمل علامة واضحة لكلّ يوم أغيبُ فيه»، قلتُ لصورتي في المرآة. «ضمّه قدر ما تستطيع، ولاَ تتركه في الحضانة، أكثر من ثلاث ساعات. أمسك يدَه حين يمشي نحوك، لأنّ قدميه لا تزالان هشّتين. احمِ رأسَه بيديك وضمّه قريباً من صدرِكَ، إنّه معتادٌ ذلك. حين يبكي، أعدّ له اليانسون مع السكّر، وضعه بلطفٍ في فمه، خلف سنّهِ البيضاء الصغيرة. غطّهِ بحرامِه الأزرق المخملي وقربه من يده الصغيرة. أحبّه ثلاثاً: مرةً

من أجلكَ، ومرّةً من أجلي، ومرّةً من أجل جدّته العربية. إنيّ أفوض حمايته إليك، يا جون»، قلتُ، ومسحتُ الدموعَ بظاهرِ يدي الباردة.

في سيّارة الأجرة، استغرق الطّريق بين قريتي والمطار ساعتين. مع شعري القصير المصبوغ، وقبّعة القشّ، ونظّارتي الشّمسيّة، وكميّ القصيرين، ظنّ سائق التاكسي البدوي، بكوفيّته المرصّعة بمربعات حمرٍ وبيض، والمثبّتة في مكانها بعقال أسود، أنني أجنبية. كان يتمتم تمتمة تشي بعدم الارتياح. ربّما كان يظنّ أنّني أتيتُ إلى بلادهم لدراسة طريقتهم في الحياة، وإعطائهم بعضَ النقود، ولأشجّعهم على المضي قدماً في العيش على هذه الحالة المزرية، والنوم مع جمالهم وأغنامهم. «سيجارة؟» قال، مشيراً إليّ بسيجارة غير مشتعلة، وتاركاً السّيارة تقودُ نفسها عبر الطريق المتهالكة الضيّقة.

«لا، شكراً»، قلتُ.

أشعل السّيجارة، وأنزل زجاج النافذة، ثم تناول كأس شاي مثبتة بين سقف السّيارة وزجاج النافذة، وارتشف رشفةً منها، ثم نفث سحابةً من سيجارته. حرف السّيارة إلى اليمين ثمّ إلى اليسار، من دون أن يسكبَ قطرةً واحدةً، فالسائل الدّبق اهتزّ داخل الكوب، مثل عاصفة صغيرة في كأس شاي.

«التدخينُ سيئ»، أشرتُ إلى سيجارته.

«الزوجة سيئة. التدخينُ جيّد»، قال، وأمالَ غطاء رأسه جانباً، رافعاً حاجبيه إلى الأعلى.

هذا ذكّرني بنداء حمدان السريّ للاجتماع به، والذي كنتُ ألبّيه على الفور، بالذهاب إلى الكرم، وخلع سروالي. ظننت أن حمدان سيتقدم لخطبتي، لكنّه تركني في أعماق الوادي، وهرب إلى أعلى الجبال.

نظرتُ إلى الجبال البنّية، شبه الجرداء تقريباً، ومزارع الزّيتون، والشّمس القاسية، والسماء الزرقاء الصافية، وشعرت أنّ يدَ أمي الخشنة تمسحُ وجهي. رحتُ أشمّ مسكَ أبي، وألتمسُ الحمايةَ قرب قفصِهِ الصّدري.

حين رأيتُ أشجارَ الزّيتون في البعيد، شعرتُ بالرّغبة في العودة سريعاً. تمنيتُ أن أشرب الشاي مع جون في مطبخِنا في إكستر، لكن السّائق كان يردّد مع مطرب شعبي جديد أغنية تقول: «بحبّك، آه»، ويضغط أكثر على دوّاسة السّرعة. كان الشّارع يسرعُ نحوي، والقرية تقتربُ ببيوتها الإسمنتية المبنية على نحو عشوائي ومخازنها الطينية. نداءاتٌ للصلاة، والشّمسُ تغربُ خلف الهضاب المكسوة بشوك الصبار، فيما نباح كلاب الرّعاة يملأُ الهواء. مسحتُ العرقَ البارد عن جبهتي، وكنتُ على وشكِ الطلب من السائق العودة، وإرجاعي إلى المطار. لكنني رأيتُ مجموعةً من الشّبان المتوجّهين إلى الجامع، يربتُ بعضُهم ظهور بعض، ويثبتُ بعضهم أغطيةَ رؤوسهم، ويفتل بعضهم شواربهم، فغيّرتُ رأيي فجأةً. لا بدّ أن ليلى هنا، في مكان ما، ويجب أن أجدها. كانت أشجار الزّيتون والتفّاح والخوخ تمرّ مسرعةً خارج زجاج السّيارة. سأساعدها على الاستقرار في البلاد الجديدة، وأعلّمها الإنكليزية، وأسجّلها في جامعة. إذا التقت عيناي عينيها، فستكون كلتانا على ما يرام.

حين رأيتُ المخزنين اللذين كانا بيتنا، طلبتُ من السائق أن يتوقّف، وناولته أربعين ديناراً.

بصق على الأرض، وقال: «أجنبية وبخيلة».

امرأة ترتدي السّواد كانت تجلسُ على مصطبة مرتفعة، أمام غرفتين جديدتين، مبنيتين على نحو عشوائي. لوحت لها بيدي. لم تردّ التحيّة.

ابني، قلبي، تبزغُ أسنانه. لعابُه يسيل، ومزاجُه عكر، وهو يمضغُ الأشياء بلا انقطاع. راح يبكي ثانيةً، فحملتُه إلى غرفة نوم الضيوف، التي كانت غرفة نومي حين كانت ليز على قيد الحياة، ووضعتُه في سريره، ومسحتُ وجهَه بمنديل مبلّل، ومرّرتُ أصابعي بلطف على لثته الملتهبة. عضّها، وبدأ يبكي ثانيةً. ضممتهُ وبدأتُ أهزّ له، وأغنّي:

«نم، حبيبي، نم
يا ليتَ عيون أعدائك لا تنام
روح يا حمام لا تبكي
بغنّي لعمران تينام».

أغمضَ عينيه أخيراً، وتنهّد. غطّيته، وأخرجتُ مقصّاً، وقصصتُ خصلة من شعرِهِ النّاعمِ البرّاق، ووضعتُها سريعاً في جيبي. شممتُ رقبتَه، وملأتُ قلبي برائحةِ طفولتِه. مسحتُ رأسَه الغضّ، ووضعتُ راحةَ يدي على قلبه. أسيكون على ما يُرام إذا تركتُه أسبوعين؟ جون أبٌ صالح، يهمس القصائدَ بالإنكليزية في أذنَيه، ويردّد كلمات محبّته بعربية مبسّطة، طوال الوقت.

نظرتُ من النافذة إلى الشّبح الأسود للأشجار المحاذية للحقول على جانبَي التلال. كانت جميعها تتمايلُ في الرّيح، تارةً يميناً، وتارةً شمالاً. حين رفعتُ زجاجَ النافذة، اندفعت هبّةُ ريحٍ إلى داخل الغرفة. أخرجتُ رأسي، ونظرتُ إلى خطوط التلال، وبريق النهر، وسكّة الحديد. هنالك صوتُ خشخشة الأشجار يتبعه صوتُ حفيفٍ بعيد.

هناك كان يقف. خنجره موثق بخصره، وحزام ذخيرته يسوّر صدرَه، وصندلُهُ ممزقٌ بال، وقدماه يغطّيهما غبارُ الصحراء، وأظفار قدميه طويلةٌ صفراء، مقطّعةٌ، وملأى بالوسخ، وبندقيتُه معلّقةٌ على كتفِهِ اليمنى.

استمعي إلى عدو الخيول، وصليلِ الخناجر الممتشقة من غمدِها، إلى طيور البومِ، بوجوهها المسطّحة تنعقُ في الظلام، إلى الخفافيش تخبّط بأجنحتها، إلى وقع خطىً خافتة، إلى العباءةِ تخفقُ في الرّيح، إلى حفيف خنجره يجرح الهواء. استمعي إلى ذراعه، تمسكُ برقبةِ ليلى، وتحرفها نحو الوراء، إلى خنجره يغور في اللحمِ، ويخترق العظام، ويصيب القلب. استمعي إلى دم ابنتكِ الأحمر الحارّ، يفورُ، وينزف، قطرة، قطرة، على الرّمل الجاف. استمعي إلى جسدِها، يتلوّى على الأرض. تهليلٌ. صرخةٌ. تمزيقُ عباءاتٍ سوداء. لطمٌ متناغمٌ على الصّدور. وشهقةٌ أخيرة.
«اقتلني، بدلاً منها»، صرختُ لظلّ محمود عند سكّة الحديد.

كلّ شيءٍ بدا أكثرَ صغراً، البئر في الباحة، غرف المخازن،

الحصان المربوط بشجرة التّين، الكلب، سرج حصان والدي، الأكواب والصحون، حتى أشجار التفّاح والخوخ. «حاجّة، هل أنتِ في خير؟» قلتُ للمرأة التي تجلسُ على مصطبةٍ عالية، وتخبّئ وجهَها بقناعٍ أسود. رأسُها مغطّىً بوشاح أسود، فوقه عِصَابة سوداء، تمثّل علامة الحداد. شرايينها الخضر تجري عبر يديها الجلديتين المتغضّنتين الجافّتين.

«من هذا؟» التفتت برأسها المعصوب نحو الصوت.

هاهي الحاجّة أمينة، أمّي، التي أبقتني رسالتها على قيد الحياة، طوال هذه السّنين. أخاديد دقيقة من التجاعيد تجري على خدّيها، وسائل أصفر ينزُّ من عينيها الدبقتين. بدت كأنّها تبتسم، والشقوق الحمراء على زاويتَي شفتيها الشاحبتين ترتفعان إلى الأعلى.

«زائرة لمضاربكم»، قلتُ بالعربية، ماسكةً قلبي بيدي.

«يا هلا بالضّيف»، قالت، ونهضت مستندةً إلى الإطار المعدني للباب. «سأعدّ لك الشاي»، قالت ومرّرت يدها على الحائط المكسو بالعفن. وقفت في منتصف الغرفة تائهة، لا تدري في أيّة جهة تذهب. «أين هو جهاز الطبخ الثرموس اللّعين؟» كان قبالتها، لكنها لم تكن قادرة على رؤيته.

أمسكتُ يدها وطلبت منها أن تجلس. سحبتها كأنّها تمسك بقضبان حديد ملتهبة جاهزة للكي.

«من أنتِ؟» قالت.

«أرسلتني شهلا»، قلتُ.

«إنّها ميتة»، قالت، وجلست على الأرض الإسمنتية، غير

المستوية، ومسحت عينيها بطرف وشاحها، وقالت كأنّها تخاطبُ القبيلةَ كلّها: «أهلاً بجميع ضيوفنا».

وضعتُ سبع ملاعق سكّر في إبريقٍ نحاسي، وملعقة شاي وغليتُ الماء. وناولتها بعناية شديدة كوباً صغيراً. حين ارتشفت الشاي، بدأت تبكي. «هل أنتِ وحدك؟»

«نعم، يا أمّي»، قلتُ.

أمضيتُ ساعاتٍ جالسةً على أرض المطبخ، متكئةً على الخزانة. حين عثر عليّ جون، لم أكن قادرة على الكلام، بعدما تجمّدت العضلة في الجانب الأيمن من وجهي، وتحت عيني. فتحتُ فمي، لكن لم أُصدر صوتاً.

«أنتِ تسمحين لهذا الكابوس أن يدمر حياتنا. جاءتك فرصة للسعادة، فماذا تفعلين؟ إنّكِ ترمينها»، قال، وجذبني إليه، وضمّني. «إنكِ نحيلة وباردة. عليكِ أن توقفي هذا الجنون، يا حبيبتي». أجلسني، وأعدّ لي كوباً من الشاي الحلو.

حين ارتشفت بضع رشفات، بدأت عضلة وجهي ترتخي وتتحرّك.

«سوف أفعل. أعدُكَ». قلتُ. كان صوتي مبحوحاً، كأنّه ليس صوتي.

«من فضلكِ، تمسّكي بعمران واتركي ليلى»، قال.

حين سمعتُ اسمَها يخرجُ من شفتيه، انهارَ قفصي الصّدري، كأنّ أحدهم لكمني. تنفّست عميقاً، لكن الهواء لم يدخل البتة إلى رئتي. بدأتُ أسعلُ بصعوبة، محاولةً أن أتنفّس.

ضمّني جون وقال: «مهلاً، مهلاً. كلّ شيءٍ سيكونُ على ما يُرام. سترين».

غير أن كوباً من الشاي، وعبارة «مهلاً، مهلاً» لم يكونا كافيين.

قلتُ لهما وداعاً حين كانا نائمين. كانت حقيبتي المرتّبةُ مخبّأةً في الخزانة، بين ملابسي الشتوية، أما جواز سفري البريطاني، وبطاقة الطائرة، فكانا في حقيبة يدي، وكنتُ أنتظرُ اللحظةَ المناسبة للمغادرة. كان عمران نائماً في سريره الخشبي، قرب جهاز التدفئة، عند النافذة. رضعَ شفتيه، وتنهّدَ باكياً، وبؤبؤاه دارا تحت جفنيه المغلقين. شممتُ رأسَه، وقبّلتُ جبهتَه، وغطيته بحرامه المرصّع بصورة «سنوبي» المسافر بين النجوم، وقبّلتُ يدَه الصّغيرةَ، ونهضتُ. كان جون ينامُ على جانبه. مسحتُ شعره الخفيف بأصابعي، وقبّلتُ قمّة رأسه، وقبّلتُ الشامة على ظهرِهِ، وقبّلتُ ظاهرَ ساقيه المكسوتين بالشَعر، وحين تنهّدَ، وانقلبَ على جانبه الآخر، مواجهاً عمران، خرجتُ من الغرفة على رؤوس أصابعي.

ردّدتُ: «سامحني يا عمران، سامحني»، مع كلّ خطوةٍ أسيرُ باتجاهها. كان يجب أن أذهبَ وأعثرَ عليها. كان يجب أن أذهبَ وأعثرَ عليّ.

*

كان متجر صادق قد فتح أبوابه، وكان هو يؤدّي صلاة الصباح. أنهى التسليمَ، ونظرَ إلى الأعلى. حين رآني، خرج وقال: «تبدين مثل شبح. هل أنتِ ذاهبة إلى مكان ما أيضاً؟»

«نعم، يا صادق. ثمة ما أريدُ القيام به»، قلتُ له.

«أنتِ في مهمّة؟»

«عائدة إلى الوطن»، قلتُ.

«تصرّفي بحذر. أنتِ لستِ جوزة هند فحسب، سمراء من الخارج وبيضاء من الداخل. وابنكِ ملفوف نصف عربي. لن يكونوا سعيدين لذلك»، قال.

«أعرف. هلاّ تطلب من جون أن يسامحَني».

«مهلاً، مهلاً، لمَ تطلبين إذناً من زوجك؟»

«كلاّ. لا تقل شيئاً. الملائكة ستحلّقُ فوق رأسي، وتلعنني ليلَ نهار».

«قلتِها بنفسكِ»، قال.

«إنّها تلعنني منذ اليوم الذي ولدتُ فيه»، قلتُ.

«ستحوّلين هذا إلى فيلم هندي»، قال.

«اسمعْ من فضلكَ! هلاّ تطلب من جون أن يسامحني، وقل له إنّي أحبّه وأحبّ عمران كثيراً. أحبّهما كثيراً».

«تحبيّنهما؟ ابقي، إذاً»، قال.

«لا أستطيع. ابنتي تناديني»، قلتُ.

«لديكِ ابنة هناك؟ يجب أن تذهبي وتنقذيها. لدي صبيان وبنت. أمّي تقول إن رجلاً عجوزاً يريدُ الزواجَ بها. إنّها في السّابعة عشرة فقط»، قال، ومسح شعرَه المرطّب بالزيت برؤوسِ أصابعِهِ. «أفكر في العودة إلى الباكستان كل يوم»، أضاف.

«أستهتمّ بهما من أجلي؟» قلتُ على جناح السرعة، وقبّلتُه على خدّيه.

«ملفوف أو غير ملفوف، سوف أفعل»، قال.

«اطلب منهما أن يسامحاني»، قلتُ.

«ستنتظر عيناي رؤيتكِ يا سلمى، رافقتكِ السلامة»، قال، وأمالَ ذقنه، وضغطَ بأصابعه الأمامية السمراء الرقيقة على زوايا عينيه.

قدماً بعد أخرى، سرتُ نحو محطّة القطار كأنّني في غيبوبة. تراءى لي أنّي سمعتُ بعض الصرخات المخنوقة، ودبيب الأنفاس، ورجلاً ينادي باسمي، وصفّارة الرحيل، ونداءً خافتاً. يا الله! أسأصلُ إلى هناك في الوقت المناسب؟

«أغلقي الباب والنافذة بسرعة. لا تقلقي بشأن أخيك محمود. إنّه دائماً في العاصمة، يبحثُ عن عزاء ما»، قالت، وهي تنتحبُ.

كان صعباً أن أغلق الباب، الذي ربّما لم يُغلق من قبل. أغلقتُ النافذتين بإحكام، ورحتُ أصغي إلى أصوات ما، وأترقّب حركاتٍ ما. حين تأكّدتُ أننا بتنا وحدنا، جلستُ بالقرب منها، وأمسكتُ يدها، ومرّرتُها على وجهي. قبّلتْ جبهتي وقالت: «الكلمات الأخيرة على شفتَي والدكِ قبل أن يموت كانت اسمكِ واسمها. لقد أجهز عليه الحزنُ وجفّف أوصالَه. انظري، تركني هنا عمياء، وحيدة».

«اشتريتُ لكِ نظّارة طبّية يا أمّي»، قلتُ.

«وما نفعها الآن؟» قالت وهي تمسح دموعَها.

قبّلتُ يديها الخشنتين، وأعلى رأسها، وقلتُ: «دموعكِ

حبّات لؤلؤ، حجر ياقوت، لا تدعي أحداً يراها». هذا ما كانت تقوله لي حين كنتُ صغيرة.

«اليوم الذي أخذوكِ فيه، تحوّل أبوكِ إلى عجوزٍ يمشي بصعوبة، ويتكئ على عصا. لقد تحوّل من فارس للقبيلة إلى أضحوكة ومصدر لسخرياتهم وتهكّمهم. ابنتُه لطخت شرف القبيلة، ونجت بجلدها».

«وحمدان؟»

«صار رجلاً آخر. مجرّد ظلّ يزحفُ هنا وهناك».

كانت لمستُه حنونةً، وحبّي يدفعُ ويرفس في قلبي مثل بغلٍ، وخيانته نهائية. شاءَ لها القدرُ أن تولدَ جميلةً وكاملةً مثل زهرةٍ حمراء على شجرة رمّان.

بقلب مشدود، وذقن مرتجف، سألتُ: «وماذا عن ابنتي يا أمّاه؟»

«يا لتلك الصغيرة؟ أخذتُها من دار الرعاية الاجتماعية. قلتُ لأخيكِ إنّها بريئة. لقد ملأت قلوبنا بالبهجة، هي الجميلة، الغضّة»، قالت، ومسحت خطوط الأخاديد حول زاويتَي فمها بإبهامِها وسبابتها.

«أحمدُ الله لأنني عمياء. أتمنىّ لو كنتُ عمياء القلب أيضاً»، وغطّت وجهَها بكلتا يديها.

قشعريرةٌ سرت في أنحاء جسدي، من رأسي حتى أخمص قدمَيّ. ضغطتُ بيدي على صدري كي أمنع قلبي من القفز.

«قبل شهرين رماها عمّها الذي لا يساوي شيئاً في البئر الطويلة. كان لسان حاله يقول: «البنتُ صورةٌ عن أمّها». انتشلها

أبوكِ وصديقه جدعان، ودفنا جثّتها في المقبرة، خلافاً لرغبات رجال القبيلة».

أرخت النقابَ على وجهها وقالت: «لاحقاً، بعد أن فطر الحزنُ قلبَه، توفّي أبوك أيضاً».

«يوبا! يومّا!» صرختُ، كاشفة عن تنكري لكل القبيلة، ثم ارتميتُ أرضاً، ورحتُ أنشدُ حداء جدّتي على الميت، «يا ضوء عيني الغالي، لم أستطع أن أنقذكِ منه. لطّخ وجهي بالهباب! لفّني بوشاح كفنها! ادفنيّ أنا بدلاً منها! يا الله، أين هي الآن! أريدُ أن أرى وجهَها. أحضروا لي خصلةً من شعرها».

بوجهٍ مسودّ بالرّماد، وقميصٍ تي شيرت ملطّخ بالشّاي المسفوح والعرق والدموع، جلستُ على الأرضِ، أرشّ الرملَ على شعري الأشعث. يدي اليمنى ارتمت مشلولةً في حضني. لم يكن يميّزُ قبرَها شيء عن القبور الأخرى. كان مرتفعاً قليلاً عن الأرض، وقد وضع أبي فوقه صندوقاً خشبياً عفناً ومصنوعاً بشكل عشوائي، مع عبارة منقوشة عليه تقول: «توفيت عام ١٩٩٠». بيدي اليسرى بدأتُ أنظّفُ ما حوله، وأقتلعُ الشوك والأعشاب البرية التي تغطّيه، وأوسّع الفضاءَ حوله.

بدا السوسن الأسود في أقصى المقبرة أكثر طولاً وخطراً في ضوء الشّفق. وقفتُ هناك، معفّرةً بالرّمل. ذراعاي اللتان تكسوهما الكدمات والجروح، انبسطتا نحو السّماء. في تلك اللحظة، وخزت ليلى قلبي، عائدةً إليه. أعرفُ ذاك النسيم. صقيعٌ مفاجئ يجتاحني، ويسري في كلّ شعرة من جسدي، وصدري ينهار كأنّني أغرق.

كانت تعبةً، وجائعةً، وباكيةً، تبحثُ عن موطئ لقدمِها الصغيرة. انحنيتُ وضممتُ قبرَها. يمكن أن تطمئنها رائحتي المألوفة، وحلمتاي الحنونتان، وقفصي الصدري الدافئ، فتشعر بالأمان، والحماية. ذات يوم، «هي الموؤودة»، ربمّا تتوقّفُ عن البكاء.

ليلى تقف حيث الغيوم الناصعة تلامسُ السّماء الزرقاء الممزّقة، مهرةً أصيلةً، جسدها الأسمر مشدود، قهوة مع حليب، عيناها عسليتان، فم حمدان، حبات رمّان يانعة، شعرها يتهادى شلالاً على كتفيها. إنّها تبتسمُ، لؤلؤةً في قبرها، تتهادى بعيداً بين الكروم، وتتلألأ عبر الأوراق الغضّة الطرية، عموداً من غبار الألماس. حاولتُ أن أمسكَ بها، بيد أن عمود الغبار التفّ، وطار باتجاه السوسن الأسود، ثم اختفى حيث جون الذي يضمّ طفلَنا، ابنَنا، إلى قفصه الصدري، يقف بين السّوسن الأسود والسماء الملبدة بالغيوم.

فجأةً سمعتُ أصواتاً خلفي. امرأةٌ تتوسّلُ إلى رجل من أجل أن لا يفعل شيئاً. شابٌ يقول: «إنّه واجبه. يجب أن يظلّ رأسه مرفوعاً. العارُ لا يمحوه إلاّ الدّم».

«يدُكِ عنّي، أيّتها المرأة العجوز المعتوهة»، صرخ رجلٌ.

حسبتُ أنّي سمعتُ صوتَ أمّي يقول: «يمكنكَ أن تأخذ المزرعة، وكلّ ما أملك، إنّ لها ابناً رضيعاً الآن، أتوسّل إليكَ...»

حين أدرتُ رأسي، شعرتُ بألمٍ باردٍ يخترقُ جبهتي، هناك بين عينيّ، ثم، مثل دمٍ في ماء، سالَ الألم وانتشر.

* * *

«محبوكة بمهارة، يتخلّلها حسّ المفارقة، والوعي الاجتماعي.»

ليلى أبو العلا، مؤلّفة «المئذنة»

«كتابٌ جميل، مكتوب بنثرٍ حنون، رشيق، حول ابتكار عالم جديد، بعد خسران المرء لكلّ شيء ذي معنى. سلمى شخصية لا تُنسى، شرسة وعاشقة، تتأرجحُ بين كراهية الذات وشعورها بالقوة، مؤثّرة وساحرة.»

ماغي جي، مؤلّفة «الأسرة البيضاء»

بعد أن أضحت سلمى حاملاً، قبل الزواج، في قريتها الصغيرة، في المشرق، تتلاشى إلى الأبد أيام البراءة، حين كانت تسبحُ في مياه النبع. تُساق إلى السجن من أجل حمايتها. وعلى وقع صرخاتها، تولد طفلتُها التي اختُطفت منها على الفور.

في قلب مدينة إكستر، أكثر المدن إنكليزيةً، تتعلّم سلمى الكياسات الاجتماعية على يد صاحبة منزلها، ثم تستقرّ مع رجل إنكليزي. ولكن في أعماق قلبها، تظلّ تتردّد صرخات طفلتها. وحين لم تعد قادرة على سماعها، تقرّر العودة إلى قريتها، بحثاً عن فلذة كبدها. إنّها رحلة ستغيّر كلّ شيء — ولا شيء.

موزّعة بين حقول الزيتون في المشرق، والأرصفة المبلّلة بالمطر في إكستر، تقدّم هذه الرواية تصويراً باهراً لشجاعة امرأةٍ تقفُ في وجه تحدّيات صعبة، لا تُقهر.

فادية الفقير كاتبة بريطانية/أردنية، ومدافعة عن حقوق الإنسان، خاصة حقوق المرأة في العالم العربي. في العام ١٩٩٠ منحتها جامعة إيست أنجليا أوّل شهادة دكتوراه في الكتابة النقدية والإبداعية. أصدرت عدداً من القصص القصيرة والمسرحيات وروايتين: «نيسانيت» و«أعمدة الملح».

ISBN 978-1-85516-291-4

9 781855 162914 >

DAR AL SAQI

دار الساقي